

الصحوة الإسلامية وهمـــوم الوطن العـربى والإسلامى

د. يوسف القرضاوى



دار الشروق

الصحوة الإسلامية

وهموم الوطن العربي والإسلامي

دكتور يوسف القرضاوي

الصحوة الإسلامية

وهموم الوطن العربي والإسلامي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٥٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه وبعد .

فهذه دراسة تلقى بعض الضوء على الإطار العام للصحوة الإسلامية لمعاصرة ، ممثلة فى تيارها الأقوى والأوسع ، وهو ما أسميه (تيار الوسطية لإسلامية) وتوضيح موقفها من هموم الوطن العربى والإسلامى .

وهذه الدراسة كتبتها فى الأصل ، لأشارك بها فى ندوة (الصحوة ,هموم الوطن العربى) التى نظمها ودعا إليها (منتدى الفكر العربى) الذى يرأسه الأمير المثقف الحسن بن طلال ولى عهد الأردن ويتولى أمانته الأستاذ لدكتور سعد الدين إبراهيم ، الذى طلب إلىّ أن أكتب فى هذا الموضوع ، فلم يسعنى إلا الاستجابة له ، وعقدت الندوة فى مدينة عمان فى شهر آذار (مارس) ١٩٨٧ بالتعاون مع المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية .

وقد تناولت فيها بيان مفهوم الصحوة وحقيقتها وخصائصها وعواملها .

وبعد هذا التمهيد حاولت أن أبين المعالم أو الخصائص البارزة للإسلام كما تفهمه الصحوة وتقدمه للناس ، مركزاً على خصائص أربع رئيسية هى :

١ ــ الجمع بين السلفية والتجديد .

٢ ــ الموازنة بين الثوابت والمتغيرات .

٣ ــ التحذير من التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام .

٤ ــ الفهم الشمولى للإسلام ، محدداً أبعاداً خمسة أساسية ، هى :

البعد الإيمانى ــ والبعد الاجتماعى ــ والبعد السياسى ــ والبعد التشريعى ــ والبعد الحضارى [1] .

وهذا هو القسم الأول من الدراسة .

---

(١) هذا البعد الحضارى كنت حذفته من الدراسة التى قدمتها للندوة اختصاراً ثم أعدته إلى مكانه الآن .

أما القسم الثانى ، فيتعلق بموقف الصحوة من هموم الوطن العربى والإسلامى .

وقد حددت أصول هذه الهموم بسبعة ، هى : التخلف ، والظلم الأجتماعي والاستبداد ، والتغريب ، والتخاذل أمام الصهيونية ، والتمزق ، والتسيب .

وهنا تحدثت عن نظرة الصحوة الشمولية المتوازنة إلى هذه الهموم ، بعيداً عن النظرات : الجزئية ، والسطحية ، والقطرية ، والآنية ، والتلفيقية والتبريرية .

كما تحدثت عن كل هم من هذه الهموم السبعة على حدة ، بما يوضح نظرة الصحوة وتيارها الوسطى ، الذى أتحدث باسمه .

هذا ، وقد أبقيت على جوهر الدراسة ، كما قدمتها للندوة ، لكني أضفت إليه فى بعض المواضع بعض سطور ، وربما بعض صفحات ، تتميماً للبحث ، أو بغية المزيد من البيان أو دفعاً لشبهة أو إجابة عن تساؤل ، أو لغير ذلك من الاعتبارات .

كما جعلت العنوان (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى) إيمانًا منى بأن هموم العرب هى هموم المسلمين جميعاً ، ولا يختص الوطن العربى بمشكلات لا يعانيها الوطن الإسلامى كله .. ولأن أكثر كتبى تترجم إلى اللغات الإسلامية فربما أفهم العنوانُ الأول أن البحث لا يتحدث إلا عن العرب ، ولا يُخاطب سائر المسلمين ، وهو خلاف الواقع .

أرجو أن يكون فى هذا الكتاب ما يلقى الضوء على حقيقة الصحوة ومنطلقاتها ومواقفها ، وما يصحح بعض المفاهيم المغلوطة حولها ، ويرد بعض الأكاذيب والشبهات عنها ، ويقرب بين التيارات المتباعدة وعسى الله أن ينفع به . آمين .

الدوحة جمادى الأولى ١٣٠٨ هـ

يناير ١٩٨٨ م

الدكتور يوسف القرضاوى

الصحوة

مفهومها .. خصائصها .. عواملها

الصحوة حقيقة واقعة

مادة (صحا) فى العربية تعنى – إذا وصف بها الإنسان – التنبه والإفاقة واليقظة .

ويعرف ذلك من مقابلها وهو : النوم أو السكر . يقال : صحا من نومه أو من سكره ، صحواً ، بمعنى أنه استعاد وعيه بعد أن غاب عنه ، نتيجة شيء طبيعى ، وهو النوم ، أو شيء اصطناعى ، وهو السكر .

والصحوة فى الأصل للقوة الواعية فى الإنسان ، ويعبر عنها بالقلب أو الفؤاد أو العقل ، وفى الشعر العربى قرأنا قول جرير فى حائيته الشهيرة :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟

وقال الآخر :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله .

والأمم يعتريها ما يعترى الأفراد من غياب الوعى ، مدداً تطول أو تقصر ، نتيجة نوم وغفلة من داخلها ، أو نتيجة (تنويم) مسلط عليها من خارجها .

والأمة الإسلامية يعتريها ما يعترى غيرها من الأمم ، فتنام أو تنَوّم ، ثم تدركها الصحوة ، كما نرى اليوم .

الصحوة إذن تعنى عودة الوعى والانتباه بعد غيبة .

وقد عبر عن هذه الظاهرة فى بعض الأحيان بعنوان (اليقظة) فى مقابل (الرقود) أو (النوم) الذى أصاب الأمة الإسلامية فى عصور التخلف والركود وفى مقابل (التنويم) الذى أصابها فى عهود الاستعمار العسكرى والسياسى الذى خلف ألواناً أخرى من الاستعمار هى فى الحقيقة أدهى وأمر ، وأخطر منه وأشر ، وهى الاستعمار الثقافى والاجتماعى ، الذى يسلخ الأمة من ذاتيتها ، كما تسلخ الذبيحة من جلدها .

كما عبر عنها أحيانا بعنوان (البعث) وهو أيضا يكون بعد (النوم) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾(١) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٦٠ .

كما يكون بعد (الموت) ولعله المتبادر إلى ذهن المسلم : أن البعث بعد الموت : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (١) .

والأمة المسلمة لا تموت ، ولكن النوم ، شبيه بالموت ، وخصوصاً إذا طال . وقد قيل : النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل ، أو : النوم هو الموتة الصغرى ، والموت هو النومة الكبرى .

ومهما يكن التعبير عن هذه الظاهرة فهى حقيقة واقعة ، نلمسها اليوم فى مظاهرها المتعددة ، ومجالاتها المتكاثرة .

وهى - على أية حال - ظاهرة ليست غريبة على طبيعة الإسلام وطبيعة أمته ، بل الغريب حقاً ألا تكون .

فمن طبيعة الأمة المسلمة ألا يستمر نومها وغيبتها عن الوعى أزماناً تتطاول .

فمن طبيعة الإسلام أن يوقظ فيها عوامل التنبه ، وبواعث التحرك ، ما دام قرآنها محفوظاً فى الصدور ، متلواً بالألسنة ، مسطوراً فى المصاحف ، وذلك ما تكفل الله بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٢) .

وما دامت سيرة نبيها بين أيديها ، وسيرة أبطالها نصب عينيها ، تضىء مصباح التأسى ، وتوقد جذوة الحماس فى القلوب .

ومن طبيعة الأمة أنها لا تجتمع على ضلالة ، ولا بد أن يقوم فيها طائفة على الحق ، يهدون به ، ويدعون إليه ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ . وأنه لا ينخرم قرن من الزمان ، حتى يهيىء الله لهذه الأمة من يوقظها من رقودها ، ويجدد لها الدين ، الذى هو روح حياتها ، وحياة روحها ، كما فى الحديث المعروف : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . (رواه أبو داود وغيره) .

* *

• من خصائص هذه الصحوة :

وهذه الصحوة - أو البعث ، أو اليقظة - التى نعيشها اليوم ، هى صحوة عقل وفكر ، وصحوة عاطفة وقلب ، وصحوة إرادة وعزم وصحوة عمل ودعوة . فهى صحوة شاملة ، وهذا من خصائصها .

---

(١) سورة الحج : الآية ٧ .   (٢) سورة الحجر : الآية ٩ .

• صحوة عقل وعلم :

أما إنها صحوة عقل وعلم ، فيعرف ذلك من يخالط شباب هذه الصحوة ، ويرى نهمهم للقراءة ، وحبهم للمعرفة ، وإقبالهم على العلماء والمفكرين ، من دعاة الإسلام ، وحرصهم على الالتقاء بهم ، والاستماع إليهم في محاضرات عامة أو حلقات خاصة .

كما نلمس ذلك في ظاهرة لم تعد خافية على أحد ، وهي انتشار (الكتاب الإسلامي) بين الشباب ، برغم عوائق النشر وقيوده في كثير من الأقطار ، حتى غدا من المُسَلّم به الآن الذي سجلته الأرقام والإحصاءات ، وخصوصاً بعد إقامة أي معرض أو سوق للكتاب : أن الكتاب الإسلامي هو الذي يضرب الرقم القياسي في سوق التوزيع .

وظاهرة أخرى هي ترجمة الكتب الإسلامية من لغة إلى أخرى ولا سيما من اللغة العربية — اللغة الأم للثقافة الإسلامية — إلى اللغات الإسلامية في آسيا وإفريقيا مثل الأوردية والتركية ، والأندونيسية والماليزية ، والماليبارية والسواحلية وغيرها كما ترجمت مؤلفات الأستاذ أبي الأعلى المودودي من الأوردية إلى العربية وغيرها من اللغات .

هذا عدا الترجمة إلى اللغات الأوروبية من الإنجليزية والفرنسية وغيرها .

صحيح أن القراءة هنا ينقصها التنوع والتكامل ، كما أن بعض أبناء الصحوة نراه محصور الاهتمام في نوع معين من الكتب الإسلامية ، أو في مدرسة فكرية خاصة لا يكاد يخرج عنها ولكن هؤلاء لا يمثلون جمهور الصحوة الأكبر ، كما أنهم — على كل حال — كسروا تلك القاعدة المخيفة التي تقول إن أمتنا لا تقرأ ، ولا تعنى بأمر القراءة .

* *

• صحوة قلوب ومشاعر :

وهي صحوة قلوب ومشاعر ، تتجلّى في هذا الحماس الدافق الذي نلمسه لدى الشباب ، في القلوب الوجلة إذا ذكر الله ، وفي الأعين الدامعة من خشية الله ، وفي الجلود المقشعرة إذا تليت آيات الله ، وفي مشاعر الحب والولاء لله ولرسوله ، وللمؤمنين ، ومشاعر البغض للطاغوت وأوليائه والشيطان وحزبه ، والشر ودعاته .

لا غرو ، فإن أوثق عرا الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله ، والموالاة فى الله والمعاداة فى الله .

وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١) . ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . . ﴾(٢) .

كما وصف الله تعالى جنوده المرجويين لنصرة الإسلام حين يدبر عنه المدبرون ، يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وبهذا نجد في الصحوة القلوب النقية ، إلى جانب العقول الذكية ، ونجد الحماسة المتقدة ، إلى جانب الدراسة المتئدة .

ولا شك أننا محتاجون إلى قدر من الحماسة ، نصبه على هذا البرود القاتل الذى ابتلينا به فى كثير من الناس ، فى مواجهة القضايا العامة ، والمصائب التى تحيق بالأمة ، وتهدد مصيرها ، والأوبئة الأخلاقية التى تفتك بها ، والأنحرافات السياسية والاقتصادية التى تهز كيانها ، والتيارات الثقافية التى غزتها غى عقر دارها ، تريد أن تحرف مسارها وتحولها عن هويتها ، وتسلخها عن جلدها .

نحن هنا فى حاجة إلى صرخات الشباب ، لتوقظ النائمين ، وتحذر الغافلين ، وترهب المتلاعبين .

ولا نلوم الشباب هنا إذا ارتفع صراخه ، وعلا زئيره ، وانتفخت أوداجه ،

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٢٣ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

واحمرت عيناه ، ما دامت الأوضاع مستمرة على سوئها وما دام اللصوص الكبار يسرحون ويمرحون ، ولا يعاقب إلا صغار اللصوص ، نشالو الجيوب يسجنون ، ونهابو المال العام طلقاء أحرار لا يمسهم أحد بسوء ، سيظل الحماس والاندفاع – إلى حد العنف أحياناً – ما دام أهل الخير مبعدين وأهل الشر مقربين ، وما دام المعروف ضائعا ، والمنكر شائعاً ، وما دام الإسلام يعيش غريباً في أوطانه ، مضطهداً بين أهله ! .

وما دامت شريعته معطلة وقرآنه مهجوراً ، ودعاته الأصلاء معزولين عن مواطن التأثير والتوجيه .

أجل ، لا نلوم الشباب إذا أسرفوا في الحماس ما دمنا نحن الذين نغذيه بتصرفاتنا ومواقفنا والاستجابة لوساوس أعدائنا . إن غريزة الدفاع عن الذات ستتحرك ولا بد وستحرك أبناءنا الثائرين ، إلى ما قد يعد شططاً أو تجاوزاً وهم يتغنون بقول الشاعر القديم :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم   فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم ؟
متى تحمل القلب الذكي وصارماً   آنفاً حمياً تجتنبك المظالم ؟

إننا إذا كنا صادقين وكنا مجدين في علاج الشطط من بعض جيل الصحوة ، فعلينا أن نعالجه بعلاج أسبابه ، بعقلية الطبيب مع السقيم ، لا بعقلية الشرطي مع المتهم .

على أن الإنصاف الواجب للصحوة يقتضينا أن نقول : إن الذين يتهمون بالشطط في حماسهم مع ما لهم من أعذار وأسباب لا يكونون إلا شريحة محدودة من تيار الصحوة العام ، وليس من العدل ولا من الموضوعية أن يتهم التيار كله من أجل فئة قليلة حسنة النية ، لها ظروفها ومبرراتها عند أنفسها ، وعند كثير من الناس .

على أن هناك مجالات للحماس المتوقد ، تبرز فيها الصحوة الإسلامية وتثبت وجودها بقوة وأعني بها ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، وبالشريعة الإسلامية ، وبالأرض الإسلامية .

فلو مس أحد العقيدة الإسلامية ، بأن تجاوز حدوده فيما يتعلق بمقام الله

جل جلاله ، أو بمكانة الرسول الكريم ، أو بقدسية القرآن العظيم ، أو بأى ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، وغيبياتها اليقينية ، فإن الصحوة فى لمح البرق تقيم الدنيا ، وتقعدها ، وتنقلب إلى براكين ثائرة ، حتى تعلو كلمة الإيمان ، وتنكسر شوكة الكفر .

وفى مجال الشريعة نجد الصحوة قد أوقدت مشاعل الحماسة لها ، وصعدت التيار المنادى بضرورة العودة إلى تحكيمها وتطبيقها فى كل مجالات الحياة ، والتحرر من ربقة الآثار التشريعية التى خلفها الاستعمار أيام حكمه وسلطانه على بلاد المسلمين .

وبالنظر إلى الأرض الإسلامية ، وجدنا الصحوة قد عمقت ووسعت دائرة الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية ، والأرض الإسلامية ، فنجد فى مدينة كالقاهرة ، أو الإسكندرية مثلاً ، تقام مؤتمرات ، وتعقد حلقات ، وتهيأ أسابيع ، بل تسيّر مظاهرات ، من أجل قضايا المسلمين ، مثل قضية فلسطين أو لبنان ، أو أفغانستان ، أو الفلبين ، أو غيرها ، فأصبحت هذه القضايا حية ، بعد أن أريد لها أن تموت ! .

* *

• صحوة التزام وعمل :

وهى – إلى جوار صحوة العقول ، وصحوة المشاعر – صحوة إرادة وهمة ، صحوة التزام وسلوك ، صحوة عمل وإنتاج .

فقد ترجمت الإيمان إلى عمل ، والعقيدة إلى سلوك ، كما هو شأن الإيمان الإسلامى الصحيح ، فليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولا بالادعاء ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

ولا عجب إن قرن القرآن الإيمان بالعمل ، فى عشرات الآيات ، وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار ، بالعمل ، كما رتب خيرات هذه الحياة نفسها على العمل : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (١) . ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٣٠ . (٢) سورة الزخرف : الآية ٧٢ .

ولا يجادل منصف فى التزام أبناء الصحوة وبناتها بالسلوك الإسلامى ، من أداء الفرائض واتقاء المحارم ، حتى أصبحت المساجد عامرة بالمصلين ، وغدت مواسم الحج والعمرة حافلة بالأعداد الغفيرة من الجيل الصاعد ، ورأينا هؤلاء الذين يمثلون اتجاه الصحوة أبعد ما يكونون عن تناول المسكرات والمخدرات ، وألوان اللهو الحرام ، حتى (السيجارة) لا تعرفهم ولا يعرفونها .

بل نراهم حريصين على إحياء الآداب الإسلامية ، وإظهار السنن التى هجرها الناس فترات من الزمن ، نسيت – أو كادت – من حياة الناس ، مثل إعفاء اللحى ، والتزام الحجاب ، والاعتكاف فى رمضان ، وصلاة العيد فى الخلاء ، وخروج النساء إلى صلاة العيد ، وغير ذلك مما كان مهجوراً ، فظهر واشتهر .

كما رأينا كثيرين من أبناء الصحوة يعملون فى ميادين خدمة المجتمع ، ويسهمون فى الأعمال الخيرية ، بل يقودونها محتسبين متطوعين ، وقد شاهدت ذلك بنفسى فى جمع المعونات للمتضررين بسبب المجاعات فى إفريقيا ، وكذلك للاجئين والمشردين من المسلمين فى فلسطين ولبنان وأفغانستان وغيرها .

وهكذا نرى الصحوة صحوة عمل بالإسلام ، وصحوة عمل للإسلام .

ونعنى بالعمل للإسلام : حمل عبء الدعوة إليه : عقيدة وشريعة ، ودنيا ودولة ، وخلقاً وقوة ، وحضارة وأمة ، وثقافة وسياسة والجهاد فى سبيل تمكينه فى الأرض ، وتحكيمه فى حياة المسلمين ، حتى يتفق واقع المسلم مع عقيدته ، ويلتقى سلوكه مع ضميره ، والعمل على تحرير أمته من كل قيد أو سلطان أجنبى ، أو بقايا سلطان يعزلها عن أصولها وجذورها ، ويسلخها من هويتها الدينية والثقافية والحضارية .

وبهذا تميز تدين الصحوة عن التدين التقليدى الموروث من عهود الانحطاط ، وهو تدين جزئى فردى معزول عن قضايا الأمة الكبرى ، وعن رسالتها فى الحياة ومكانتها فى الوجود .

وهذا ولا ريب نتيجة تأثر الصحوة بالحركة الإسلامية التجديدية وخصوصاً حركة الإخوان المسلمين .

ولا ريب أن الانتفاضة العارمة الأخيرة فى غزة والضفة الغربية وسائر فلسطين المحتلة من ثمار هذه الصحوة ، وأن الجهاد الصامد الصلب فى أرض أفغانستان أمام القوة الكبرى العاتية وإحرازه انتصاراً بعد انتصار ، إنما هو من بركات هذه الصحوة الميمونة .

وثورة الإخوة فى جنوب (الفلبين) منذ سنوات على الحقد الصليبى ، والظلم المتعصب إنما هو من آثار هذه الصحوة .

والتنادى بتطبيق الشريعة الإسلامية على المستوى الجماهيرى ، إنما هو من آثار هذه الصحوة .

* *

• صحوة الشباب المثقف :

ومن خصائص هذه الصحوة : أنها صحوة شباب . أعنى أن الشباب هم عمودها الفقرى ، والعنصر الفعال فى مسيرتها ، سواء كان هذا الشباب من الفتية أم من الفتيات .

كما أنهم الفئة المثقفة من الشباب ، وليسوا الأميين ، أو الذين يفكون الخط من أبناء الشعب . بل هم أبناء الجامعات والمعاهد العليا ، والثانويات .

ومما ينبغى تسجيله والتنبيه عليه : أن طلاب الكليات العملية التى تشترط المجاميع العليا من الدرجات ، للقبول فيها ، ويقبل عليها عادة المتفوقون كالطب ، والهندسة والصيدلة ونحوها ، هى أكثر الكليات الجامعية عمرانًا بشباب الصحوة الإسلامية ، حتى أنى لاحظت أن طلبة الطب والهندسة فى جامعة الأزهر كانوا هم القادة المتحركين والمحركين فى الجماعات الإسلامية ، وليسوا طلاب الشريعة أو أصول الدين .

وهذا يدل على أن أذكى الطلاب وأكفأهم عقلياً وعلمياً هم الذين يقودون الصحوة إلى جوار المواهب والقدرات الأخرى النفسية والخلقية والاجتماعية .

وقد مضى زمن كان رواد المساجد فيه هم (الشيّاب) الذين استدبروا الحياة ، واقتربوا من حافة القبر ، ولم يعد لهم فى متاع الدنيا أرب ، ولا فى مطامعها رغب ، فأحبوا أن يختموا كتاب حياتهم بصفحات بيض من التوبة والذكر وإقامة الصلاة .

أما اليوم ، فيشهد كل من كان بينه وبين المسجد صلة ، أن رواد المساجد الحريصين على الصلوات فى أوقاتها وعلى الجماعات الأولى ما استطاعوا ، هم شباب فى عمر الزهر ، وفى مقتبل العمر ، رغبوا أن يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فنشأوا فى طاعة الله تعالى ، وتعلقت قلوبهم بالمساجد وتحابوا بروح الله عز وجل ، اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه .

ومواسم الحج والعمرة غاصة بالشباب ، كما يلاحظ ذلك كل مراقب ، وكما تدل عليه الإحصاءات الرسمية .

وقراء الكتاب الإسلامى جمهرتهم من الشباب المتعطش إلى معرفة الإسلام معرفة تحدد له الغاية ، وتضيء له الطريق ، وخصوصاً ممن يثق بعلمهم ودينهم وسلامة اتجاههم ، ممن يقدرون أمانة الكلمة ، وثقل التبعة : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ﴾ [(١)] .

ولا عجب أن يكون الشباب هم عماد الصحوة ، فالشباب دائماً هم أنصار الرسالات السماوية وجنود الدعوات الربانية ، لأنهم أنقى قلوبًا ، وأرق عواطف وأقوى عزائم .

ومن هنا حدثنا القرآن الكريم عن عدد من الشباب المثالى كانوا قمماً ترنو إليها الأبصار ، وتشرئب نحوها الأعناق ، فى الإيمان ، أو التقوى أو الشجاعة والصبر ، أو البذل والفداء .

حدثنا عن إبراهيم الذى حطم الأصنام وجعلها جذاذاً ، ضرباً بيمينه وتكسيراً بفأسه ، وهو فتى ، كما شهد بذلك الكفار من قومه .

حدثنا عن إسماعيل الذى قدم عنقه طائعاً مختاراً لأبيه ، لينفذ فيه أمر الله ، بلا تردد ولا تباطؤ ولا ادعاء ، ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[(٢)] .

حدثنا عن يوسف الذى قاوم الإغراء والفتنة من امرأة العزيز ومن وراءها من النسوة ، قائلا : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .
(٢) سورة الصافات : الآية ١٠٢ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٣٣ .

حدثنا عن يحيى الذى قال له : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾ (١) .

حدثنا عن اتباع موسى فقال : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنَ فِرعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾(٢) .

حدثنا عن أهل الكهف ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٣) .

كما حدثنا التاريخ عن أصحاب محمد ﷺ ، الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وكانت جمهرتهم الغالبة شباباً .

وحدثنا كذلك عن دور الشباب فى صدر الإسلام وما قاموا به من دور فى العلم والعمل والدعوة والجهاد .

فلا غرو أن ينبعث الشباب اليوم ، ليؤدوا بعض ما أداه آباؤهم من قبل .

* *

● **صحوة مسلمين ومسلمات :**

ومن خصائص هذه الصحوة : أن للمرأة فيها مكاناً ملحوظاً وللفتاة المسلمة خاصة ، دوراً مرموقاً ، لا يجحده من له عينان .

وأبرز ما يدل على هذا المعنى ويجسمه : ظاهرة (الحجاب) . وأعنى بها التزام الزى الشرعى ، وهو ما تغطى به المرأة جسمها ما عدا وجهها وكفيها (كما هو رأى جمهور الفقهاء) بعيداً عن التبرج والإثارة ، فلا تلبس ما يصف أو يشف ، ولا تخرج عن الوقار فى كلامها ، أو مشيتها أو حركتها ، حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض ، وحتى تعرف الجادة المستقيمة من العابثة اللعوب فلا تتبع ولا تؤذى ، ولا تفتن ولا تفتَن .

ولا زلت أذكر كيف مضت علينا سنوات عجاف فى كثير من البلاد العربية والإسلامية كان المرء يمشى فى عواصمها ، فلا يكاد يرى امرأة محجبة

---

(١) سورة مريم : الآيات ١٢ – ١٤ . (٢) سورة يونس : الآية ٨٣ .
(٣) سورة الكهف : الآية ١٣ .

إلا على سبيل الندرة أو الشذوذ ، حتى المرأة العجوز التى أكل الدهر عليها وشرب ، لم تكن تستحي أن تسير فى الطرقات بما يسمونه الجابونيز أو (الميني) أو (الميكرو) أو غيرها من بدع الأزياء المستوردة التي يصممها لنسائنا في الغرب اليهود وتلاميذ اليهود .

لقد كنت أقول في أوائل الستينات : إننا - نحن المسلمين هزمنا أمام الحضارة الغربية الغازية في جملة ميادين ، أبرزها ثلاثة :

١ - **ميدان (الاقتصاد)** : حيث ألغيت (الزكاة) من التشريع ، وهى الركن الثالث فى الإسلام ، وأحل (الربا) وهو من أكبر الموبقات عند الله . وأصبحت المقولة السائدة أن : لا اقتصاد بغير بنوك ، ولا بنوك بغير فائدة أى بغير ربا .

٢ - **وميدان (المرأة)** : التى سلخها التقليد الأعمى للغرب من شخصيتها ، فخرجت على أرسخ التقاليد الإسلامية ، فى مدة قياسية ، وغدت أداة من أدوات الإفساد للمجتمع ، ومعولاً من معاول الهدم فى البنيان الأخلاقى للأمة ، فاقت فى تحللها من الآداب الإسلامية ما كان يدعو إليه المقلدون للغرب ، الذين أطلقوا على فكرتهم وصف (تحرير المرأة) ! .

٣ - **وميدان الفن** : الذى دخل على الناس بيوتهم ومخادعهم ، وملأ عليهم صباحهم ومساءهم ، بما يسمع وما يقرأ ، وما يشاهد ، عن طريق الأجهزة الجبارة التى باتت تصوغ أفكار الجماهير وأذواقها وميولها واتجاهاتها العقلية والنفسية والخلقية والاجتماعية والسياسية .

والحمد لله لقد بدأنا فى الميدانين الأول والثانى ، نسترد كثيراً من مواقعنا ، بعد أن خيم اليأس علينا ، أو على كثير منا ، فى بعض الأوقات .

ففى المجال الأول نشرت دراسات وبحوث عميقة ، وقدمت أطروحات أكاديمية تثبت أصالة الاقتصاد الإسلامى وتوازنه وتفوقه وعقدت مؤتمرات وندوات عالمية وإقليمية تبحث فى جانب أو أكثر من جوانب هذا الاقتصاد . وأجمع أعضاء هذه المؤتمرات من رجال الفقه والاقتصاد والقانون على حرمة الفائدة وضررها ، وإمكان قيام مصارف ومؤسسات استثمارية تلتزم بأحكام الإسلام فى تحريم الفائدة والغرر وغيرهما . وأنشئت مراكز وأصدرت مجلات لبحوث الاقتصاد الإسلامى فى أكثر من بلد .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقامت بالفعل بنوك وشركات إسلامية بلغت الآن أكثر من خمسين ، وهى تنمو وتزيد .

أصبح الحجاب ظاهرة شائعة بعد أن كان نادراً أو شاذاً ، ومما يسر كل مؤمن هنا أن الفتاة المسلمة عادت إليه راضية مختارة ، لم يجبرها عليه أب ، ولم يدفعها إليه زوج ، ولم ترغبها فيه أم ، بل ربما عارضها الأب ، أو خاصمها الزوج ،، أو نفرتها الأم ، وهذا ما وقع بالفعل للكثيرات ، ولا يزال يقع .

لقد عادت المسلمة إلى الحجاب مقتنعة بأن هذا أمر الله وفرضه الذى لا خيار لمؤمن ولا مؤمنة في قبوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... ﴾ (١) .

عادت إلى الحجاب مؤمنة بأن الخير ،كل الخير ، والهدى كل الهدى ، والفلاح كل الفلاح فى الأولى والآخرة ، رهن بطاعة الله وتنفيذ أمره : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٢) . ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا ﴾ (٣) .

ومن خصائص هذه الصحوة ، أنها عالمية :

فهى ليست صحوة مقصورة على بلد معين ، أو إقليم محدود أو جنس خاص ، إننا نجد هذه الصحوة فى بلاد العرب والعجم ، نجدها فى آسيا وإفريقيا ، نجدها فى الشرق والغرب ، نجدها فى داخل العالم الإسلامى وخارجه .

وقد أتيح لى أن أزور كثيراً من الأقطار الإسلامية ، فوجدت هذه الظاهرة ماثلة للعيان .

وزرت كثيراً من الجاليات والأقليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا وكندا وبلاد الشرق الأقصى ، فلمست أثر الصحوة فيها ، بين المسلمين والمسلمات ، وخصوصاً من الفتية والفتيات .

رأيت الذين يحرصون على حفظ القرآن الكريم ، وحسن تلاوته ، وقراءته بخشوع تهتز له القلوب ، وعلى حفظ الأحاديث النبوية وفهمها ، ودراسة السيرة المطهرة والتاريخ الإسلامى ، والفقه فى الشريعة ، ومعرفة الحلال

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ . (٢) سورة الأحزاب : الآية ٧١ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

من الحرام .. وأكثر من ذلك الحرص على إقامة الصلوات فى جماعة ، والاهتمام بصلاة الليل ، وصيام يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

ومما ينبغي تسجيله هنا : وصول هذه الصحوة إلى المدن والقرى المحتلة من فلسطين منذ النكبة الأولى فى سنة ١٩٤٨ م ، والتى ظن كثيرون أن أهلها قد ذابوا فى الكيان الصهيونى (إسرائيل) وانقطعت صلتهم بالإسلام ، فإذا تيار الصحوة ينتقل إليهم ، فيبعثهم من همود ، ويوقظهم من رقود ، يعلم من جهل ، وينبه من غفل ، ويذكر من نسي ، ويرد من شرد عن الطريق إلى أهله وأمته . وهذا ما أقلق اليهود وأفزعهم : أن يسود الوعى الإسلامى ويمتد ويقود الإسلام الركب من جديد ، وهو ما يحسب له الصهاينة ألف حساب .

* *

● أين ما قدمته الصحوة :

ومن الناس من يتجاهل كل ما ذكرناه ، ويقول : أين ما قدمته الصحوة الإسلامية ، من إنجازات ، فى مختلف جوانب الحياة ؟ وما لنا لم نرها حلت مشكلاتنا ، وعالجت أدواءنا وهمومنا ؟ .

وهذا السؤال خطأ من عدة أوجه :

الأول : أن الصحوة إنما هى بداية حركة وانطلاق ، وباكورة انبعاث ونهوض ، فالإنسان حينما يصحو ويفيق يبدأ فى العمل ، ويشرع فى السعى إلى ما يريد .

فليس من المنطق أن يطلب من الصحوة أكثر مما يطلب من المستيقظ فى أول النهار ، أو من الشاب حينما يصعد أول درجات السلم الوظيفى .

الثانى : أن الصحوة ليست شيئاً منفصلاً عنا ، مهمتنا أن نقف متفرجين عليه ، ونطالبه بأن يحقق لنا الآمال ، ويقرب لنا البعيد ، ولا نفعل نحن شيئاً .

إنما الصحوة منا وبنا ولنا ، ولا قيام لها إلا أن نكون معها بل نكون لها .

الثالث : أن الصحوة لا تستطيع أن تنجز ما نريده منها ، وما تريده ، هى من نفسها ، إذا وضعت فى قفص الاتهام ، ووضعت – كما نرى اليوم فى

كثير من الأقطار – العراقيل فى طريقها ، وقذف أبناؤها بالحجارة والحصى من يمين وشمال ، اتهمت بما هى منه براء ، أو عوقبت بذنب غيرها ، أو ضخم الخطأ يقع من بعض الأفراد المنتسبين إليها .

لقد رأينا فى بعض الأقطار السماح لكل التيارات – حتى الوافدة الملحدة – أن تعبر عن نفسها عبر صحف وقنوات ومؤسسات سياسية ، إلا التيار الإسلامى ، فهو – وحده – المصادر حقه ، المكمم فوه ، المحظور تحركه .

الرابع : أن الصحوة حركة عقل وقلب وإرادة ، وقد بدأت هذه الحركة فى الظهور والنمو والصعود ، وإنى واثق بإذن الله أنها سيكون لها ما بعدها ، وفق السنن الكونية والاجتماعية ، وأنها جديرة أن تتعلم من التجارب ، وتستفيد من دروس الزمن وأخطاء الآخرين ، لتصلح من مسارها وتنتقل من المراهقة إلى الرشد ، وصدق الشاعر الذى قال :

إن الهـلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أنه سيصير بدراً كاملاً !

ومن الكتاب المعاصرين من ينكر أن تكون هناك « صحوة إسلامية » لأن الإسلام لم ينم ولم يغب عن الوعى ، حتى يصحو فالإسلام كان ولم يزل بخير ! .

وآخر من قرأت لهم مثل هذا التحليل ، د . محمد الرميحى – رئيس تحرير مجلة العربى .

وهؤلاء يشكرون على اعتبارهم الإسلام بخير ، وأنه كان ولم يزل قوياً قائماً .

ولكن من تجاهل التاريخ والواقع أن نجحد أن المسلمين فى العصور المملوكية والعثمانية الأخيرة ، كانوا قد جمدوا وتخلفوا ، وباتت حياتهم كالماء الآسن ، لا اجتهـاد فى الفقه ، ولا إبداع فى الأدب ، ولا ابتكار فى العلم ، ولا اختراع فى الصناعة ، حتى غدا شعارهم : ما ترك للآخر الأول شيئًا ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان ! .

كما لا يستطيع دارس منصف أن يجحد ما صنعه الاستعمار – منذ دخل ديارنا وتمكن منها – فى العقول والأنفس وشتى شؤون الحياة .

إن الغزو الثقافى والأخلاقى والاجتماعى أثر فى حياتنا تأثيراً عميقاً ، حتى مزق شخصيتنا من الداخل ، وجعلنا – إلا من رحم ربك – نعيش غرباء عن أنفسنا ، غرباء ونحن فى أوطاننا ، ومع أهلينا وذوينا . إنها غربة النفس والفكر والروح ، وليست كالغربة التى ذكرها المتنبى قديماً : غربة الوجه واليد واللسان ! .

ومن المعاصرين من ينكر أن ثمة صحوة ، لأنه لا يرى فى كلا ما جاءت به الصحوة إلا الجلابيب القصيرة ، واللحى الطويلة ، والخشونة فى الدعوة ، والجلافة فى السلوك .

وهذا لعمرى ظلم ، أن تصور الصحوة بهذه الصورة ، فهذه الصحوة قد نفع الله بها كثيراً من أبناء الجيل ، فاهتدوا بعد ضلال الفكر ، واستقاموا بعد انحراف السلوك ، واستيقظوا بعد غفلة القلب ، واهتموا بقضايا أمتهم الكبرى بعد أن كان اهتمامهم بتوافه الأمور .

عرفوا القرآن تلاوة وفهماً ، وعرفوا الحديث حفظاً ودرساً ، وعرفوا السيرة النبوية هدياً ونوراً ، وعرفوا الشريعة مرجعاً ومنهاجاً ، وتحرروا من التبعية الفكرية ، والنفسية ، للغرب والشرق ، ولم يعد اعتزازهم إلا بالإسلام ، ولا همهم إلا تحكيم شريعته ، وتوحيد أمته ، وتحرير أرضه ، ترى منهم الصائمين والقائمين والركع السجود .

أين من هؤلاء آخرون يعيشون ، غافلين ، لا يعرفون لهم هدفاً ولا رسالة ، أمواتاً غير أحياء ؟! .

وآخرون لا هدف لهم إلا هم بطونهم ، وشهوات فروجهم . أضاعوا الصلوات ، واتبعوا الشهوات ، وباعوا أنفسهم بثمن بخس ، نشوة سكر ، أو غيبة خدر ، أو فورة جنس ، أو سهرة مجون ؟! .

إن من الظلم للحقائق أن نغفل كل ما يقوم به جيل الصحوة من علم وعمل ، وبذل وعطاء ، ولا نذكر إلا جلابيب الرجال ، ونقب النساء ! .

على أن هذه – لو أنصفنا – إنما هى رمز للتحدى الحضارى ، ودليل على التميز الثقافى ، وعنوان على تماسك الشخصية فى مقابل أولئك الذين أذابوا أنفسهم فى حضارة الغرب .

ودعونى أقل بصراحة : أن لدى كثير من العصريين منا ما يشبه (الحساسية المرضية) ضد بعض الأشكال والأزياء التى يتخذها طائفة من أبناء الصحوة على اعتبار أنها آداب أو سنن ، أو حتى واجبات .

ومثل هذه الأشياء فى المجتمعات الغربية تمر دون ضجيج ولا إنكار ، فكثير من شبابهم يطلقون لحاهم ، وكثيرون يطيلون شعورهم ، وآخرون يحلقون بعض اللحية من أسفل ، ويعفونها على الجانبين ، ولا يثير هذا عليهم عجاجاً ، ولا لجاجاً . على حين نجد إعفاء اللحية ، وتقصير الثوب ، عندنا يثير من القيل والقال ، ما يجعل منه باستمرار موضوعاً دائم الاشتعال .

ومثل ذلك يقال فى أزياء النساء ، فما الذى يقلق إخواننا العصريين أن تلتزم الفتاة المسلمة بالحجاب ، أو حتى بلبس النقاب ؟! .

لماذا لا يدخلون هذا فى باب (الحرية الشخصية) كما يصنعون ذلك مع التى تلبس القصير الفاضح ، ولا يمسها أحد ببنت شفة ؟! .

* * *

عوامل الصحوة

ما سبب هذه الصحوة ؟ وما العامل المؤثر فى ظهورها ؟ .

كتب كاتبون كثيرون فى ذلك ، يمثلون شتى الاتجاهات ، وكل يغنى على ليلاه ، وكل يفسر الأحداث وفق فلسفته التى يؤمن بها وتبعاً لمدرسته التى ينتمى إليها .

فهناك أتباع (التفسير المادى) الذين أرادوا أن يردوها إلى أسباب اقتصادية برزت فى المجتمع ، وهذا هو ديدنهم فى تفسير كل وقائع التاريخ ، وتغيراته ، حتى ظهور النبوات والرسالات السماوية ، أسبابه اقتصادية ، ومن لم يؤمن بالله ولا بملائكته وكتبه ورسله لا يستبعد عليه ذلك .

وآخرون ردوها إلى أسباب نفسية ، نشأت بعد نكبة سنة ١٩٦٧ ، التى سموها (النكسة) والتى احتلت بها إسرائيل ما بقى من فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨ م وأضافت إليها الجولان ، وسيناء .

ولا غرو أن توقظ النكبات الكبرى الناس ، ما داموا على بقية من سلامة الفطرة ، وقد بين لنا القرآن موقف الإنسان ــ ولو كان مشركاً ــ إذا مسه الضر ، ونابه الكرب ، فهو يدعو ربه منيباً إليه . كما صور موقف ركاب الفلك ، إذا عصفت بهم الريح ، وأحاط بهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين . فلا يستبعد أن تهز النكبة الثانية ، بعد نكبة ١٩٤٨ م ــ نكبة ١٩٦٧ م ــ كيان الإنسان المسلم وترده إلى ساحة الله تعالى ، بعد أن استنسر فى أرضه البغاث ، وتجرأ عليه الجبان وانتصر عليه اليهود ، أحرص الناس على حياة ! .

وأغرب ما كتبه بعض اليساريين العرب فى مصر أن أحد الحكام هو الذى هيأ لهذه الصحوة أن تظهر ، ليقاوم بها التيار الشيوعى المتنامى فى نظره ! .

وإن تعجب فعجب أن يقول ذلك الذين يزعمون أنهم ينطقون بلسان الجماهير ! ولا أدرى كيف جهل هؤلاء أن صحوات الشعوب لا تصنعها إرادة

الحكام إذا كانت صحوة عميقة الجذور فى الفكر والشعور والإرادة والسلوك ، كما هو المشاهد فى الصحوة الإسلامية المعاصرة ، وليست مجرد زبد طاف على السطح .

لو كانت هذه الصحوة من صنع حاكم لاستطاع أن يلغيها كما أنشأها ، فإن الذى يقدر على البناء يقدر على الهدم بل هو أسهل .

وليت شعرى من الذى صنع الصحوة فى سائر ديار العرب غير مصر ؟ ومن الذى صنعها فى سائر ديار الإسلام ؟ ومن الذى صنعها خارج العالم الإسلامى ؟ .

قد يفكر حاكم ما في وقت ما فى استغلال الصحوة فى إضعاف عدوّ له ، لا محبة في زيد ، ولكن كراهية في عمرو ، وقد ينجح فى ذلك ، وقد يخفق ، وقد يتفق هدفه هذا مع هدف الصحوة نفسها ، وقد تعتقد أنها هى التى تستغله ، ومهما يكن فلا يعنى شىء من هذا أن الصحوة من صنع يده[1] .

ربما غاظ هؤلاء أن هذا الحاكم أتاح للتيار الإسلامى – فى وقت ما – أن يعبر عن نفسه ، كما يعبر غيره ، كما أتيح لكل التيارات من يمين ويسار أن تعبر عن نفسها بل هيىء لها فى سنوات طويلة أن تثب على أجهزة إعلام الدولة ، وتسيطر عليها وتوجهها لخدمة فكرها ، وتشويه الفكر الإسلامى والافتراء عليه ، ولا أحد يملك الرد أو الاعتراض ! .

أجل .. هذا ما ملأ قلوب هؤلاء غيظاً ، لأنهم يعلمون ويوقنون من تجارب الماضى والحاضر أنه التيار الوحيد الأصيل المتجاوب مع فطرة الأمة ووعيها وتاريخها ، وأن حرية الكلمة والحركة هى دائماً فى مصلحة التيار الإسلامى ، وأنه لا يقاوم إلا بالحديد والنار ، وقهر الشعوب على غير ما تريد ، وأنه يكمن ولكن لا ينمحى ، وقد يضعف ، ولكن لا يموت .

إن كل ما يطلبه التيار الإسلامى أن يترك له الحرية ليخاطب الشعب ، ويجنّدَ الجماهير ، ويدعو إلى حقائق الإسلام ، ويرد على أباطيل خصومه ، وهذا حق من حقوق الإنسان كفلته المواثيق الدولية ، والدساتير المحلية ، ونادت به الديمقراطية التى يتغنون بها .

---

(١) انظر أيضًا : كتابنا (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه) ص ٢٠٩ – ٢١٦ .

أم يريدونها ديمقراطية لهم وحدهم ، وهم بأفكارهم المستوردة غرباء عن الأمة دخلاء عليها ؟ فحرية الرأى والتعبير والحركة والاجتماع لكل اتجاه وكل فلسفة إلا الاتجاه الإسلامى صاحب الدار ! ورحم الله شوقى الذى قال :

أحـــــرام على بلابله الـدو ح ، حلال للطير من كل جنس ؟!

كل دار أحـــــق بالأهل إلا في خبيث من المـــذاهب رجس

والغريب أن هؤلاء الذين يدعون لأنفسهم - ويدعى لهم مروجو بضاعتهم - القدرة على الغوص والتحليل ، ينظرون إلى الصحوة كأنها ظاهرة شاذة ، أو خارقة لقوانين الكون وسنن الاجتماع البشرى .

وكأن الأصل فى الأمة المسلمة ، أن تنام فلا تصحو ، وأن تفقد الوعى ، فلا تفيق ، وإذا أفاقت وصحت ، وجب أن يكون صحوها وإفاقتها بغير الإســلام ، ولغير الإسلام ! .

ولعمرى ، إن هذا كله خطأ ، بل باطل ، فالأصل فى أمتنا أن تصحو وتنتبه بالإسلام وللإسلام ، من رجع إلى تراثنا وجد علماءنا يقولون : ما جاء على الأصل لا يُسأل عن علته ، لأن من شأن الأمة الإسلامية ألا يطول غيابها عن وعيها ، بمقتضى طبيعة الإسلام الذى تؤمن به ، والذى تستمع لقرآنه صباح مساء ، والذى لا تغيب عن ذاكرتها سيرة رسوله وسير أبطاله .. طبيعة هذا الإسلام تأبى إلا أن توقظها من سبات وتحييها من موات ، فالإسلام يدعوها أبداً إلى العلم والعمل ، ويرغبها فى الفكر والنظر ، ويحرضها على الكفاح والجهاد ، ويعدها بالنصر وعلو الكلمة ، ويؤكد لها أن الله مع المؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وأن النصر مع الحق ، وأن الباطل زاهق لا محالة ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) .

ومن شأن هذه الأمة - وفق ما جاء به القرآن ، وما أخبر به الرسول ، وما نطق به التاريخ - أن لا تجتمع على ضلالة ، وأن تظل فيها طائفة قائمة على الحق ، داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون .

يقــــول الله فـــى كتابه : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨١ .

ويقول الرسول الكريم : « لا تزال طائفة من أمتى قائمين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » . متفق عليه .

ويقول : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود .

ويقول التاريخ : إن هذه الأمة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى ، منذ فجر تاريخها ظن الناس معها بها الظنون ، وابتلى بها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً .

ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل ، وعوامل الغزو من الخارج ، وأن تحول الهزائم إلى انتصارات ، وأن تخلق من الضعف قوة ، ومن التفرق وحدة ، ومن الأشلاء المبعثرة جسم عملاق .

وقال التاريخ أيضاً : إن هذه الصحوات الكبرى لم يصنعها غير الإسلام حين يجد من يعلى كلمته ، وينادى باسمه ، ويجند قوى الأمة تحت رايته .

سجل التاريخ ذلك فى حروب الردة منذ عهد الخليفة الأول ، يوم ارتدت قبائل العرب ، وتبعوا المتنبئين الكذابين ، ولم يبق على الإسلام غير المدينة ومكة .

وسجل ذلك فى حروب الصليبيين فى عهود عماد الدين زنكى ونور الدين محمود الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبى .

وسجل ذلك مرة أخرى فى غزو التتار للعالم الإسلامى ، وبعد أن دمروا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية ، ثم لم يلبث الإسلام أن أثبت وجوده ، وانتصر على التتار مرتين :

انتصر عليهم عسكرياً فى معركة حاسمة من معارك التاريخ قادها سيف الدين قطز ، مع جنود مصر ، وهى معركة (عين جالوت) فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أى بعد سنتين فقط من سقوط بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) .

وانتصر عليهم انتصاراً آخر ، انتصاراً معنوياً ، حين دخلوا فى الإسلام مختارين ، وسجل التاريخ لأول مرة دخول الفاتحين الغالبين فى دين المغلوبين ! وهى إحدى معجزات الإسلام .

وسجل ذلك فى معارك التحرير والاستقلال فى الأوطان الإسلامية كافة فقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر ، وهو القائد الحقيقى ، لكل معارك الجهاد ، ضد الاستعمار الغازى لبلاد المسلمين ،

* *

● حركات التجديد والدعوة وأثرها فى الصحوة :

على أن هناك حقيقة يجب أن تعرف وتذكر إذا تحدثنا عن أسباب الصحوة ومكوناتها وهى : أن الصحوة المعاصرة التى نشهد آثارها ومظاهرها اليوم ، لم توجد من فراغ ولا ولدت دفعة واحدة ، ولا كانت (نباتاً شيطانياً) ظهر وحده ، بغير زارع ولا راع كما تصور بعض الناس ،

إن هذه الصحوة امتداد وتجديد لحركات إسلامية ، ومدارس فكرية وعملية ، قامت من قبل ، انقرض بعضها ولا زال بعضها قائماً بصورة ، أو بأخرى حتى اليوم ، حركات قام عليها رجال صادقون ، حاول كل منهم أن يجدد الدين ، أو يحيى الأمة ، فى بقعة معينة أو أكثر من بقعة من أرض الإسلام ، أو فى جانب معين أو أكثر من جانب من جوانب الحياة ، فى الاعتقاد أو الفكر أو السلوك ،

يذكر التاريخ منهم مجدد الجزيرة العربية ، باعث الدعوة السلفية ، خريج المدرسة الحنبلية ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦ هـ-١٧٩٢ م) ، الذى قامت على أساس دعوته الدولة السعودية ،

ويذكر منهم مؤسس الحركة السنوسية فى ليبيا ، الشيخ المعلم المجاهد : محمد بن على السنوسى (ت ١٢٧٦ هـ- ١٨٥٩ م) .

ويذكر منهم الداعية الثائر المجاهد ، الذى أيقظ الإسلام فى الشعب السودانى ، وقاتل الاستعمار الانجليزى ، وانتصر عليه ، وأقام للإسلام دولة فى جنوب وادى النيل ، الزعيم القائد محمد أحمد المهدى . (ت ١٣٠٢ هـ- ١٨٨٥ م) .

ويذكر منهم موقظ الشعوب ومنبه الأفكار ، وعدو الاستعمار ، وباذر بذور الثورة عليه فى عالم الإسلام ، داعية (الجامعة الإسلامية) السيد جمال الدين الأفغانى (ت ١٣١٤ هـ- ١٨٩٧ م) .

ويذكر منهم الأديب الرحالة المصلح ، داعية الحرية السياسية وعدو

الاستبداد السياسى ، الشيخ عبد الرحمن الكواكبى ، صاحب الكتابين الشهيرين : « طبائع الاستبداد مصارع الاستعباد » « وأم القرى » (ت١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م) .

ويذكر منهم تلميذ الأفغانى وشريكه فى تحرير (العروة الوثقى) وفى حركة الإيقاظ والتجديد ، رائد الإصلاح الفكرى والتعليمى ، وشيخ المدرسة العقلية الحديثة ، الأستاذ الإمام : محمد عبده (ت ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م) .

ويذكر منهم تلميذ الشيخ محمد عبده وصاحبه ، وناشر علمه ، الذى أخذ من شيخه الاستقلال فى الفكر ، والثورة على الجمود والتقليد ، وأضاف إليه التوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية ، فجمع بين القديم والجديد ، ووازن بين المعقول والمنقول ، وأصبح يمثل بجلاء (السلفية المجددة) التى تجسد الأصالة والمعاصرة بحق . ذلكم هو العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) و (تفسير المنار) والكتب التى كانت فى وقتها نماذج تحتذى، ومصابيح بها يهتدى (ت ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م) .

ويذكر منهم المربى المجاهد الصابر ، الذى قاوم علمانية الكماليين ، وطغيان أتاتورك وأشعل جذوة الإيمان فى قلوب الأتراك بالتربية والقدوة ، وبالرسائل الموجهة ، الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى .

ويذكر منهم الرجل القرآنى ، والمعلم الربانى ، الذى جسد بدعوته شمول الإسلام ، وتوازنه وربانيته وواقعيته ، فربط الفكر بالحركة ، مزج العلم بالعمل ، وجمع بين التربية والجهاد ، كما جمع بين نقاء العقيدة السلفية وروحانية الصوفية السنية ، ودعا إلى الإسلام عقيدة ونظاماً ، ديناً ودولة ، عبادة وقيادة ، مصحفاً وسيفاً ، وحارب الفساد والظلم فى الداخل ، والاستعمار والصهيونية فى الخارج ، وربى على الإسلام جيلاً جعل الله غايته ، والرسول أسوته ، والقرآن شرعته ، والجهاد وسيلته ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيه ، إنه مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة فى العالم : الإمام الشهيد حسن البنا (ت ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) واضع أسس العمل الإسلامى الجماعى ، الذى انتشرت رسائله وتلاميذه ، وتلاميذ تلاميذه فى العالم كله ، انتشار أضواء الصباح ، وشاء الله أن تكون المحن المتتابعة التى صبت على إخوانه وتلاميذ مدرسته ، سبباً فى هجرتهم بدعوتهم ، وتفرقهم فى أقطار الشرق والغرب ، فتنتشر بهم الدعوة والصحوة فى كل مكان .

ويذكر منهم المفكر المجدد ، صاحب النظر العميق ، والتحليل الدقيق ، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة ، والداعى إلى نظام الإسلام عن بينة ، صاحب

الكتب والرسائل التى ترجمت إلى عشرات اللغات ، الذى وقف فى وجه دعاة (التغريب) و (أعداء السنة) والمنادين (بنبوة جديدة) والمرتزقة من الخرافيين ، والقبوريين ، ومشوشى الفكر ، من المقلدين الجامدين ، مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية فى شبه القارة الهندية : العلامة أبا الأعلى المودودى (ت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) الذى اتفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنا ، وإن لم يلتقيا ، وإنما التقى أبناء المدرستين ، وتعاونوا فى مجالات شتى ، وخصوصاً فى أوربا وأمريكا والشرق الأقصى .

ويذكر منهم العالم الداعية المربى ، الذى عايش القرآن مفسراً ومطبقاً ، ودعا إلى السلفية الواعية والروحانية الصافية ، وحارب الجمود فى الفكر ، والانحراف فى العقيدة ، والعوج فى السلوك ، ووصل العلم بالتربية ، مؤسس (جمعية العلماء) فى الجزائر ومنشىء مجلة (الشهاب) التى كانت كاسمها نوراً يهدى الحائرين ، ورجماً يرهب الشياطين ، الشيخ المصلح : عبد الحميد ابن باديس (ت ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م) .

ويذكر منهم الداعية الفقيه ، الصابر المجاهد ، صاحب الروح المشرق ، والبيان المغدق ، والعقل المنفتح ، الذى قاوم أعداء السنة ، فأسكتهم ، ودعاة العلمانية فأفحمهم ، مؤسس الحركة الإسلامية فى سورية ، ومنشىء مجلة (حضارة الإسلام) وصاحب الكتب القيمة ، والرسائل النافعة : الشيخ الدكتور / مصطفى السباعى (ت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م) .

ويذكر منهم الرجل الصُلب ، الذى أُوذى فى الله ، فما وَهَنَ وما ضَعُفَ وما استكان ، وقدم عنقه فداء لفكرته ، صاحب القلم البليغ والأدب الرفيع ، والروح المحلق ، والفكر الثائر . صاحب (التصوير الفنى) ، (العدالة) و (الظلال) و (المعالم) وغيرها من الكتب التى انتشرت فى لغات العالم الإسلامى ، شرقاً وغرباً ، الأديب الكبير ، الداعية الشهيد : سيد قطب (ت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) .

هؤلاء الميامين من الدعاة والمفكرين [1] كان لكل منهم تأثيره فى جانب من الجوانب ، على عدد من الناس ، يقل أو يكثر ، وفى رقعة من الأرض ، تضيق أو تتسع ، وعلى مدى زمنى « يقصر أو يطول ، وإن كان كل واحد

---

(١) من الدعاة والمفكرين الأحياء من له سهم كبير فى إيجاد الصحوة وفى إمدادها، لا يقل عن المذكورين وقد يزيد على بعضهم ، سيسجله التاريخ فى حينه . وقد اقتصرنا على أسماء من انتقلوا إلى جوار الله تعالى .

منهم يؤخذ منه ويرد عليه ، باعتبارهم بشراً غير معصومين يجتهدون فى خدمة الإسلام ، فقد يصيبون ، وقد يخطئون . وهم على كل حال مأجورون على اجتهادهم ، حتى فيما أخطأوا فيه إن شاء الله .

وكان لأصحابهم وخلفائهم وخريجى مدارسهم الفكرية والحركية نصيب لا يجحد فى حركة البعث والإحياء الإسلامى ، التى نقطف بعض ثمراتها اليوم .

ولا ننسى هنا نوادر البطولة ، ومواقف البذل والتضحية والثبات ، التى وقفها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، من أبناء الدعوة الإسلامية ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، عرفت منهم من عرفت ، فما رأيت إلا الحق ، وما شهدت إلا الصدق ، وما علمت إلا الخير ، مثل الداعية الفقيه المتمكن : عبد القادر عودة ، والعالم الواعظ الثقة المجاهد : محمد فرغلى ، وإخوانهما من الشهداء الأبرار : إبراهيم الطيب ، ويوسف طلعت ، وعبد الفتاح إسماعيل ، ومحمد يوسف هواش ، وموقف الرجل الصامد الشامخ الأستاذ حسن الهضيبى ، المرشد الثانى لجماعة الإخوان المسلمين ، ومواقف جماعة من الشهداء الأبطال من إخوانه وأبنائه الأبرار ، وغيرهم ممن بذل حياته ودمه لله قرير العين . فكانت هذه المواقف الإيمانية الفذة ، غذاء ووقوداً للصحوة الإسلامية .

كذلك كانت حركات الجهاد الإسلامى فى العصر الحديث مدداً للصحوة لا يخفى تأثيره على دارس ، كما كان لرموز هذه الحركات الجهادية تأثيرهم ودفعهم ، مثل حركة الأمير عبد القادر فى الجزائر ، والزعيم محمد أحمد المهدى فى السودان ، والأمير عبد الكريم الخطابى فى المغرب ، والشهيد عمر المختار فى ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام والمفتى أمين الحسينى فى فلسطين .

وإلى جوار رجال الجهاد والعمل ، كان هناك رجال يعملون فى ميدان الفكر والثقافة والأدب ، يوقظون العقول ، ويحركون المشاعر ، ويصححون المفاهيم ، ويقاومون الاستعمار الثقافى .

ومن هؤلاء شاعر الإسلام فى الهند ، الفيلسوف المفكر ، الذى أيقظ بفكره العقول ، وبشعره القلوب ، الدكتور محمد إقبال .

ومنهم أمير البيان ، ومحامى الإسلام ، الأديب العالم الموسوعى المؤرخ المصلح ، صاحب المقالات الناصعة ، والتعليقات الرائعة ، والكتب النافعة ، الأمير شكيب أرسلان .

ومنهم أديب العربية والإسلام ، الذى جعل الله من قلمه للحق سيفاً يمحق به الباطل ، صاحب الروائع البيانية ، والمعارك الأدبية فى نصرة الإسلام ، ومقاومة دعاة التغريب : مصطفى صادق الرافعى .

ومنهم الكاتب العملاق ، صاحب العبقريات الإسلامية ، الذى سخر قلمه فى سنواته الأخيرة لبيان حقائق الإسلام ، وأباطيل خصومه ، ومقاومة الدعوات الهدامة من الشيوعية وغيرها ، عباس محمود العقاد .

ومنهم داعية النهوض الحضارى ، المفكر المسلم المتميز بعقلانيته وعمق تحليله ، صاحب (الظاهرة القرآنية) و (شروط النهضة) وغيرها ، المفكر الجزائرى مالك بن نبى .

ومنهم المفكر الداعية الناقد البصير ، مؤلف (نظام الإسلام) وغيره من الكتب المتميزة ، الأصيلة : الأستاذ محمد المبارك . وآخرون لا نستطيع حصرهم من رجال العلم ، ورجال الأدب ، ورجال التربية ، ورجال الدعوة : أسهم كل منهم – بقدر يقل أو يكثر – بلسانه أو بقلمه ، بقوله أو بفعله .

ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها فى مجال الصحوة ، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها ، بالإضافة إلى أم الجماعات ، وكبرى الحركات الإسلامية : حركة الإخوان المسلمين .

منها : جماعة الدعوة والتبليغ ، التى تاب على أيدى أتباعها كثير من العصاة فى بلاد العجم والعرب ، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة ، والتوبة، بعد شرور المعصية ، وشرور الغفلة .

ومنها : الحركة السلفية التى عنيت بتصحيح العقيدة ، وتصحيح العبادة وتحريرها من الشركيات والخرافات ، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنة ، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق .

ومنها : جماعة الجهاد التى ربت أتباعها على معانى القوة والصلابة ، وقيم البذل والتضحية ، والاستشهاد فى سبيل الله .

ومنها : حزب التحرير الإسلامي الذى وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية وإعادة الخلافة الإسلامية .

وتأثير هذه الجماعات ليس متساويًا . كما أن لكل منها ما لها وما عليها من ناحية فكرها ، وأهدافها ، وأساليبها ، ولكن ليس هذا مقام التقويم لها .

إنما نتحدث عن كل من أسهم في ظهور الصحوة بجهد ما . كما لا ننسى دور الجامعات الإسلامية القديمة والحديثة ، كالأزهر ، والزيتونة ، والقرويين ، وندوة العلماء بالهند ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض . وغيرها من المؤسسات العلمية الإسلامية .

* * *

الإسلام
(كما تفهمه الصحوة وتيارها الوسطى)

الصحوة ، وكيف تفهم الإسلام ؟

لا بد لنا لكي نتبين موقف الصحوة من هموم الوطن العربى ، وكيف ننظر إليها ، أو نفكر فى علاجها ، أو نكشف قبل ذلك عن مدى فهمها للإسلام ، ونوع نظرتها إليه ، وكيف تتعامل مع أصوله وفروعه ، وثوابته ومتغيراته ، وأى اتجاه تتبناه ، وأى اتجاه تحذر منه ، حتى يكون حكمنا للصحوة أو عليها عن بينة .

* *

● **تيار الوسطية الإسلامية :**

على أن أحداً لا يجهل أن الصحوة تمثل فصائل وتيارات متعددة تتفق كلها على حبها للإسلام ، واعتزازها برسالته ،، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه ، والعمل به ، والدعوة إلى تحكيم شريعته ، وتحرير أوطانه ، وتوحيد أمته ، والوقوف فى وجه الكائدين له ، ولكنها تختلف فى قضايا ومواقف كثيرة ، بعضها يمثل تفصيلات ، وبعضها يمثل اتجاهات مهمة . ولكنى هنا أتحدث باسم أهم تيارات الصحوة وأعظمها ، وهو التيار الذى أسميه (تيار الوسطية الإسلامية) وذلك لعدة أسباب :

أولاً : لأنه التيار الذى يمثل أعرض قاعدة فى الصحوة الإسلامية ، وما عداه يعتبر بمثابة قنوات صغيرة ، ربما تفرعت من هذا المجرى الكبير ، إلا أنها انفصلت عنه بعد ذلك .

وثانياً : لأنه التيار الأعرق والأقدم فى تاريخ الصحوة أو التجديد الإسلامى ، والتيارات أو الفصائل الأخرى مثل التكفير ، والهجرة ونحوها ، حديثة العهد ، لا تضرب فى التاريخ إلى غور بعيد .

وثالثاً : لأنه التيار الذى يرجى طول عمره واستمراره ، فإن الغلو دائماً قصير العمر ، ولا ينتظر له البقاء طويلاً ، وفقاً لسنة الله ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

ورابعاً : لأنه – فى رأيى على الأقل – هو التيار الصحيح ، الذى يعبر عن وسطية المنهج الإسلامى الذى سماه القرآن (الصراط المستقيم) ووسطية الأمة الإسلامية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) . ويجسد يُسر الإسلام وسماحته ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣) .« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (رواه الترمذى) .

كما يمثل وسطية أهل السنة بين الفرق الإسلامية المختلفة ، ممن يبالغون فى تضخيم دور العقل على حساب النص ، أو دور النص على حساب العقل .

* *

● خصائص تيار الوسطية :

وحتى نضع النقط على الحروف ، أذكر هنا الخصائص أو المعالم البارزة التى تميز هذا التيار ، فى فهمه للإسلام وعرضه له .

* *

● وأهم هذه المعالم أو الخصائص ، يتمثل فى أمور أربعة :

١ – الجمع بين السلفية والتجديد .

٢ – الموازنة بين الثوابت والمتغيرات .

٣ – التحذير من التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام .

٤ – الفهم الشمولى للإسلام .

ويحسن بنا أن نتحدث عن كل عنصر منها بما يلقى بعض الأشعة الكاشفة عليها .

* *

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ . (٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .
(٣) سورة الحج : الآية ٧٨ .

١ - الجمع بين السلفية والتجديد

وأول خصائص تيار الوسطية أنه يجمع بين السلفية والتجديد ، أو بين الأصالة والمعاصرة ، كما يقال اليوم .

فالسلفية تعنى العودة إلى الأصول ، إلى الجذور ، إلى المنابع ولهذا يطلق على دعاة هذا التيار (الأصوليون) .

والجديد يعنى : المعايشة للعصر ، والمواكبة للتطور ، والتحرر من آثار الجمود والتقليد .

ولا بد من إلقاء شيء من الضوء على هذين المفهومين : السلفية والتجديد .

فكثيراً ما تفهم (السلفية) خطأ ، حيث يحسب من يحسب أنها العودة إلى الماضى بإطلاق ، ولو كان ماضى عصور التخلف والانحراف والجمود .

ولكن المصطلح الإسلامى لا يجعل (السلف) مطلق الماضيين . بل السلف هم أهل القرون الأولى ، خير قرون هذه الأمة ، وأقربها إلى تمثيل الإسلام فهماً وإيماناً وسلوكاً والتزاماً . ومن عدا هؤلاء يسمون (الخلف) .

والمدارس والحركات الإصلاحية والتجديدية التى قامت فى العصور الماضية كان أساس دعوتها وفكرها (السلفية) أى الرجوع إلى ما كان عليه السلف الأول فى فهم الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً .

وكثيراً ما حذر العلماء من ابتداعات الخلف فى الاعتقاد والتعبد والعمل: وخصوصاً فى العصور الأخيرة التى تمثل انتكاسة الحضارة الإسلامية ، وتوقف الفكر الإسلامى عن الإبداع ، وانحراف السلوك الإسلامى عن خط التوازن والاعتدال ، الذى سماه القرآن (الصراط المستقيم) . ومما حفظناه ونحن فى ثانوى الأزهر قول صاحب الجوهرة :

فكل خير فى اتباع من سلف   وكل شر فى ابتداع من خلف

وليس معنى العودة إلى ما كان عليه السلف أن نكون نسخاً (كربونية)

لهم . بل المهم أن نتمثل منهجهم وروحهم فى فهمهم وسلوكهم ، وتعاملهم مع الدين والحياة .

فنعود إلى فهمهم للعقيدة فى سهولتها ووضوحها ونقائها ، بعيداً عن جدل المتكلمين ، وتعقيدات المتفلسفين ، وأباطيل القبوريين .

وإلى فهمهم للعبادة فى روحانيتها وصفائها وخلوصها ، بعيداً عن شكلية الطقوسيين ، وابتداع المبتدعين ، ما لم يأذن به الله .

وإلى فهمهم للأخلاق فى تكاملها وقوتها ، بعيداً عن شوائب التصوف الأعجمى ، والزهد الهندى ، والترهب النصرانى .

وإلى فهمهم للشريعة فى مرونتها وسعة آفاقها ، بعيداً عن جمود الحرفيين ، وتقليد المتعصبين ، وتشددات المتخوفين .

وإلى فهمهم للحياة وثبات سننها ، وقيامها على العلم والعمل ، بعيداً عن أخيلة الحالمين ، وأفكار السطحيين .

وإلى فهمهم للإنسان باعتباره خليفة الله فى الأرض ، المكرم بالعقل ، والمخاطب بالتكليف ، وصانع الحضارة ، والمسؤول عن عمارة الأرض ، مسؤوليته عن عبادة الخالق .

ومن الخطأ الذى يجب تصحيحه هنا : اعتبار الرسول الكريم المؤيد بوحى الله من جملة (السلف) واعتبار القرآن والسنة من جملة (التراث) واعتبار الإسلام كله من جملة (الماضى) !! .

وهذا خلط شائن بين المفاهيم ، أو تحريف للكلم عن مواضعه عمداً .

إن الإسلام ليس ماضياً انقضى وانتهى زمنه ، نحاول أن نستعيده . إن الإسلام هو الماضى ، وهو الحاضر ، وهو المستقبل .

والقرآن هو كلمات الله الهادية الباقية على طول الزمان ، وامتداد المكان .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هى خطاب الله تعالى للمكلفين فى كل عصر ومصر ، سواء كانوا فى القرن السابع الميلادى ، أو فى القرن العشرين أو الخمسين .

إن فقه أبى حنيفة ، وأصول الشافعى ، وكلام الأشعرى ، وأدب الجاحظ ، وشعر أبى العلاء ، وآراء ابن حزم ، وتصوف الغزالى ، وفلسفة ابن رشد ، واجتهادات ابن تيمية ، وغيرهم وغيرهم من عمالقة الفكر الإسلامى فى مختلف العصور ، كلها تراث بشرى نأخذ منه وندع ، وفق القواعد والمعايير العلمية التى وضعها الإسلام فى أيدينا .

أما كتاب الله وسنة رسوله فهما أبداً مصدر الإلهام ، ومصدر الإلزام ، لكل من آمن بالإسلام ، أمس واليوم وغداً .

وربما يستبعد كثير من الناس أن يرحب الدين بالتجديد ، فالدين عندهم يمثل القديم الذى لا يتجدد ولا يتطور .

وأؤكد هنا بكل صراحة أن نبى الإسلام نفسه هو الذى علمنا أن الدين يتجدد وأن الله يهيىء له مجددين بين حين وآخر ، وذلك فى الحديث الذى رواه أبو داود ، فى سننه ، والحاكم فى مستدركه ، وغيرهما ، أنه ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وإذا صرح الرسول الكريم بتجديد الدين ، فلا يحق لزيد أو عمرو من الناس اليوم أن يقول : إن الدين لا يقبل التجديد ، فليس هو أعرف بالدين ممن بعثه الله به ، لكن المهم هو تحديد مفهوم التجديد ومجاله وحدوده . فليس معنى التجديد إخراج طبعة جديدة من الإسلام (مزيدة ومنقحة !) . بل المقصود تجديد الفقه له ، والإيمان به ، والعمل بمقتضاه ، والدعوة إليه . فهو تجديد فكرى وإيمانى وعملى وجهادى [1] .

وقد يحسب بعض الناس أن هناك تعارضاً حتمياً بين السلفية والتجديد فالسلفية رجوع إلى الماضى ، والتجديد انطلاق إلى المستقبل .

ورأيى عكس ذلك تماماً ، أى أن هناك تلازماً بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقى ، فالسلفية الحقيقية لا تكون إلا مجددة ، والتجديد الحقيقى لا يكون إلا سلفياً . فروح السلفية هو التجديد . وقد تجلى هذا المعنى بوضوح فى المدرسة السلفية التجديدية الكبرى التى أسسها شيخ

---

(١) انظر : بحثنا عن (تجديد الدين فى ضوء السنة) فى العدد الثانى من (مجلة مركز بحوث السنة والسيرة) بجامعة قطر وكتابنا : (من أجل صحوة راشدة) .

الإسلام ابن تيمية وتلامذته ، وكان لها أثرها العميق فى العقائد والفقه والفكر والأخلاق والسلوك إلى اليوم .

ومثل هذه الروح نجدها عند العلامة ابن الوزير (ت سنة ٨٤٠ هـ) فى اليمن الذى خلف ثروة فكرية قيمة تجمع بين السلفية والتجديد ، وتحاكم اتجاهات الفرق والمذاهب إلى أصول الإسلام ونصوصه ، وترجح منهج القرآن فى بيان العقائد ، وتثبيتها على منهج اليونان .

وقد وجدنا هذا الاتجاه السلفى المجدد فى المدرسة اليمنية من بعد ، المتمثلة فى العلامة الأمير الصنعانى (ت ١١٩٧) صاحب (سبل السلام) وغيره من الكتب ، والمحقق الشوكانى (ت ١٢٥٥) صاحب الكتب الشهيرة فى الفقه والأصول والحديث والتفسير وغيرها : مثل (نيل الأوطار) و(السيل الجرار) ، (إرشاد الفحول) ونحوها .

ووجدنا هذه الروح فى مجدد الهند الشهير ، وإمام نهضة الحديث فيها ، ومحرر العقل الهندى من المذهبية الصارمة ، حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم (شاه ولى الله) الدهلوى صاحب كتاب (حجة الله البالغة) وغيره (ت ١١٧٦) .

كما تجلى هذا فى المدرسة السلفية الحديثة ، التى مثلها محمد عبده ، ورشيد رضا ، الذى اعتبر بحق زعيم المدرسة السلفية الحديثة ، والحق أنه يمثل السلفية أكثر من شيخه .

وربما يعترض معترض بالحركة (الوهابية) فهى حركة سلفية ، تستمد من تراث المدرسة (التيمية) ولكنها لم تعرف بالتجديد والاجتهاد . لهذا سماها د . محمد عمارة (السلفية النصوصية) يقصد بالنصوصية : الحرفية فى فهم النصوص ، ولعلها هى التى أثرت فى كثير ممن ينتمون إلى (السلفية) فى عصرنا من المعادين للتجديد .

ولكن الذى يتأمل بإنصاف نشأة هذه الحركة يجد أنها نشأت فى مجتمع بسيط بعيد عن معترك الحضارة تغلب عليه حياة البداوة ، ولم يكن فى حاجة إلى تجديد أو اجتهاد ، بقدر ما كان فى حاجة إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وتطهير الدين مما علق به من أباطيل . لهذا كان هم الحركة الأكبر أن

ترد الناس عن عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ، وأن تطهر عباداتهم من البدع، وأفكارهم من الخرافات .

على أن ابن عبد الوهاب كان له فضل الدعوة للرجوع إلى الكتاب والسنة من الناحية النظرية ، كما له – من الناحية العملية – فضل آخر ، يتمثل فى التحرر من المذهب الواحد ، إلى باحة المذاهب الاربعة ، وإن وقف عند هذا الحد ، لا يتجاوزه ، ولا يصنع كما صنع شيخه وإمامه ابن تيمية ، الذى كان مجتهداً مطلقاً ، كما دل على ذلك تراثه العريض .

المهم أن السلفية الحقة تلازم التجديد ، وأن عصور السلف هى عصور التجديد والانفتاح .

وكلما رجعنا إلى العهود الأولى : عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم وجدنا المرونة واليسر والتسامح ، وسعة الأفق فى فهم نصوص الدين ومصالح الدنيا ، وفى التوفيق بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية .

وفى هذا نجد فتاوى عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من علماء الصحابة رضى الله عنهم ، ومن أخذ عنهم ، وتأثر بهم .

ومن هنا اتسعت الشريعة لعلاج كل جديد فى بلاد الحضارات العريقة التى دخلها الإسلام فى العراق وفارس والشام ومصر ، وغيرها .

وقد وجدت بالاستقراء أن الصحابة هم أفقه الناس لروح الإسلام وأكثرهم تيسيراً على الأمة ، وأقدرهم على ربط الدين بالحياة ، وأشجعهم فى مراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال ، وتلاميذهم من التابعين أشبه بهم ، وأقرب إليهم .

وكلما تدرجنا – تنازلياً – من عصر إلى عصر ، بعدنا عن المرونة والتيسير والتجديد ، ودخلنا فى دائرة (الأحوط) بدل دائرة (الأيسر) حتى إذا انتهينا إلى العصور المتأخرة وجدنا الجمود والتشديد والتقليد ، والوقوف عند أقوال المتقدمين ، الذين نهوهم عن تقليدهم ، واتخاذ أقوالهم واجتهاداتهم شرعاً يتبع ، وديناً يطاع .

أما التجديد فهو لا ينافى السلفية ، فالتجديد الحقيقى لأمر ما يعنى العودة به إلى ما كان عليه يوم إنشائه وظهوره لأول مرة .

تجديد بناء أثرى لا يعنى إزالته وإقامة مبنى ضخم على أحدث طراز مقامه ، فهذا ليس من التجديد فى شيء .

إنما تجديده أن نبقى عليه كما كان ونحاول أن نعيد إليه الجدة والحياة ، ونرمم ما أصابه من بلى أو تهدم لبعض جوانبه ، دون أن نغير من جوهره أو من معالمه أو من خصائصه شيئاً . وإلا اعتبر عملنا تزييفاً لا تجديداً .

وكذلك (تجديد الدين) أن نحافظ على جوهره ومعالمه وخصائصه ، ومقوماته ، ونعود به إلى ما كان عليه ، يوم ظهوره وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين المهديين .

التجديد الحق يعنى العودة إلى (الإسلام الأول) قبل أن تشوبه بدع المبتدعين ، وتضييقات المتشددين ، وتحريفات المغالين ، وانتحالات المبطلين ، وتأويلات الجاهلين ، وعدوى التشويه التى أصابت الملل والنحل من قبل .

و (الإسلام الأول) هو إسلام النقاء والبساطة فى العقيدة ، وإسلام الإخلاص واليسر فى العبادة ، وإسلام الطهارة والاستقامة فى الأخلاق ، وإسلام الاجتهاد والتجديد فى الفكر ، وإسلام العمل والإنتاج للحياة ، وإسلام التوازن بين الدنيا والآخرة ، والاعتدال بين العقل والقلب .

ومن نعم الله علينا — نحن المسلمين — أن عندنا من المعايير الثابتة ما نستطيع أن نميز به بين الأصيل والدخيل ، وبين الحقيقى والزائف ، وقد أعطانا النبى هذا المعيار حين قال :

« من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » متفق عليه ، و « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم .

* وقد أخطأ بعض الكاتبين خطأ شائناً وفاضحاً حين توهم أن رفض الابتداع رفض للابتكار والتجديد . وهو جهل بحقيقة الابتداع المحظور . إنه الابتداع فى أمور الدين المحض ، فالأصل فى شؤون الدين الاتباع ، وفى شؤون الدنيا الابتكار والابتداع . فليس من حق البشر أن يزيدوا فى الدين بأهوائهم ، ويشرعوا منه ما لم يأذن به الله ، فَيضلوا ويُضلوا .

ويوم كان المسلمون مسلمين حقاً التزموا واتبعوا فى أمور الدين ، وابتدعوا وابتكروا فى أمور الدنيا ، وكانوا ائمة الحضارة فى العالم .

ويوم انحرفوا عن حقيقة الإسلام ابتدعوا فى أمر الدين ، وجمدوا فى أمر الدنيا ! على عكس ما أمرهم به الإسلام ، وما كان عليه الإسلام .

إن تيار الوسطية الإسلامية - وهو المعبر الحقيقي عن الصحوة الإسلامية- لا يجد أى تناقض بين الأصالة والمعاصرة ، أو بين السلفية والتجديد ، أو بين النظرة التراثية والنظرة المستقبلية ، إذا حددت المفاهيم بعيداً عن الخلط والتحريف .

وإن كان الذى يؤسف له أن كثيراً من دعاة المعاصرة والتجديد والنظرة إلى المستقبل ، يرفضون تراثنا ، وينكرون ماضينا ، ويكادون لا يجدون فيه إلا كل سيء وكل ردىء .

بعض هؤلاء مولعون - كما يقول الأستاذ فهمى هويدى - بالبحث فى القمامة ، فهم يبحثون فى أحط عصور التخلف الإسلامية ، عن أحط وقائع الانحراف فيها من بين آلاف الوقائع الأخرى ، ثم يقولون : هذا هو (العصر الذهبى) الذى يريدوننا أن نعود إليه !! .

أى والله ، هذا ما كتبه أحدهم بكل جراءة .

ولا أدرى من - من دعاة تحكيم الشريعة يعتبر العصر المملوكى أو العثمانى هو العصر الذهبى لتطبيق شريعة الإسلام ؟ .

ومن من دعاة الشريعة يقر هذه الانحرافات ، ويعتبرها تراثاً ملهماً يعتز به وينادى بالرجعة إليه ؟ .

على أن الكاتب لم يكن منصفاً للعصر الذى كتب عنه ، فكم فيه من أمثلة رائعة لتحرى العدل ، والوقوف بجانب الحق ، وإنشاء معاهد العلم ، ومؤسسات البر والخير .

وهو العصر الذى ظهر فيه ابن تيمية وابن القيم وابن خلدون والشاطبىّ وغيرهم ، وهو عصر الموسوعات اللغوية والأدبية والدينية ، التى لا يستغنى عنها باحث ولا ينكر قيمتها دارس اليوم .

* *

● النظرة المستقبلية :

على أن من الإنصاف أن نقول : إنه إذا كان الدعاة إلى العلمانية أو إلى « التقدمية » يكادون يلغون النظرة إلى الماضى ، فإن من الدعاة الإسلاميين فئة يكادون يلغون النظرة إلى المستقبل ، ويعيشون متقوقعين على الماضى ، واجترار ما فيه ، والدوران فى ساقيته ، دون اهتمام كاف بمشكلات اليوم ،

وتطلعات الغد ، شعارهم : ما ترك الأول للآخر شيئًا ! وليس فى الإمكان أبـدع مما كان ! .

والواجب يفرض علينا أن نكون عدولاً بين أمسنا ويومنا وغدنا . فتقتبس من الأمس ، ونعمل لليوم ، ونستعد للغد ، وهو ما يؤمن به تيار الوسطية الإسلامية .

وقد قص علينا القرآن الكريم من أنباء الرسل والصالحين ما فيه عبرة لأولى الألباب ، فى مواجهة احتمالات المستقبل ، وتقلبات الأيام .

* *

● تخطيط يوسف الصديق لمواجهة المجاعة :

قص علينا القرآن قصة نبى الله يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف أنقذ الله على يديه مصر وما حولها من أزمة غذائية طاحنة ، ألهم الله يوسف فخطط لها أحسن التخطيط لمدة خمسة عشر عاماً ، أقام فيها اقتصاد مصر – وكانت الزراعة أساسه ومحوره – على زيادة الإنتاج ، وتقليل الاستهلاك ، وتنظيم الادخار ، وإعادة الاستثمار ، حتى نجت مصر من المجاعة ، وخرجت من الأزمة معافاة ، بل كان لها فضل على ما حولها من البلدان ، التى لجأ إليها أهلها يلتمسون عندها الميرة والمؤنة ، كما يبدو ذلك فى قصة إخوة يوسف الذين ترددوا على مصر مرة بعد مرة ، وقالوا له فى المرة الأخيرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (١) .

كان هذا التخطيط مما علمه الله ليوسف عليه السلام ومما أكرم الله به أهل مصر . وكان يوسف هو الذى رسم معالم التخطيط ، وهو الذى قام بالتنفيذ ، وهو لدى الدولة مكين أمين ، وعلى خزائنها وأمورها حفيظ عليم .

* *

● سد ذى القرنين :

وقصة أخرى قصها الله علينا هى قصة ذى القرنين الذى بنى سده العظيم ، ليقف حاجزاً منيعاً ضد هجمات قبائل يأجوج ومأجوج لأولئك الأقوام الذين كانوا لا يستطيعون لهم دفعاً إذا هاجموهم مفسدين فى الأرض ، مهلكين للحرث والنسل .

---

(١) يوسف : الآية ٨٨ .

﴿ قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنّى فِيهِ رَبّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبّى حَقًّا ﴾ (١) .

فكان مشروع ذى القرنين هذا من المشروعات الأمنية المستقبلية التى أقامها ذلك الحاكم الصالح لمواجهة احتمالات الغد ، وصد هجمات أولئك المفسدين الذى أرعبوا من حولهم بغاراتهم المدمرة . وإنما استطاع ذلك – بعد إيمانه بالله – بفضل تعاون الشعب معه بالحب لا بالقهر والعمل بالمواد والإمكانات المتاحة حتى قام السد الكبير .

* *

● الرسول يخطط للمستقبل :

والرسول ﷺ حين كان يعرض دعوته على قبائل العرب فى مواسم الحجيج بمكة ، يطلب منهم الإيمان به ، والنصرة له ، كان يفكر فى مستقبل دعوته ، والبحث عن أرض خصبة يبذر فيها بذوره ، وينقل إليها نشاطه ، ويقيم فيها حكم الله .

ولما شرح الله صدر الأوس والخزرج من أهل يثرب لقبول الدعوة والإيمان بها والمبايعة على نصرته عليه الصلاة والسلام بيعة العقبة المعروفة ، وبعث إليهم « مصعب بن عمير » ، وأمر أصحابه بمكة بعد ذلك بالهجرة إلى إخوانهم هناك ، كان ذلك كله تخطيطاً لنقل مركز الدعوة إلى المهجر الجديد ، حيث تقام دولة الإسلام ، ويرتفع علم الإسلام .

وكذلك حين قال – ﷺ – بعد الهجرة : أحصلوا لى عدد من يلفظ بالإسلام ، فأحصوا له ، فكانوا ألفا وخمسمائة ... كما روى ذلك البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، كان يريد أن يعرف مقدار ما لديه من قوة ، حتى يبنى خطته على أساس سليم من الإحصاء والمعلومات الدقيقة .

---

(١) الكهف : الآيات ٩٤ – ٩٨ .

وحين صالح قريشاً فى « الحديبية » وهادنهم لمدة عشر سنوات ، كان يريد أن يتفرغ لنشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة إلى الملوك والأمراء فى العالم من حوله . وهكذا فعل ﷺ .

* *

● الخلفاء الراشدون يخططون للمستقبل :

وهكذا نجد من بعده - ﷺ - الصحابة والخلفاء الراشدين يحسبون حساب المستقبل ، ويقابلون احتمالاته وتوقعاته بما ينبغى من إعداد وحذر ، وكيف لا وقد قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [1] .

وهذا ما دعاهم فى عهد أبى بكر إلى كتابه القرآن الكريم فى مصحف بعد أن كان متفرقاً فى صحف ومواد متعددة ، حينما استحر القتل بالقراء فى معركة اليمامة وغيرها من معارك حروب الردة فخشوا أن يتفاقم ذلك فى المستقبل فكانت كتابه المصحف .

ومن ذلك موقف عمر من قسمة أرض العراق بعد فتحها ومطالبة بعض الصحابة الفاتحين أن تقسم عليهم ، باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها ... ورفض ذلك عمر ومعه كبار الصحابة من أمثال على رمعاذ رضى الله عنهم .

وكان عمر ومن معه ينظرون إلى المستقبل ، مستقبل الأجيال الإسلامية القادمة إذا استحوذ الجيل الحاضر على مصادر الثروة ، فماذا يبقى لهم بعدها ؟! .

ولهذا قال عمر للصحابة الذين أرادوا قسمة أرض سواد العراق عليهم باعتباره غنيمة لهم أربعة أخماسها ، كالمنقولات : أتريدون أن يأتى آخر الناس ولبس لهم شىء ؟! .

* *

---

(١) النساء : الآية ٧١ .

• ضرورة النظرة المستقبلية فى عصرنا :

وإذا كان الاستعداد للغد ، والتخطيط للمستقبل ، واجباً فى كل حين ، فهو أوجب ما يكون فى عصرنا ، الذى يشهد من التغيرات الكبيرة والعميقة والسريعة ، ما لم تعرفه البشرية ولا عشر معشاره فى تاريخها الطويل .

فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى « رؤية مستقبلية » بجوار « الرؤية التراثية » التى جعلت فريقاً منا سجناء الماضى .

والمستقبل فى جانب منه غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولا ينبغى لنا أن نقحم أنفسنا فيه ، وندعى ما ليس لنا به علم ولا لنا إليه سبيل .

وفى جانب آخر ، شىء يدخل فى مجموعه تحت الرصد والحساب ، أشبه بعلم الأرصاد الجوية ، والتنبؤ بما يتوقع أن تكون عليه حالة الجو فى أمد معين بناء على قواعد مدروسة ، وظواهر معلومة .

ومثل هذا يقال بالنسبة للتنبؤ بما يمكن أن تتطور إليه صناعة الحاسبات الإلكترونية (الكومبيوتر) وصناعة « الإنسان الآلى » وطموح العلماء إلى اختراع « آلة متفوقة الذكاء » تفوق ذكاء الإنسان أضعاف المرات . وماذا يتوقع من نتائج هائلة للثورة الإلكترونية ، وثورة المعلومات ؟! .

كما يقال ذلك بالنسبة لما برز فى السنين الأخيرة من بحوث قائمة على قدم وساق فى مجال « الهندسة البيولوجية » أعنى : هندسة « المكونات الوراثية » وما توصل إليه الباحثون من إمكان تغيير الخصائص والمكونات الوراثية للبكتيريا . وما يمكن أن يتمخض عنه ذلك من نتائج مذهلة تعتبر ثورة جديدة فى ميادين الطب وصناعة الأدوية والزراعة وتكوين سلالات جديدة من الأحياء والنبات . وأعجب من ذلك أن تدخل عالم الإنسان ! .

كل هذه التوقعات المستقبلية لا ينبغى للإنسان المسلم أن يغض الطرف عنها بدعوى أنها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى .

فهذا من الغيب النسبى الذى وهب الله الإنسان القدرة على اكتشافه فى دائرة السنن والأسباب التى أقام الله عليها نظام هذا الكون ، وهو داخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، وهى أول ما نزل من القرآن .

وأعتقد أن ديننا - والواقعية من خصائصه العامة - يوجب علينا أن نحسب حساب هذه التغيرات الخطيرة ، وندرس احتمالاتها وتأثيراتها علينا ، ومواقفنا منها وما ينبغى أن نعد لها من المال والرجال ، وما ينبغى أن تهيىء له الجامعات ومراكز البحوث ، ونظام التعليم كله ، من تطوير فى الأفكار والنظم والأساليب ، حتى تخرج الإنسان المؤمن ، القادر على أن يعيش عصره ، من غير أن يفقد نفسه ، وينسى أمسه . وقد جاء فى الأثر : « رحم الله امرءاً عرف زمانه ، واستقامت طريقته » وفى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه : « ينبغى للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه .. » .

* * *

(١) سورة العلق : الآية ٥ .

٢ – الموازنة بين الثوابت والمتغيرات

ومن خصائص تيار الوسطية الإسلامية : الموازنة العادلة بين الثوابت والمتغيرات فى الإسلام ، وتحديد ذلك بوضوح ، حتى لا تختلط الأوراق ، وتذوب الحواجز ، وحتى لا نجور على أحد الطرفين لحساب الطرف الآخر ، وحتى لا نجمد ما من شـأنه الحركة والمرونة ، ولا نغير ما من شأنه الثبات والدوام .

ومن ثم كان لزاماً علينا أن نحدد ما الثوابت ، وما المتغيرات فى رسالة الإسلام ؟ .

* *

● الثوابت الخالدة : فى العقائد :

١ – أما الثوابت فتتمثل أولاً : فى (العقائد) التى تمثل فكرة الإسلام الكلية عن الألوهية والعبودية ، وبعبارة أخرى : عن الله وعن الإنسان وعن الكون بشقيه : المنظور وغير المنظور . وإذا استعملنا التعبير القرآنى والنبوى قلنا : عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وموقف الإسلام هنا موقف المخبر عن حقيقة هذه الأشياء الموجب للإيمان بها كما هى ، بلا تهوين ولا تهويل .

وهذه الأشياء ليست إلا حقائق ثابتة ، غير قابلة للتطور أو التغيير . فالله – جل جلاله – هو الله منذ الأزل : أحد صمد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

والملائكة جزء من « عالم الغيب » وهم من خلق الله وجنوده التى لا يعلمها الا هو . وهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٣) .

فهم يمثلون (قوى الخير) من عالـم الغيب ، كما أن الشياطين تمثـل (قوى الشر) .

---

(١) سورة الإخلاص : الآيتان ٣ ، ٤ . (٢) سورة الأنبياء : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٦ .

وكتب الله هى النصوص الإلهية المخبرة الآمرة الناهية ، المرشدة إلى ما يطلبه الله من عباده من الإيمان والعمل ، وآخرها والمهيمن عليها هو القرآن الكريم .

ورسل الله هم سفراؤه تعالى إلى خلقه ، بعثهم مبشرين ومنذرين ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » أرسلهم بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وختمهم بمحمد ﷺ ، فليس بعده نبوة ولا رسالة .

واليوم الآخر هو اليوم الموعود ، الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، ويقفون بين يديه للحساب والجزاء . فتوفى كل نفس ما كسبت ، وتجزى بما عملت ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

وكل هذه أخبار عن حقائق ثابتة ، لا تتطور ولا تتغير ، سواء كان الناس فى العصر الحجرى أم فى العصر النووى ، وسواء كانوا يركبون الجمال ، أو يركبون سفن الفضاء .

قد يحدث التغير عن طريق الفهم والتفسير ، وإدخال التأويلات على النصوص . وهذا باب خطر ، وخصوصاً فى مجال العقائد ، وقد فتحه من قبلنا على مصراعيه ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كلام الله ، فالأحوط إغلاق هذا الباب الذى تهب منه رياح الفتنة والتزييف ، وإبقاء النصوص على دلالتها الواضحة غير المتكلفة ، وإن تفهم كما كان يفهمها الذين تلقوها عن الرسول — ﷺ — ومن تبعهم بإحسان .

وبذلك نسلم من مغبة التأويل الذى لا نعلم : هل يوافق مراد الله أم لا ؟ والذى قد ينتهى بقوم — كما حدث بالفعل — إلى تأويلات باطنية ، وتحريفات شركية وكفرية ، هى أبعد ما تكون عن طبيعة الإسلام . كما نسلم من التفرق والاختلاف الذى أهلك أهل الكتاب من قبلنا ، نتيجة تعدد التأويلات وتعدد الأهواء وهو ما وقعت فيه الفرق عندنا ، اتباعا لسنن من قبلنا ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع .

* *

● فى العبادات :

٢ — وتتمثل الثوابت كذلك فى (العبـادات) التى فرضها الله على عباده ، قياماً بواجب شكره ، وحق ربوبيته لهم ، مثل الشعائر الركنية الأربع ، التى تمثل أركان الإسلام ومبانيه العظام : الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه ، وتزيد من رصيده عنده ، وما يلحق بها من عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن .

فهذه العبادات ثابتة باقية ، لا يدخل عليها تطوير ولا تغيير فى جوهرها وأصولها . فالصلوات خمس فى اليوم والليلة ، وكل صلاة منها عدد معروف من الركعات ، وكل ركعة منها أقوال وأفعال معينة : قيام وقراءة وركوع وسجود ، وتكبير وتسبيح وتشهد وتسليم ، وستظل هذه هى الصلاة . عاش الناس فى القرن الأول أو الثلاثين ، كانوا يسكنون فى الأكواخ أو فى ناطحات السحاب ، وكذلك الزكاة والصيام والحج .

ولكن قد تجدّ مسائل فى أداء هذه الفرائض ، قد يحدثها التطور ، فتحتاج إلى اجتهاد جديد ، فى ضـوء النصوص الثابتة والقواعد الشرعية المقررة ، كالصلاة بالنسبة لرواد الفضاء ، وأين تكون قبلة من يصلى فوق القمر ؟ والصلاة والصيام فى المناطق القطبية والقريبة منها وصلاة من لا يجد وقت العشاء ، وإحرام ركاب الطائرات فى الحج أو العمرة ... والزكاة فى الأموال النامية الجديدة كالعمارات والمصانع والأسهم وغيرها . وتناول الحقن المغذية أثناء الصيام ، وتسجيل القرآن فى أسطوانة أو شريط : هل له حكم المصحف أم لا ؟ .

وقد يدخل التطور فى تطبيق هذه العبادات ، كاستخدام البوصلة فى تحديد القبلة ، أو مكبرات الصوت فى الأذان ، أو المراصد فى رؤية الهـلال ، أو الحاسبات الآلية فى حساب الزكاة ، أو الطائرات فى نقل الحجيج ، ولكن مثل هذه التطورات لا علاقة لها بالعبادات ذاتها .

المهم أن جوهر العبادات لا يتغير ، ولا يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال ، فهى من الثوابت الخالدة فى رسالة الإسلام ولا جدال .

* *

• فى القيم الأخلاقية :

٣ – ومن الثوابت كذلك : (القيم الأخلاقية العليا) ، وأمهات الأخلاق العملية التى تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له ، والرجاء فى رحمته ، والخشية من عقابه .. وعلاقته بنفسه مثل : النظافة والعفة والحياء والصبر والشجاعة والعزة ومحاسبة النفس .. وتحدد علاقته بأسرته مثل : الرعاية للحقوق الزوجية ، وحقوق البنوة ، وبر الوالدين وصلة الرحم ، وتحدد علاقته بالمجتمع مثل : قول الصدق ، وإنجاز الوعد ، والوفاء بالعهد ، ورعاية الأمانة ، ورحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، والعدل مع الصديق والعدو ، والبر بالناس وفعل الخير للجميع، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التى بعث النبى – ﷺ . – ليتممها .

وفى الجانب السلبى : أمهات الرذائل التى حذر الإسلام منها أشد التحذير ، مثل : القتل والسرقة والزنى والشذوذ الجنسى وشرب الخمر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والحسد والبغضاء والكبر والرياء وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، وشهادة الزور ، والكذب ، والغيبة والنميمة ، والخيانة ، وسوء الظن ، والغدر والقسوة والظلم . فكل هذه حرام ، بل من أكبر المحرمــــات عند الله .

وهذه كلها – سواء في الجانب الإيجابى أم السلبى – ثابتة راسية كالجبال. فالعفة الجنسية مثلاً فضيلة واجبة . والزنى رذيلة محرمة . عاش الإنسان فى بدو أو حضر . وفى مجتمع زراعى ، أو صناعى ، والحياء فضيلة لازمة ، وخصوصاً للأنثى ، أمية كانت أو متعلمة . فى القرن الأول ، أو فى القرن العشرين أو الأربعين . . . وهكذا ، فمضى الزمن ، وتطور الأوضاع ، لا يحيل الفضائل إلى رذائل ، ولا يقلب الرذائل إلى فضائل .

كل ما فى الأمر أن العرف قد يكون له دخل فى بعض الأحيان ، فى تحديد بعض التفصيلات ، كأن يعتبر لوناً معيناً من الحديث أو المشى خارجاً عن الحياء أم لا ، وطريقة معينة فى اللبس خارجة عن الحشمة الشرعية أم لا . كما ينظر فى زى معين : هل هو تشبه بالرجال أو لا ؟ وهل فيه تشبه بالكفار أم لا ؟ ونحو ذلك مما يحتمل الاجتهاد ولا يمس جوهر القيم والأخلاق .

*   *

● فى الأحكام القطعية :

٤ – ومن الثوابت أيضاً : (الأحكام القطعية) فى شؤون الفرد والأسرة والمجتمع والحكم والعلاقات الدولية ، التى ثبتت بالنصوص المحكمة وأجمعت عليها الأمة ، واستقر عليها الفقه ، مثل : إباحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، بما يتبعها من قيود وشروط ، وإيجاب النفقة على الزوج ، وإعطائه درجة القوامة على الأسرة ، وتوريث الأولاد : للذكر مثل حظ الأنثيين. ومثل : شرعية الملكية الفردية ، وحل البيع وحرمة الربا ، وإيجاب الرضا فى العقود ، والوفاء بها ، والترخيص فى بيع المسلم ، وجواز الرهن ، والوكالة والحوالة ونحوهما من العقود : ووجوب إقامة الحدود – بشروطها – على المرتكبين لجرائمها ، والتعزير فى كل معصية لا حد فيها ولا كفارة . . . الخ .

فهذا النوع من الأحكام مع الثوابت الأخرى هو الذى يمثل (الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية) للأمة ، على اختلاف البيئات والأقطار ، وتغير الأعراف والأعصار .

* *

● المتغيرات المتجددة :

وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات ، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهـــاد وتعدد الأفهام . والاجتهاد علاقة ثلاثية بين المجتهد والواقعة والدليل ، ومهما يحاول المجتهد أن يتحرر من ذاتيته ، وينظر إلى الدليل بتجرد وموضوعية ، فالواقع أن المجتهد ابن زمانه وبيئته ، ولا بد أن يتركا « بصماتهما » على تفكيره ، شاء أم أبى ، كما أن الواقعة نفسها حدث متأثر بزمانه ومكانه ، من حيث وقعها على الأنفس وتأثيرها فى الناس .

ولا عجب أن تتغير هذه الأحكام الثابتة بالاجتهاد ، بتغير الزمان والمكان والعرف والحال ، وهى الموجبات التى تؤثر فى اجتهاد المجتهد وفتوى المفتى ، وقضاء القاضى .

وهنا كتب الإمام ابن القيم فصله الممتع فى كتابه الشهير « إعلام الموقعين » عن تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد والنيات ، ومما نقله فى ذلك ما ذكره عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه مر على قوم من التتار أيام سطوتهم وطغيانهم ، وكانوا يشربون الخمر سادرين فى لهوهم ومنكرهم ،

فأنكر عليهم بعض أصحابه ، فقال لهم ابن تيمية : دعهم ، فإن الله إنما حرم الخمر ، لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء !.

وكتب الإمام شهاب الدين القرافي المالكي فصله القيم في كتابه « الأحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام » عن تغير الفتوى بتغير العوائد والأعراف فيما كان من الأحكام مبنياً عليها .

وكتب بعدهما علامة الحنفية ابن عابدين – الذى أصبحت حاشيته الشهيرة ورسائله عمدة المتأخرين في المذهب – رسالته المسماه « نشر العرف فيما بنى من الأحكام على العرف » .

وليس هذا التغير مقصوراً على الأحكام المبنية على العرف فقط ، أو الأحكام الثابتة بالاجتهاد فيما لا نص فيه ، عن طريق القياس والاستحسان ، والاستصلاح ، وغيرها فحسب .

بل يدخل فى ذلك كثير من الأحكام الثابتة بالنصوص الظنية أيضاً .. وبخاصة هذا النوع من الأحكام ، الذى بنى على رعاية مصلحة زمنية أو عرف قائم ، فينبغى إذا تغيرت المصلحة أو تغير العرف ، أن يتغير الحكم ، فإنه يدور مع علته وجوداً وعدماً .

مثال ذلك : قوله ﷺ : « الميزان ميزان أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » .

فالحديث يقصد إلى تقرير مبدأ هام فى التعامل بين الناس . وهو الرجوع فى المعايير إلى ما انضبط واشتهر عند أهله ، وأصبح من الدقة والإتقان عندهم بحيث يحتكم إليهم ، ويعول عليهم . وقد كان أهل مكة أهل تجارة وتعامل بالموزونات : الدراهم والمثاقيل والأواقى ونحوها ، فضبطوها وأتقنوها .. أما أهل المدينة فكانوا أهل زرع وثمر ، فكان جل تعاملهم بالمكيلات ، من المد والصاع ، ونحوهما ، فضبطوها وأتقنوها ، فجاء هذا الحديث النبوى الشريف يقرر الرجوع فى كل معيار إلى البلد الذى عرف به ، واختص بإحكامه وتدقيقه ، فاعتبر المرجع فى الميزان أهل مكة والمرجع فى المكيال أهل المدينة .

ولكن إذا جد فى عصر ما – كما فى عصرنا هذا – موازين أو مكاييل أخرى أدق وأيسر فى الحساب وأسهل فى التعامل ، مثل الجرام ،

والكيلوجرام ، ونحوها من المعايير العشرية ، فهل يقف الحديث النبوى المذكور عقبة دون هذا التطور ؟ .

كلا ، فإن هذا النص إنما ورد ، بناء على وضع قائم قد تغير ، وهو يسعى إلى هدف معين فى ضبط معاملات الناس ، وهو ما يتحقق على وجه أفضل بالانتقال إلى هذه المعايير الجديدة . فإذا اعتبرنا هذه المعايير ، فقد عملنا بروح الحديث وحققنا فى الواقع هدفه الذى ورد لأجله ، وإن لم نعمل بلفظه .

ولذلك قبل المسلمون فى أنحاء العالم التعامل بهذا النوع من المعايير الجديدة ، دون نكير من أحد ، فكان إجماعا على جوازه .

ومن ذلك النص على أن لزكاة الأثمان أو النقود نصابين أحدهما للذهب ، والثانى للفضة ، وبينهما تفاوت شاسع ، بحيث يمكن ان يكون الشخص غنياً تجب عليه الزكاة إذا قدر ما معه من النقود بالفضة ، فإذا قدرته بالذهب تغير الوضع ، وربما أصبح فقيراً يستحق الزكاة ! .

فهل قصد الرسول ﷺ ذلك ؟ أم تصادف أن كان هناك نقدان يتعامل الناس بهما ، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة ، ويصرف أحدهما بقيمة معينة من الآخر ، والآن قد تغير الحال كله ، ولم يعد ثمة نقود ذهبية ، ولا فضية تذكر ، فلا بد من النظر فى أصل القضية واعتبار أحد النقدين هو الأساس فى تقدير النصاب .

وقد نظرنا فى ذلك وبحثنا فى « فقه الزكاة » فرأينا أنه ليس لزكاة النقود اليوم إلا نصاب واحد ، كما رأينا مع بعض علماء العصر : أن الأوفق هو اعتبار النصاب بالذهب .. أى العشرين ديناراً التى وردت بها الآثار ، ويساوى وزنها اليوم على أرجح الطرق فى التقدير ٨٥ جراماً . فمن كان عنده نقود بلغت قيمتها قيمة هذا القدر من الذهب - ولو غالباً لا خالصاً - فقد ملك النصاب .

وهناك بعد ذلك شؤون الحياة المتغيرة من زراعة وصناعة ، وطب وهندسة ، وما إلى ذلك من العلوم التجريبية وتطبيقاتها فى الحياة اليومية ، فهذه ونحوها متروكة لعقول البشر وتجاربهم وممارساتهم - ليس عليهم إلا أن يحكموا فيها منطق العقل والعلم والتجربة ، وهى التى ورد فى مثلها الحديث الصحيح : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والإسلام بهذا التوازن يجمع بين الثبات والتطور ، أو الثبات والمرونة فى تناسق بديع .

إنه الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة فى الوسائل والأساليب . الثبات على الأصول والكليات . والمرونة فى الفروع والجزئيات . الثبات على القيم الدينية والأخلاقية . والمرونة فى الشؤون الدنيوية والعلمية .

والإسلام بهذا ، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة ، ومع طبيعة الكون الكبير عامة . فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإنسان ، وفطرة الوجود .

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها . ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقى الإنسان ، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور .

وأما طبيعة الكون ، فهو ثابت في جوهره وسننه ، متغير فى أجزائه وصوره .

فلا عجب أن تأتى شريعة الإسلام ، ملائمة لفطرة الكون ، وفطرة الإنسان ، جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة والتطور .

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم ، أن يعيش ويستمر ويرتقى ، ثابتاً على أصوله وقيمه وغاياته ، متطورا فى معارفه وأساليبه وأدواته .

فبالثبات ، يستعصى هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء ، أو الذوبان فى المجتمعات الأخرى ، أو التفكك إلى عدة مجتمعات ، تتناقض فى الحقيقة ، وإن ظلت داخل مجتمع واحد فى الصورة .

وبالمرونة ، يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته ، حسب تغير الزمن ، وتغير أوضاع الحياة ، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية .

الخطر كل الخطر على الحياة الإسلامية أن نثبت ما من شأنه المرونة والتطور ، أو نطور ما من شأنه الثبات والخلود ، فتضطرب الحياة وتختل الموازين .

* * *

٣ - التحذير من اتجاهات
التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام

ومما يميز تيار الوسطية الإسلامية : وقوفه عند خط الاعتدال بين المفرطين والمفرطين ، والتنبه - والتنبيه أيضاً - إلى وجوب الحذر من الاتجاهات المنحرفة - عن جهل أو عمد - فى تفسير الإسلام ، والتى تنتهى بتحريف الإسلام عن حقيقته ، كما أنزله الله على رسوله ، وأشد هذه الاتجاهات خطراً : ثلاثة ، لا يجوز لنا أن نغفل الحديث عنها هنا ، ولو بإيجاز واختصار :

* *

١ - اتجاه تجميد الإسلام :

من هذه الاتجاهات ما يعمل على تجميد الإسلام ، وصبه فى قوالب حجرية ، لا تقبل المرونة ولا تسمح بالتغير ، ولا تتسع لتفتح أو حوار .

يمثل هذا الاتجاه صنفان متناقضان :

١ - صنف يتمسك بأقوال الأقدمين من أئمة المذاهب وأتباعهم لا يحيد عنها ، ولا يرضى بها بديلاً ، معتقداً أن السلف لم يتركوا شيئاً للخلف ، رافضاً كل اجتهاد جديد أيا كان صاحبه ، وكانت الحاجة إليه . فلا يقبل هؤلاء اجتهاداً انتقائياً ، ولا إنشائياً ، لا فردياً ، ولا جماعياً ، ظانين أن كتب الأقدمين تحوى كل شىء ، وفيها إجابة عن كل سؤال ، غافلين عما طرأ على الحياة من تغير هائل . وتطور كبير ، بعد الانقلاب الصناعى ، والتطور التكنولوجى ، والتواصل العالمى ، الذى جعل العالم (قرية كبرى) كما قال أحد الأدباء .

وإنى أسأل هؤلاء : هل يجدون فى كتب الأقدمين حكم زراعة الأعضاء فى الجسم البشرى ، وحكم الملاحة الجوية ، وصلاة رواد الفضاء ، وتخزين القرآن والحديث فى (الكومبيوتر) وغيرها وغيرها من القضايا الجديدة ؟ .

وهذا الصنف لا يمثل تياراً بارزاً فى قلب الصحوة الإسلامية ، وإن كان يمثل تياراً كبيراً فى قلب الأمة الإسلامية .

٢ - وصنف يدعى التمسك بالنصوص ، وخصوصاً من السنة ، رافضاً

أقوال المتقدمين والمتأخرين ، جاعلاً من نفسه (مذهباً خامساً) ، يحكم على المذاهب كلها ولا تحكم عليه ! يقول عن الأئمة العظام ، بل الصحابة الكرام : هم رجال ونحن رجال ! .

وأنا أسمى هؤلاء (الظاهرية الجدد) وإن لم يكن لهم علم الظاهرية ، ففيهم حرفيتهم .

وكثيراً ما يغفل عن طبيعة النصوص الجزئية ، ودلالاتها وملابسات ورودها : أهى عامة أم خاصة ، مطلقة أم مقيدة ، محكمة أم منسوخة ، ثابتة أو متغيرة ، موجبة أو مخيرة ، أصلية أم فرعية ، قطعية أم ظنية ؟ .

فلا بد من النظر فى هذا كله ، ليعلم ما يقبل تعدد الأفهام وما لا يقبل ، وما يحتمل وجهة نظر جديدة وما لا يحتمل ، وما تتغير فيه الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال ، وما لا يتغير بحال .

وهذا ما يحتاج إلى أهلية خاصة وأفق واسع ، كثيراً ما يفقده أولئك المتشددون الذين يحجّرون ما وسع الله .

وقد انتهى الجمود على بعض النصوص الجزئية دون ربطها بغيرها من النصوص والقواعد الكلية ، بأناس من هذا الصنف إلى ما انتهى إليه الخوارج من قبل ، فسقطوا فى هوة تكفير أهل القبلة ، وإخراج الناس من الملة بالجملة .

ولو نظروا إلى القضية نظرة شاملة متوازنة ، وقابلوا النصوص بعضها ببعض ، وردوا المتشابهات إلى المحكمات ، والجزئيات إلى الكليات ، لاتضحت لهم الرؤية ، وسلم حكمهم من الغلو المهلك ، ولم يقعوا فى خطيئة تكفير المسلم .

لقد حذر الإسلام من التكفير ، إبقاء على الأصل ، وحملاً لحال المسلم على الصلاح ومطاردة للغرور الذى ينظر إلى الناس باستهانة واحتقار ، وإلى النفس باستعلاء واستكبار .

إن الإسلام لا يسمح ببابوية تصدر ضد الناس قرارات الحرمان أو تمنحهم صكوك الغفران ! .

* *

٢ - الاتجاه إلى تمييع الإسلام :

هذا الاتجاه المتشدد « تجميد الإسلام » تقابله اتجاهات متعددة أخرى تشترك كلها فى القصد إلى « تمييع الإسلام » وتفريغه من مضامينه الثابتة ، وأحكامه الخالدة .

هذه الاتجاهات المغرضة والمشبوهة - على اختلافها وتباينها - حاولت وتحاول جاهدة تحريف الإسلام عن حقيقته - وليّ عنانه عن غايته ، وتطعيمه بعناصر غريبة عنه ، وحذف أشياء تعد من مقوماته الذاتية ، وتفسير مبادئه وأحكامه بما يخدم أهدافها ، ويتفق مع مصالحها .

فهناك اتجاه يمكن أن نسميه « تنصير الإسلام » أى تفسيره تفسيراً يذيب الفوارق بينه وبين النصرانية ، يسوى بين التوحيد والتثليث ، وبين القرآن المحفوظ والإنجيل المحرف ، ويزعم أن الجميع مسلمون : هذا مسلم عَبَد الله بشريعة محمد وذاك مسلم عَبدَ الله بشريعة المسيح ، واليهودى أيضاً مسلم ، فقد عبد الله بشريعة موسى !! .

ومما يدخل فى هذا الاتجاه : الحملات المنكرة على خصائص الإسلام فى أحوال الأسرة فى إباحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، والمحاولات المتكررة هنا وهناك لمنعهما ، وتحريم ما أحل الله ، تأثراً بالأفكار الغربية النصرانية .

وهناك اتجاه سماه بعضهم « بلشفة الإسلام » وهو يعمد إلى تفسير الإسلام تفسيراً يلصقه بالاشتراكية الماركسية ، أو يلصق به الاشتراكية الماركسية ، مستغلاً ما فى الإسلام من تقييد للملكية ، وإنصاف للطبقات الكادحة ، وحرب على السرف والترف والشح ، وجعل الناس شركاء فى ضروريات البيئة ، وحرص على تنمية الإنتاج ، وعدالة التوزيع وإقامة تكافل اجتماعى يشمل فئات المجتمع كلها .. الخ .

كما حاول أصحاب هذه الاتجاه تفسير أحداث السيرة النبوية ، ومواقف الصحابة ، وتاريخ الإسلام عموماً ، من خلال فلسفتهم الماركسية فى التفسير المادى للتاريخ ، حتى قسموا الصحابة بين يمين ويسار ، وأداروا المعارك من خلال ما زعموه من صراع الطبقات .

ولا غرو أن قرأنا وسمعنا من يجمع بين الشيء وضده، كما قال بعضهم: أنا مسلم ماركسى ، أو ماركسى مسلم ، وسمعنا دعوة إلى الإسلام اليسارى

أو اليسار المسلم ، وكذلك الإسلام الاشتراكي أو الاشتراكية الإسلامية ، وقرأنا عن اشتراكية الرسول واشتراكية عمر ، واشتراكية أبي ذر .

وهناك اتجاه ثالث مقابل للاتجاه الثاني ومضاد له ، ويمكن أن نسميه « رسملة الإسلام » أي تفسير الإسلام تفسيراً يجعله أقرب إلى الرأسمالية ، مستغلاً ما في الإسلام من عناية بحرية الفرد وحقوقه ورعاية حوافزه الذاتية ، وإباحة الملكية الفردية ، وما يتبعها من التفاضل في الأرزاق والتفاوت بين الأفراد والطبقات ، وشرعية الميراث والوصية ، وغير ذلك مما ينافي الفلسفة الجماعية التي تقوم عليها الماركسية ، فضلاً عن المادية الجدلية التي تعتبر الدين أفيون الشعوب .

ويدعم هذا الاتجاه تفسيره هذا ، بأن الرأسمالية تقوم في جانبها السياسي على المبادىء الديمقراطية ، التي تتفق مع مبدأ الشورى والبيعة في النظام الإسلامي .

ولا عجب أن قرأنا وسمعنا أيضاً عن الإسلام الليبرالي ، وعن الليبرالية الإسلامية ورأينا من يحاول تبرير الفوائد الربوية ، محرفاً كلمات الله عن مواضعها .

ويكفي للرد على كلا الاتجاهين السالفين وفساد دعواهما : أن كلاً منهما ينقض الآخر ، ولا يمكن أن يكون الإسلام فردياً وجماعياً ، رأسمالياً واشتراكياً في الوقت ذاته ، ولكن الإسلام حوى أفضل ما في المذهبين العالميين ، وتنزه عن مساوئهما . وهو على كل حال أسبق منهما زمناً ، وأرسخ قدماً ، فلا يجوز أن ينسب المتقدم إلى المتأخر .

والحق أن الإسلام منهج متميز بذاته ، ولا يوصف إلا بأنه الإسلام . وقد يتفق مع هذا المذهب أو ذاك في أصل أو أكثر من أصوله ، ولكنه مستقل عنها تماماً في أهدافه وطرائقه ، في مقوماته وخصائصه ، وفي أنواع أحكامه ، ومصادر إلهامه وإلزامه .

وأود أن أقول كلمة هنا لمن يدعو إلى الاشتراكية أو الديمقراطية بدعوى أن هذه ، أو تلك تتفق مع الإسلام : لماذا لا تدعون إذن إلى الإسلام نفسه ؟ لماذا تدعون الأصل وتدعون إلى الفرع ؟ إذا كان في هذه المذاهب المستحدثة ما في الإسلام ، فقد أغنانا الله تعالى بالإسلام ، وإن كان فيها ما يخالف الإسلام فلا ترضى بغير الإسلام بديلاً .

*　　*

٣ - الاتجاه إلى تجزئة الإسلام :

وثالث هذه الاتجاهات هو الاتجاه إلى تجزئة الإسلام ، وتقطيع أوصاله ، فالإسلام منهج كامل لحياة البشر ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية ، دينية ودنيوية ، مثالية وواقعية ، فلا بد أن يؤخذ الإسلام كله كما أمر الله ، عقيدة وعبادة ، وأخلاقاً ومعاملة ، وتشريعاً وتوجيهاً وأخوة وتنظيماً .

ومما يؤسف له أن الإسلام ابتلى بقوم جعلوه لحماً على وضم ، فأعملوا فى كيانه المتماسك سكين التقطيع والتجزئة ، مغيرين لطبيعته التى أنزله الله عليها .

فهناك من يريد هذا الدين مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل ، وحسبك أن تنطق بالشهادتين لتأخذ صكاً بدخول الجنة والنجاة من النار ، مع أن الإيمان الحق لا يوجد بلا عمل ، كما يتضح ذلك من مئات النصوص من القرآن والسنة .

ومنهم من يريده عبادة بلا أخلاق ، أو أخلاقاً بلا تعبد ، برغم قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ (١) ، وقول الرسول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

ومنهم من يريده عقيدة وعبادة وأخلاقاً ، ولا يريده تشريعاً ولا نظاماً للحياة .

إنه مسلم فى المسجد يؤدى فرض الله ويقرأ كتاب الله ، ولكنه إذا خرج من المسجد تعامل بالربا الذى حرمه الله ، واحتكم إلى محاكم تقضى بغير ما أنزل الله ، واعتنق أفكاراً مضادة لما شرع الله .

إنه فى المسجد دينى ، وفى خارج المسجد علمانى ، يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، يأخذ من القرآن آية الكرسى ، يتلوها ويتبرك بها ، ولا يأخذ آية المداينة ، وكلتاهما فى سورة واحدة ، يتمثل أمر الله إذا قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (٣) ويتوقف فى أمره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ (٤) أو ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ (٥) ، وكلها واردة فى سورة واحدة بصيغة واحدة .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والحاكم وصححه وأقروه ، عن أبى هريرة .

(٣) البقرة : الآية ١٨٣ . (٤) البقرة : الآية ١٧٨ . (٥) البقرة : الآية ٢٤٦ .

يؤمن ويعمل بقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (١) إلى آخر آية الطهارة المعروفة .

ولكنه لا يقف هـــذا الموقف من قوله تعالـى فى نفـس السـورة ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقوله ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * . . . هُمُ الظَّالِمُونَ * . . . هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

لقد كان الغالب على عمل الناس فى العصور الماضية الزيادة فى الإسلام بالإحداث والابتداع وإضافة ما ليس من الدين إليه ، والتقرب إلى الله بما لم يشرعه ، ودخل فى دين الله بدع ما أنزل الله بها من سلطان ولا قام عليها من برهان ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

أما هذا العصر فمحنة الإسلام فيه تتمثل فيمن يريدون أنم يحذفوا منه ما هو من صلبه ومن مقوماته ومن خصائصه .

ولا غرو أن قامت فى الهند نحلة جديدة تحت شعار نبوة زائفة ، كل همها أن تحذف من الإسلام فريضة الجهاد فى سبيل الله ، ليبقى الإسلام ضعيفاً أعزل بلا قوة ، ويعيش المسلمون تحت سلطان الكفار ، يطيعونهم ولا يعصون ، ويستسلمون ولا يقاومون ، لأن طاعة أولى الأمـــر واجبة ولو كانـــوا كفاراً غاصبين ! .

وقام فى بعض بلاد المسلمين من يفصل بين الإسلام والحكم ، وينادى به ديناً بلا دولة ، وعقيدة بلا شريعة ، وقرآناً بلا سلطان ! .

وهذه الدعاوى كلها يرفضها جزماً منطق الإسلام أصولاً وفروعاً .

إن الإسلام فى عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته ، وحدة مترابطة ، لا يقبل التجزئة ، ولا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها ، فإن الذى شرعها واحد وهو الله تعالى الذى أمر بطاعته فيها ، وحذر من تركها أو ترك بعضها .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ . (٢) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٣) سورة المائدة : الآيات ٤٤ — ٤٥ — ٤٧ .

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) أى ادخلوا فى شرائع الإسلام جملة ، ولا تطيعوا الشيطان فى الإعراض عن شىء منها .

ويقول سبحانه ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

والتحذير هنا من دسائس غير المسلمين واتباع أهوائهم التى تحاول دائماً أن تفتن المسلم عما أنزل الله إليه من كتاب ، وما يشرع له من أحكام ، إن لم يكن عن الكل ، فعن بعض ما أنزل الله ، وربما رضوا بذلك كخطوة أولى تتبعها خطوات ، على أن فتح باب التفريط فى جزء من دين الله لا يؤدى إلى ضياع الدين كله .

ومن هنا أنكر الله تعالى فى كتابه على بنى إسرائيل تجزئتهم لدينهم ، وأخذهم ببعض منه وتركهم لبعض فقرعهم بهذا الأسلوب الشديد البالغ الشدة : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

٤ - الفهم الشمولى للإسلام

وإذا كان تيار الوسطية ، يرفض الأفهام التى تقوم على تجزئة الإسلام ، فإنه يتميز بفهمه الشمولى للإسلام ، فهو لا يركز على شعبة من الإسلام دون شعبة ، ولا بعد دون بعد ، بل يسلط الأضواء عليها جميعاً ، وبخاصة ما أهمله المسلمون ، أو أعطوه دون حقه وحجمه فى تعاليم الإسلام ، ومن هنا كان الاهتمام بالأبعاد الخمسة التالية :

شعبة تتجه إلى النفس فتصلحها بالتزكية . وهذا هو البعد الإيمانى .

وشعبة تتجه إلى المجتمع فتصلحه بالعدالة . وهذا هو البعد الاجتماعى .

وشعبة تتجه إلى الحكم فتصلحها بالشورى . وهذا هو البعد السياسى .

وشعبة تتجه إلى النظم فتصلحها بالتشريع . وهذا هو البعد التشريعى .

وشعبة تتجه إلى الحياة فتصلحها بالعمارة . وهذا هو البعد الحضارى .

* *

● **البعد الإيمانى :**

فأما الشعبة الأولى - أو البعد الأول - فهى أساس البناء كله ، فالمجتمعات لا تصلح إلا بصلاح الأفراد ، والأفراد لا يصلحون إلا بصلاح الأنفس ، والأنفس لا تصلح إلا بالتزكية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

ومن هنا كانت مهمة الرسول - ﷺ - فى أمته أنه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٢) . والتزكية شيء أعمق من التعليم . التعليم يتصل بالرأس ، والتزكية تتصل بالنفس ، والتزكية مشتقة من « زكا - يزكو » إذا طهر ونما ، فهى تطهير وتنمية معاً . أو تخلية وتحلية : تخلية من الرذائل ، وتحلية بالفضائل ، ومكارم الأخلاق التى بعث الرسول ليتممها .

---

(١) سورة الشمس : الآية ٧ - ١٠ . (٢) سورة الجمعة : الآية ٢ .

إن سنة الله فى التغير الاجتماعى ، أن يسبقه تغيير نفسى عميق ، يجعل الفرد كأنه إنسان جديد ، حين تتغير أهدافه وآماله وحوافزه ومفاهيمه ، ونظرته إلى نفسه وإلى الكون والحياة من حوله ، وإلى رب العالمين من فوقه .

إنه لم يغير اسمه ولا صورته ، ولكن تغيرت أعماقه ، فاصبح قادراً على تغيير سلوكه وعلاقاته ، وتغيير الحياة فى محيطه ، وهذا منبع التغيير للمجتمع كله ، كما قرر ذلك القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

والعامل الأساسى فى هذا التغيير وهذه التزكية هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو التوحيد الذى يجعل المؤمن يستعلى على متاع الدنيا وزينتها ، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وهو الذى يحرره من الخضوع لمخلوق مثله فى الأرض أو فى السماء من رجال الملك أو من رجال الدين ، لأن شعاره : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وهو الذى يمنح صاحبه الثقة والقوة ، فلا يهن ولا يضعف ولا يستكين مهما نزل به من المحن والشدائد ، لأنه يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهو يقرأ دائماً : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وهو الإيمان الذى غير عرب الجاهلية – عرب الأصنام والخمر والزنى والربا والمنكر والبغى – إلى صحابة محمد ﷺ : أبر الناس قلوباً ، وأطهرهم نفوساً ، وأصلحهم أعمالاً ، وأزهدهم فى الدنيا وأحرصهم على الدين .

والإيمان الإسلامى ليس مجرد معرفة ذهنية تنير العقل بما تكشف له من حقائق الوجود الكبرى : الله والوحى والإنسان والمسؤولية والجزاء .

إنه أعمق من ذلك وأوسع مدى . إنه نور يضىء العقل ، ويقين يغمر القلب ، ومثل تحفز الإرادة ، وضمير يوجه السلوك .

وإن شئنا عبرنا بما عبر به الأقدمون من سلفنا ، فقلنا : إنه اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح والأركان .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ . (٢) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٥١ .

ولا غرو أن عرض لنا القرآن الكريم الإيمان مجسداً فى أعمال وأخلاق ومواقف، لتكون مرآة ، يرى كل امرىء فيها نفسه،ماذا أخذ منها، وماذا ترك .

أنظر إلى قوله تعالى فى القرآن المكى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ * وَالَّذِين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وإنظر فى القرآن المدنى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقوله جل شانه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٤) .

وعرضت السنة النبوية الإيمان فى بضع وسبعين شعبة ، تتمثل فيها العقائد السليمة ، والعبادات الخالصة ، والأخلاق الفاضلة والمعاملات المستقيمة ، والعلاقات الطيبة ، والمثل الإنسانية الرفيعة .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١ – ٩ . (٢) سورة الحجرات : الآية ١٥ .
(٣) سورة التوبة : الآيتان ١١١ ، ١١٢ . (٤) سورة التوبة : الآية ٧١ .

وحسبنا أن نقرأ هذه الأحاديث :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

« المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقـل خيراً أو ليصمت » .

« ليس بمؤمن من بات شبعان ، وجاره إلى جنبه جائع » .

كما عرض لنا القرآن الإيمان في مواقف بطولية نرى فيها أثر الإيمان يغني عن كل بيان .

اقرأ قصة سحرة فرعون ، وانظر كيف غيرهم الإيمان ، وأنشأهم خلقاً آخر ، من (حواة) يسحرون أعين الناس بالباطل ، إلى (هداة) يدعون الناس إلى الحق) .

لقد جاؤوا إلى فرعون ، ينتظرون الأجر والزلفى منه ، إن كانوا هم الغالبين ، ويقسمون بعزته إنهم لهم الغالبون ، ولكنهم لما وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون انكشف القناع عن قلوبهم ، ومثلت الحقيقة الكبرى أمام أعينهم ، فأعلنوها صريحة في وجه فرعون لم يرعبهم تألهه ، ولم يرهبهم جبروته ، ولم يثنهم وعيده وتهديده بالقتل والصلب ، لقد جعل الإيمان من ضعفهم قوة تتحدى كبرياء فرعون وجنوده وتقول له في قـوة المؤمنين ، وإيمان الأقوياء : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ (١) .

إن البعد الإيماني ليس مجرد بعد روحي . إنه كذلك – كما رأينا – بعد أخلاقي . وبعد بطولي .. بعد يجعل الإنسان لسان حق ، وشعاع هدى ، وينبوع خير ورحمة للعالمين ، وفي الحديث : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » .

* *

---

(١) سورة طه : الآيات ٧٢ – ٧٥ .

● **البعد الاجتماعي :**

وأما الشعبة الثانية فهي التي تتجه إلى المجتمع ، لتقيم فيه العدل ، وتزيل المظالم والبغي ، وتعطي كل ذي حق حقه .

لقد أعلن القرآن الكريم أن إقامة العدل بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) . والقسط هو العدل .

وجاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تنوه بالعدل والقسط وتثني على المقسطين . كما أعلنت حرباً لا هوادة فيها على الظلم والظالمين وعلى كل من يعينهم أو يركن إليهم . بل كل من يسكت عنهم ولا ينكر عليهم ، فإن الساكت عن الحق قريب من الناطق بالباطل . بل جعل القرآن مجرد الركون إلى الظلمة موجباً لعذاب الله وسخطه : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٢) .

وأشد أنواع الظلم : هو ظلم الأقوياء للضعفاء ، ظلم الأغنياء للفقراء ، ظلم أرباب العمل للعاملين . أن يعمل الإنسان الكثير ولا يجد القليل ، ثمرة لعمله . وألا يعمل آخر شيئاً ويجد كل شيء ! أن يوجد في الناس من يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع ، وبالقرب منه من يضع يده على بطنه أيضاً يشكو زحمة التخمة .

ويزيد الأمر سوءاً أن يكون الذي يشكو الجوع والحرمان هو العامل الكادح المكدود فهو يزرع ولا يحصد ، وأن يكون الذي يشكو التخمة هو القاعد المتبطل ، الذي يجني ثمار ما غرسته أيدي الآخرين المتعبين ! .

إن الإسلام لا يدع هذه الفوارق تتسع ، فيتسع معها الخرق على الراقع ، بل يتدخل — بقوانينه ووصاياه ، بوازع السلطان ووازع القرآن — للحد من طغيان الأغنياء ، والرفع من مستوى الفقراء ، وتحقيق الكفاية التامة لكل من يعيش في ظل دولته ، مسلماً كان أو غير مسلم ، عن طريق تيسير العمل الملائم له إن كان قادراً ، وعن طريق الكفالة من المجتمع والدولة إن كان عن العمل عاجزاً ، أو كان قادراً ولم يجد عملاً مناسباً أو كان دخله من عمله لا يتمم كفايته من مطالب الحياة .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .   (٢) سورة هود : الآية ١١٣ .

وإلى جانب ذلك حرم الإسلام على الأغنياء السرف والترف والربا والكنز ، واعتبر المال الذى فى أيديهم مال الله ، وهم مستخلفون فيه ، وفرض عليهم فيه حقوقاً مؤكدة الزكاة أولها وليست آخرها .

والإسلام مستعد لتجييش الجيوش وإعلان القتال لانتزاع حق الفقراء من براثن الأغنياء ، كما فعل الخليفة الأول الصديق رضى الله عنه .

وإذا كانت بعض الأديان قد عنيت بالفرد وبالجانب الروحى فيه خاصة ، فإن الإسلام فى كتابه وسنته - إلى جانب عنايته الكبيرة بالفرد - قد عنى بالمجتمع الإنسانى ، وعلاج مشكلاته وأدوائه ، وذلك لأنه دين إنسانى ، جاء بتكريم الإنسان ، وتحرير الإنسان ، ففيه تتعانق المعانى الروحية والمعانى الإنسانية ، وتسيران جنباً إلى جنب .

والإسلام لا يتصور الإنسان فرداً منقطعاً فى فلاة ، أو منعزلاً فى كهف أو دير ، بل يتصوره دائماً فى مجتمع ، يتأثر به ويؤثر فيه ، ويعطيه كما يأخذ منه ، ولهذا خاطب الله بالتكاليف الجماعة المؤمنة لا الفرد المؤمن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [1] وكانت مناجاة المؤمن لربه فى صلاته بلسان الجماعة لا بضمير المفرد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [2] . لهذا قلنا : إن مقتضى عناية الإسلام بالإنسان ، العناية بالمجتمع كله ، فالإنسان اجتماعى بالفطرة ، أو مدنى بالطبع ، على حد تعبير القدماء .

وإذا كان الإسلام قد عنى بالمجتمع عموماً ، فإنه عنى عناية خاصة بالفئات الضعيفة فيه ، وهذا سر ما نلاحظه فى القرآن الكريم من تكرار الدعوة إلى الإحسان باليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب . يستوى فى ذلك مكى القرآن ومدنيّه . وذلك لأن كل واحد من هذه الأصناف يشكو ضعفاً فى ناحيته ، فاليتيم ضعفه من فقد الأب ، والمسكين ضعفه من فقد المال ، وابن السبيل ضعفه من فقد الوطن ، والرقيق ضعفه من فقد الحرية .

وإذا كانت بعض المجتمعات تهمل هذه الفئات الشعبية الضعيفة ، ولا تلقى لها بالاً فى سياستها الاجتماعية والاقتصادية ، ولا تكاد تعترف لها بحق ، لأنها لا ترجى ولا تخشى ، وليس بيدها خزائن المال ، ولا مقاليد

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٣ . (٢) سورة الفاتحة : الآيتان ٥ ، ٦ .

السلطان - فإن رسول الإسلام محمداً ﷺ - قد نبه على قيمة هذه الفئات ومكانها من المجتمع ، فهي عدة النصر في الحرب ، وصانعة الإنتاج في السلم ، فبجهادها وإخلاصها يتنزل نصر الله على الأمة كلها ، وبجهودها وكدحها في سبيل الإنتاج يتوافر الرزق لها .

وإلى هذه الحقيقة يشير حديث النبي - ﷺ - لسعد بن أبي وقاص ، حين قال له فيما رواه البخاري : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » .

ومن هنا حرص الإسلام على أن تكون هذه الفئات الجاهدة المجاهدة ، مستريحة في حياتها ، مطمئنة إلى أن معيشتها مكفولة ، وأن حقوقها في العيش الكريم مضمونة ، بحيث يجب أن يوفر لكل فرد فيها على الأقل حد الكفاية ، بل تمام الكفاية من مطالب الحياة الأساسية ، إذا عجز عن العمل ، أو قدر عليه ولم يجده ، أو وجده ولم يكن دخله منه يكفيه أو يكفيه بعض الكفاية دون تمامها ، على أن الإسلام لن يغفل من حسابه أن القوي قد تطرأ عليه ظروف تجعله في مركز الضعف والحاجة ، لغرم في مصلحة خاصة أو عامة، أو لانقطاعه عن ماله ووطنه في سفر وغربة ، أو لاضطهاده وإخراجه من وطنه على يد قوة طاغية من الداخل ، أو غازية من الخارج، ففرض لهذا النوع : (الغارمين وابن السبيل) من المساعدة والعون ما ينهض بهم إذا عثروا ، ويمدهم بالقوة إذا ضعفوا ، ويصلهم بالحياة وقد انقطعوا .

ولكن ما المورد المالي الذي يحقق هذه الأهداف ، ويفي بهذه المطالب ؟ هنا يأتي دور الزكاة التي جعل الشرع جل حصيلتها لهذه الأغراض الاجتماعية ، وهي ليست بالشيء الهيّن ، إنها العشر أو نصفه مما أنبت الله من الثروة الزراعية ، وربع العشر من الثروة النقدية والتجارية ، ونحو هذا المقدار - تقريباً - من الثروة الحيوانية ، وخمس ما يعثر عليه من الكنوز بالإضافة إلى خمس الثروة المعدنية والبحرية كما يرى بعض الفقهاء .

ولقد كان من روائع الإسلام ، بل من معجزاته الدالة على أنه دين الله حقاً : أنه سبق الزمن ، وتخطى القرون ، فعني - منذ أربعة عشر قرناً مضت - بعلاج مشكلة الفقر والحاجة ، ووضع الفقراء والمحتاجين ، دون أن يقوموا بثورة ، أو يطالبوا - أو يطالب لهم أحد - بحياة إنسانية كريمة ، بل دون أن

يفكروا هم مجرد تفكير فى أن لهم حقوقاً على المجتمع يجب أن تؤدى ، فقد توارث هؤلاء على مر السنين والقرون أن الحقوق لغيرهم ، وأما الواجبات فعليهم !! .

ولم تكن عناية الإسلام بهذا الأمر سطحية ولا عارضة ، فقد جعلها من خاصة أسسه ، وصلب أصوله ، وذلك حين فرض للفقراء ، وذوى الحاجة ، حقاً ثابتاً فى أموال الأغنياء يعطى طوعاً بدافع الإيمان ، وإلا أخذ كرهاً بقوة السلطان .

* *

● البعد السياسى :

وأما الشعبة الثالثة ، فهى التى تقرر الشورى قاعدة للحكم فى الإسلام .

ولا بد لنا من التأكيد على هذه القاعدة الإسلامية الجليلة ، التى اعتبرها القرآن أحد مقومات المجتمع المسلم ووضعها بين الصلاة والإنفاق مما رزق الله ، وهما من أركان الدين .

يقول تعالى فى وصف مجتمع المؤمنين فى القرآن المكى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) .

ويقول فى القرآن المدنى مخاطباً النبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٢) .

وإذا كان النبى المؤيد بالوحى مأمور بالمشاورة فغيره أولى :

وكان ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه ، فيما ينوبه من أمور ، وطالما نزل عن رأيه إلى رأيهم ، وخصوصاً إذا وجد الخبرة أو الكثرة معهم .

إننا نتبنى القول بوجوب الشورى ، وبأن نتائجها ملزمة ما دامت صادرة من أهلها فى محلها ، وحسب أمتنا ما لاقت من الطغاة والمستبدين .

أما حكاية (المستبد العادل) الذى لا ينهض بالشرق غيره كما قيل ، فهى مرفوضة ، إذ لا يجتمع العدل والاستبداد ، فالعادل لا يكون مستبداً ، والمستبد لا يكون عادلاً ، وكيف يكون عادلاً من يرى نفسه عليما بكل أمر ،

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وحكماً فى كل قضية ، لا يسأل عما يريد ، ولا يُسأل عما يفعل ، كأنما هو إله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا معقب لحكمه ؟! .

إن الإسلام يرفض الاستبداد والطغيان ، ويقيم الحكم على أساس البيعة والاختيار ، ثم على التشاور والتفاهم ، موجباً المشاورة على الحاكم ، والنصيحة على المحكومين ، ومن مجموع هذين تتكون المجالس الشورية .

وعندئذ لا حاجة لنا إلى استيراد الديمقراطية الغربية ، ففى شريعتنا ما يغنى عنها ، وما يعفينا من مساوئها الناشئة عن الروح المادية والنفعية والفردية التى هى من إفراز العقلية الغربية .

على أنه لا حرج علينا أن نقتبس من نقاط القوة فيها ما يلائم شعوبنا ، ولا يتعارض مع شريعتنا ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها .

إن الإسلام يرفض أن يفرض على المسلمين من يقودهم رغم أنوفهم ، ولو كان يقودهم من نصر إلى نصر ، فإن الذى يقاد رغم أنفه هو البهيمة العجماء ، وليس الإنسان المكرم – أى إنسان – فما بالك بالمؤمن ؟ .

إنه يذم إمام الصلاة الذى يؤم قوماً لا يرضون عن إمامته ، مع أنه يؤمهم فى عبادة ، كما جاء فى الحديث عن الثلاثة الذين لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : « رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون . . » الحديث . فإذا كان هذا فى (الإمامة الصغرى) مذموماً مرفوضاً عند الله تعالى ، فكيف يقبل فى (الإمامة الكبرى) أن يقود رجل قوماً وهم له كارهون وعليه ساخطون ؟! .

إن الإسلام يرفض أن تزوج الفتاة البكر بغير إذنها ، وأن تفرض عليها حياة لا ترضى عنها ، فكيف يتصور أن يقبل الإسلام أن تجبر أمته على حياة لم تخترها ، ولم يؤخذ رأيها فيها ؟ .

إن الإسلام جعل أمر الأمة بيدها ، فهى التى تختار إمامها وحاكمها عن اقتناع ، وتبايعه عن رضا ، حين تجد فيه تحقق الشروط ، وتكامل الأوصاف العقلية والنفسية والخلقية والعملية اللازمة لقيادة الأمة ، وقد أفتى الإمام مالك بأن من بايع إماماً وهو مكره ، فإن بيعته باطلة ، لأن شرط البيعة توافر الحرية والاختيار .

فإذا اختارت الأمة حاكمها ، وبايعته طائعة راضية ، فمن حقها – بل من واجبها – أن تراقبه بأمانة ، وأن تحاسبه بدقة ، وأن تنصح له بإخلاص ، وأن

تعينه إذا أحسن ، وتقومه إذا أساء ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه ، فإن النصيحة لب الدين ، والتواصى بالحق والصبر ، أحد شروط النجاة من الخسران ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أحد مقومات المجتمع المسلم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١) ، كما أنه أحد وظائف الدولة المسلمة المنصورة من الله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

والإمامة فى الصلاة مثال مصغر لإمامة الأمة فى الحياة ، وقد علم الإسلام المأمومين أن يصححوا الإمام إذا أخطأ ، ويذكروه إذا نسى ، حتى يردوه إلى الصواب ، وعليه أن يدع رأى نفسه لرأيهم ، وينزل عند قولهم ، ولو خالف ما يعتقده صواباً .

كما علم الإسلام المسلم ، أن يقول فى قنوته إذا أوتر - كما فى المذهب الحنفى : « نشكرك اللهم ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك » وهذا معناه زرع الثورة والتمرد على الظلم والفجور فى نفسية كل مصل قانت لله .

والأمة التى ملكها الإسلام حق تولية الحاكم ، هى التى ملكها حق تقويمه ، بل عزله إذا انحرف عن جادة الإسلام ، ولم يجد معه نصح ولا توجيه ، وخصوصاً إذا أتى كفراً بواحاً عندها فيه من الله برهان .

وقد قال أبو بكر رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وقال عمر : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومنى » .

وقبلهما قال النبى ﷺ : « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » متفق عليه .

ولا يرضى الإسلام عن أمة تؤيد حاكمها فى الصواب والخطأ وتسير وراءه فى الحق والباطل ، وتمدحه إذا عدل ، ولا تنقده إذا ظلم . ولو كان من باب الخوف والتهيب ، ويعتبر أمة من هذا النوع ، قد فقدت مبرر وجودها ، وبطن

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧١ .   (٢) سورة الحج : الآية ٤١ .

الأرض خير لها من ظهرها ، « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منهم » .

والإسلام يندد بالجبابرة الطغاة المتألهين ، كما يندد بمن اتبعهم على باطلهم وينظم القرآن الكريم الرعية مع الراعى الظالم المتجبر فى سلك واحد إذا هم مشوا فى ركابه ، واتبعوا أمره ، كما قال تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١) . وقال فى فرعون : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٢) . وقال فى ذم عاد قوم هود : ﴿ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٣) .

وما لم تقم الأمة بهذا الواجب ، فهى معرضة لسخط الله وعذابه ، ونقمته العامة التى تنزل بالجميع ، فتصيب المقترفين للمنكر ، والساكتين عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(٤) ، وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (رواه أبو داود والترمذى) .

* *

• البعد التشريعى :

والشعبة الرابعة من شعب الإسلام تتجه إلى الأنظمة والعلاقات ، فتصلحها بالتشريع الذى يحقق العدل ، ويقيم الموازين القسط . بل ما بعث الله الرسل ، ولا أنزل الكتب إلا ليقوم الناس بالقسط ، كما بين ذلك القرآن : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) .

ولهذا قال الإمام ابن تيمية : (لا بد للناس من كتاب هاد ، وحديد ناصر) يعنى أن الكتاب يمثل الحق ، والحديد يمثل القوة ولا تستقيم الحياة إلا بهما .

---

(١) سورة هود : الآية ٩٧ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٥٤ .
(٣) سورة هود : الآية ٥٩ .
(٤) سورة الأنفال : الآية ٢٥ .
(٥) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

ومن ثم اتفق المسلمون من جميع الفرق والمذاهب على أن الإسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة هى الأساس ، والشريعة هى البناء ، فقد جاء الإسلام منظماً لحياة الإنسان بوضع الأصول الضابطة لها ، والمنارات الهادية لمسيرتها ، ووضع الإشارات الحمراء عند خشية الصدام ، حتى أن أطول آية فى كتاب الله نزلت فى تنظيم شأن صغير من الشؤون المدنية للإنسان ، وهى (آية المداينة) .

وقد قام لخدمة الشريعة علم عظيم من علوم المسلمين ، هو (علم الفقه) وهو علم إسلامى المنشأ ، إسلامى المصدر ، إسلامى الوجهة ، إسلامى المنهج ، تفرغ له من نوابغ الأمة أئمة كبار ، فصلوا مسائله ، وقعدوا قواعده ، وضبطوا به الحياة الإسلامية ، فردية واجتماعية ، منذ يولد الإنسان إلى أن يموت ، بل قبل الولادة ، وبعد الوفاة .

كما وضعوا لضبط استدلالاته ، فيما فيه نص ، أو فيما لا نص فيه ، علماً جليلاً ، هو علم (أصول الفقه) الذى يعتبر من مفاخر التراث الثقافى الإسلامى وهو المعبر الأصدق عن (فلسفة المسلمين) أكثر من تمثيل مدرسة الفلسفة المشائية الإسلامية ، كما قال بحق شيخنا مصطفى عبد الرازق رحمه الله .

وللشريعة الإسلامية خصائص تميزها عن كل الشرائع والأنظمة ، سواء أكانت دينية أم وضعية :

فهى شريعة ربانية : لأن مصدرها الأساسى وحى الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، فهى تشريع عليم حكيم ، بر رحيم ، خلق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ويرقى به فرداً ومجموعاً : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وهى شريعة إنسانية : لأن الإنسان هو الذى يفهمها ، وهو الذى ينفذها ، ولأن محورها ومبناها على رعاية مصالح الإنسان فى المعاش والمعاد ، مصالحه الضرورية والحاجية والتحسينية ، والمحافظة على دينه وحياته وعقله ونسله وعرضه وماله ، فهى شريعة رب الإنسان من أجل صلاح الإنسان .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

وهى شريعة أخلاقية : ليست مهمتها تقنين ما تعارف عليه الناس - كما كان القانون الرومانى - بغض النظر عن صواب العمل أو خطئه ، خيريته أو شريته . ولكن مهمتها تقنين الأخلاق ، والنظرة إلى الإنسان من حيث أنه مكلف مسؤول ، قبل أن يكون مطالباً سائلاً .

وهى شريعة واقعية : فهى لا تحلق - كالطوباويين - فى مثاليات مجنحة ، بل تشرع للإنسان على الأرض ، تقدر دوافعه ، وتراعى ضروراته ، وترعى حاجاته ، ولا تغفل الأعذار الطارئة ، والأحوال الاستثنائية ، والظروف المخففة ، ولهذا كان من أوصاف رسولها عند أهل الكتاب أنه : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وهى شريعة منطقية : لأن أحكامها - فيما عدا التعبديات المحضة - معللة مفهومة ، فهى لا تجمع بين مختلفين ، ولا تفرق بين متماثلين ، ولهذا شرعت القياس لإعطاء الشيء حكم نظيره إذا اشتركا فى العلة الجامعة ، ولم يكن بينهما فارق معتبر ، وكان من أدلتها عند المحققين من فقهائها : الاستصلاح والاستحسان ورعاية العرف . . وغيرها .

وهى شريعة خالدة متجددة معاً : تجمع بين الثبات والمرونة ، فهى خالدة فى أصولها وكلياتها ومصادرها ، لأنها خاتمة الشرائع الإلهية ، ولهذا تكفل الله بحفظ مصدرها الأول وهو القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) ، وهو يتضمن حفظ السنة فإن حفظ المبين يقتضى حفظ بيانه ، كما قال الإمام الشاطبى .

وهى متجددة فى فروعها وجزئياتها : لأن الله تعالى أودع فيها من عوامل السعة والمرونة ، ما يجعلها صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، من اتساع منطقة (العفو) وهى منطقة الفراغ من النصوص التشريعية ، التى تركت للاجتهاد البشرى ، رحمة من الله غير نسيان . . ومن اهتمام الشريعة بالنص - غالباً - على المبادىء والأصول الكلية لا على الجزئيات والتفصيلات . . ومن قابلية معظم النصوص الجزئية لتعدد الأفهام والتفسيرات . . ومن تقرير محققى العلماء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ . (٢) سورة الحجر : الآية ٩ .

ولقد دخلت هذه الشريعة بلاد الحضارات العريقة ، فى فارس والعراق والشام ومصر ، وشمال إفريقيا ، والهند وغيرها .. فلم يضق ذرعها بجديد ، ولم يعجز فقهها يوماً أن يجد فى طبها دواء لكل داء ، وفى أصولها حلاً لكل مشكل .

ولا غرو أن استبحر فقهها ، وتعمقت أصوله ، وامتدت فروعه ، وتنوعت مدارسه ، وتعددت مذاهبه ، ما بين ظاهرى يتمسك بحرفية النص ، وقياسى يعمل بالرأى ، ومتوسط بين هذا وذاك ، ومجموعها يكون ثروة حقوقية لا نظير لها فى أمة من الأمم ، وهو ما شهد به الدارسون حتى من غير المسلمين .

ولقد مضت على الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرنا ، والشريعة الإسلامية هى المرجع الفذ فى كل شؤونها ، وعلاقاتها ، فهى أساس القضاء ، وأساس الفتوى ، وهى الدستور ، وهى القانون ، لا يفكر حاكم أو محكوم - مجرد تفكير - فى تجميدها أو البحث عن بديل لها ، كيف وهم يقرأون فى كتاب ربهم أنهم لا خيار لهم أمام حكم الله ورسوله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (١) .

كما أنها تمثل فى اعتقادهم عدل الله بين عباده ، ورحمته فى خلقه ، وحكمه فى أرضه . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

ولولا دخول الاستعمار الغربى إلى ديارنا منتهزاً غفلتنا وضعفنا وتفككنا ، وسعيه الدؤوب من أول يوم (لعلمنة) الفكر والتشريع . ما تصور أبعد الناس إغراقا فى الخيال ، أن تغدو القوانين الوضعية الأجنبية منافسة للشريعة الإسلامية الإلهية ، بله أن تطاردها وتعزلها عن سلطانها فى دارها ، وتحتل منصبها الذى لم يشاركها فيه أحد ألفاً وثلاثمئة عام .

كل ما كان يطالب به المستنيرون من أبناء الإسلام هو التحرر من ربقة التقليد والعصبية المذهبية ، وتجديد الاجتهاد فى فقه الشريعة ، وهو ما عبر بعضهم بفتح باب الاجتهاد ، مع أن أحداً لا يملك إغلاقه وقد فتحه رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة النور : الآية ٥١ .		(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

ولهذا لا أجد مبرراً لفريق من أبناء أمتنا يلعنون الاستعمار قديمه وجديده ، ومع هذا يتمسكون برواسبه ومخلفاته فى حياتنا الثقافية والتشريعية .

ولا أستطيع أن أفهم كيف نعطى – باختيارنا – الوضع الذى نشأ عن دخول الاستعمار أوطاننا ، وتحكمه فى رقابنا ، وسيطرته على مقدراتنا الثقافية والتعليمية والتشريعية والاجتماعية والسياسية – نعطى هذا الوضع شرعية البقاء ، والدفاع عن الذات ، ونمنحه الحق فى منافسة الشرعية الإسلامية الربانية ، بحيث يجوز لنا أن نفاضل بين الوضعين ، ونختار أى السبيلين ؟! .

* *

• الصحوة وتطبيق الشريعة الإسلامية :

إن مما يميز الصحوة الإسلامية المعاصرة تعالى صيحاتها للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، فلم تعد همساً فى المجالس ، أو حديثاً عارضاً فى الأندية والحلقات ، بل دوياً هائلاً ، تردده الجماهير ، وتتجاوب به الآفاق فى جهات الدنيا الأربع .

ولم يعد بإمكان أحد أن يتجاهل هذا المطلب الشعبى ، الذى يكاد يحوز الإجماع لو استفتى الشعب عليه .

ومن حق الشعوب الإسلامية أن تطالب بالرجوع إلى شريعة ربها ، وأحكام دينها ، لتحل محل القوانين الوضعية الدخيلة ، التى فرضت عليها بقرارات فوقية منذ دخول الاستعمار الغربى إلى ديار المسلمين .

ولكن تيار الوسطية الإسلامية له هنا جملة ملاحظات أساسية يجب أن ينبه عليها :

١ – إن ما تريده الصحوة الإسلامية أكبر من مجرد تعديل مواد القوانين الوضعية بمواد إسلامية ، فالقانون وحده ، لا يبنى المجتمعات ، ولا يحيى موات الأمم ، ولا ينفخ الروح فى الشعوب الهامدة ، إنما تصنع ذلك العقائد والقيم والأخلاق .

ولهذا ينكر الإسلاميون الواعون حصر الدعوة إلى الإسلام فى الجانب القانونى ، وحصر الجانب القانونى فى تنفيذ الحدود والعقوبات ، وكأن الإسلام كله لخص فى قطع يد السارق ، وجلد الزانى والقاذف والسكير ! وإن هذا وإن كان من الإسلام ، فليس هو كل الإسلام ، ولا أهم ما فى الإسلام ولا أول ما

يطلب في الإسلام ، ولو قرأنا المصحف وتدبرنا آياته ، لم نجد العقوبات تبلغ منها عشراً .

إن الإسلام عقيدة سليمة ، وعبادة خالصة ، وخلق قويم ، وعمل صالح وعمارة للأرض ، ورحمة للخلق ، ودعوة إلى الخير ، وتواص بالحق ، وتواص بالصبر ، وجهاد فى سبيل الله .

كما أنه تشريع وقانون ينظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فلا يجوز أن يطغى الجانب التشريعى على غيره من جوانب التربية والتوجيه التى تشمل سائر مجالات الحياة .

ولهذا ينادى تيار الوسطية الإسلامية بالدعوة إلى الإسلام كل الإسلام ، لا بمجرد تطبيق الشريعة بالمعنى الضيق الذى فهمه الكثيرون .

أجل ، إننا نريدها حياة إسلامية متكاملة ، حياة توجهها عقيدة الإسلام ، وتسودها مفاهيم الإسلام ، وتحركها قيم الإسلام ، وتقودها أخلاق الإسلام ، وتضبطها تقاليد الإسلام ، وأخيراً تحكمها تشريعات الإسلام .

٢ - إن الشريعة لا يمكن أن تطبق تطبيقاً حقيقياً إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيتها ، ويتعبدون لله بتنفيذها ، وهذا يجعلهم يحرصون على فهمها فهماً دقيقاً ، وعلى فقه أحكامها ومقاصدها فقهاً عميقاً ، ويتفانون فى تذليل العقبات أمامها ، كما يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها ، وأسوة حسنة لغير المقتنعين بها ، يراهم الآخرون فى إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم ، فيحبون الشريعة لما يرون من أثرها فى حياتهم .

وهكذا كان الصحابة والمسلمون الأوائل - رضى الله عنهم - أحب الناس الإسلام بحبهم ، ودخلوا فيه أفواجاً ، متأثرين بأخلاقهم وإخلاصهم ، فقد كان كل منهم قرآناً حياً يسعى بين الناس على قدمين .

إن عيب كثير من التجارب المعاصرة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، التى كانت موضع المؤاخذة والتنديد من الناقدين والمراقبين : أنها نفذت بأيدى غير أهلها ، أعنى غير دعاتها ورعاتها . أى على أيدى أناس كانوا من قبل فى صف المناوئين لها ، أو على الأقل ، من الغافلين عنها ، غير المتحمسين لها .

إن الرسالات الكبيرة تحتاج إلى حراس أقوياء من رجالها وأنصارها يكونون هم المسؤولين الأوائل عن وضع قيمها وتعاليمها النظرية موضع

التنفيذ . وبغير هذا يكون التطبيق أمراً صورياً لا يغير الحياة من جذورها ، ولا ينفذ بالإصلاح إلى أعماقها .

٣ ـ إن تطبيق الشريعة ليس عمل الحكام وحدهم ، وإن كانوا هم أول من يطالب بها ، باعتبار ما فى أيديهم من سلطات تمكنهم من عمل الكثير من الأشياء التى لا يقدر عليها غيرهم ، وقد كان بعض السلف يقولون : لو كانت لنا دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان . فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

وهذا كان فى عصر لم يكن زمان التعليم والإعلام ، والتثقيف والتوجيه والترفيه بيد السلطان كما هو اليوم .

ومع هذا نقول : إن على الشعب مسؤولية تطبيق الشريعة فى كثير من الأمور التى لا تحتاج إلى سلطان الدولة وتدخل الحكام .

إن كثيراً من أحكام الحلال والحرام ، والأحكام التى تضبط علاقة الفرد بالفرد والفرد بالأسرة ، والفرد بالمجتمع ، قد أهملها المسلمون أو خالفوا فيها عن أمر الله ، وتعدوا حدود الله ، ولن يصلح حالهم إلا إذا وقفوا فيها عند حدود الله تعالى ، والتزموا بأمره ونهيه بوازع من أنفسهم ، وشعورهم برقابة ربهم عليهم .

ويجب على الدعاة والمفكرين والمربين أن يبذلوا جهودهم لتقوم الشعوب بواجبها فى تطبيق ما يخصها من شرع الله ، ولا يكون كل همها مطالبة الحكام بتطبيق الشريعة وكأنهم بمجرد أن يرفعوا أصواتهم بهذه المطالبة قد أدوا كل ما عليهم ! .

٤ ـ إن التدرج سنة من سنن الله فى خلقه ، وشرعه . فقد خلق الإنسان أطواراً ، علقة ، فمضغة ، فعظاماً .. الخ ، وخلق الدنيا فى ستة أيام ، الله أعلم بكل يوم منها كم هو ؟ .

كما أنه فرض الفرائض وحرم المحرمات ، وفق سنة التدرج مراعاة لضعف البشر ورحمة بهم .

والشريعة قد اكتملت بلا شك ، ولكن تطبيقها فى عصرنا يحتاج إلى تهيئة وإعداد لتحويل المجتمع إلى الالتزام الإسلامى الصحيح ، بعد عصر الاغتراب والتغريب . وقد تم بعض هذا فى بعض البلاد ، وبقى بعض ، وهو يحتاج إلى بذل الجهود ، لإزالة العوائق ، ومنع الهزات ، وإيجاد البدائل ،

وتربية المنفذين الذين يجمعون بين القوة والأمانة ، واجتماعهما فى الناس قليل ، طالما شكا منه الأقدمون حتى قال عمر : اللهم إنى أشكو إليك عجز الثقة وجلد الفاجر ! .

ولهذا لا مانع من التدرج فى التطبيق ، رعاية لحال الناس ، كما فعل عمر ابن عبد العزيز حين قال لابنه المتحمس الذى عاب عليه بطء التنفيذ : يا بنى إن الله ذم الخمر فى آيتين ، ثم حرمها فى الثالثة ، وإنى أخشى أن أحمل على الناس الحق جملة ، فيدعوه جملة ! يعنى أنه يريد أن يسقيهم الحق جرعة جرعة .

كل ما نؤكده هنا ألا يكون هذا مجرد تكأة لتأجيل العمل بالشريعة ، وتمويت الموضوع بمرور الزمن ، باسم التدرج والتهيئة .

ولهذا نطالب بوضع الخطة للإعداد والتغير ، تعليمياً وإعلامياً ، وثقافياً واجتماعياً ، بادئين بما لا يحتاج إلى تدرج ولا تهيئة ، وإنما يحتاج إلى صدق التوجه ، وصحة العزيمة ، وإذا صدق العزم وضح السبيل .

* *

● الإسلام ليس مادة هلامية :

ولقد أوهم بعض الذين كتبوا مشككين أو معارضين للدعوة إلى تطبيق الشريعة أوهموا أن الشريعة المدعو إلى تطبيقها مادة (هلامية) رجراجة غير محددة ولا منضبطة ، يستطيع كل حاكم أو كل فريق أن يفسرها كما يشاء .

حتى وجدنا من يقول : أى إسلام تدعوننا إليه ، وتطالبوننا بتحكيمه ؟ فقد رأينا الإسلام الذى ادعى بعض الحكام تطبيقه هو اليوم يختلف من بلد إلى آخر ، فهناك إسلام السودان ، وإسلام إيران ، وإسلام باكستان ، وإسلام ليبيا !! أو كما عبر أحدهم بصراحة : إسلام النميرى أم إسلام الخمينى أم إسلام ضياء الحق ، أم إسلام القذافى ؟ .

ونقول لهؤلاء : إن الإسلام هو الإسلام ، غير مضاف إلى أحد إلا إلى من شرعه أو من بلغه ، فهو إسلام القرآن والسنة ، ولا يرتبط باسم شخص إلا باسم محمد ﷺ الذى بعثه الله به بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

ومهما اختلفت التفسيرات أو اختلفت التطبيقات لشريعة الإسلام ، فستظل هناك دائرة غير ضيقة ولا هينة ، تمثل الوحدة الاعتقادية والفكرية

والشعورية والسلوكية للأمة . تلك هى دائرة (القطعيات) التى أجمعت عليها الأمة فكراً وعملاً ، ورسخت في عقولها وقلوبها وحياتها على امتداد القرون الأربعة عشر ، التى قطعتها هذه الأمة .

هناك قطعيات فى العقيدة والفكر .. وقطعيات فى العبادة والشعائر ، وقطعيات فى الشريعة والنظم .. وقطعيات في الأخلاق والآداب .. وكلها مما لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان كما يقولون .

وهذه القطعيات وحدها هى أساس التغيير ، ومحوره ، وهى التى تحدد الاتجاه والأهداف ، وترسم المنهج والطريق ، وتميز الملامح والقسمات .

وأما ما عدا القطعيات من أحكام وأنظمة ، فهو لم يترك لعبث الأهواء المتسلطة أوشطحات الأفكار الجامحة ، أو لاستبداد السلطات المتحكمة ، تفهمه كما تريد ، وتفسره كما يحلو لها ، دون أصل تستند إليه ، ولا برهان تعول عليه .

كلا ، بل هناك (أصول) و (قواعد) وضعها أئمة الإسلام للاستيثاق من ثبوت النص الشرعى أولاً ، ثم لفهم دلالته ثانياً ، ثم للاستنباط فيما لا نص فيه ثالثاً .

ومن ثم وجد علم أصول الفقه ، وقواعد الفقه ، وأصول الحديث ، وأصول التفسير ، ونحوها من المعينات اللازمة للفهم والاستنباط .

ولا بأس أن تتعدد المدارس في الفهم والاستنباط ، على أن يقوم ذلك على أصول منهجية علمية مبنية على الدليل ، لا على الهوى أو التقليد .

وربما كان هذا الخلاف مصدر إثراء الفكر الإسلامى ، وللعمل الإسلامى إذا وضع فى إطاره الصحيح .

* *

• البعد الحضارى :

أما الشعبة الخامسة ، فتتجه إلى الحياة كلها لترقى بها وتنقلها من البداوة والتخلف إلى الحضارة والتقدم ، وهذا هو (البعد الحضارى) .

والبعد الحضارى في الإسلام يعنى جملة أمور هى مقومات الحضارة :

أولاً : العلم : الذى هو أساس كل الحضارات ، وهو فى الإسلام يحتل

مكانة كبرى ، فطلبه فريضة ، والتفرغ له عبادة ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه قربة ، وهو مفتاح الإيمان ، ودليل العمل ، ونور الطريق ، وسبيل الجنة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) ، به يهتدى الضالون ، ويتفاضل المهتدون : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وإذا كانت بعض الأديان قد وقفت — أو وقف رجالها — موقف المعارضة أو التوجس من العلم . فالإسلام برىء من مثل هذه التهمة . فالعلم فيه دين ، والدين فيه علم ، وقد انطلق أشهر علمائه فى الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والجبر وغيره من الدين ، فكان خير دافع لهم إلى الإتقان ، وخير مانع لهم من الطغيان .

وحسبنا أن أول سورة نزلت فى قرآننا نوّهت بالقراءة وهى مفتاح العلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٣) .

وثانى سورة فى ترتيب نزول السور نوهت بـ (القلم) أداة تسجيل العلم ونقله من جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أمة . وهى التى يقول فيها القرآن : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٤) فأقسم الله فيها بالقلم ، وفى ذلك تشريف أى تشريف .

كما أشار القرآن إلى أن من أثر العلم : اختصار الزمن ، وطى المسافات ، وتقريب البعيد ، كما فى قصة سليمان مع عرش بلقيس ، حيث استطاع ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٥) . أن يحضر العرش فى لمح البصر ، وهو ما عجز عنه عفريت الجن ، مما دلنا على أن الإنسان بقوة العلم يستطيع أن يتفوق على قوة الجن ، برغم ما أوتوا من قدرات وطاقات .

ثانياً : عمارة الأرض : بكل ما تحمله كلمة (العمارة) من معان ويدخل فيها الزراعة والغرس والبناء والصناعات المختلفة ، التى اعتبر فقهاء الإسلام تعلمها وإتقانها فرض كفاية على المسلمين ، على معنى أنهم يسألون عنها مسؤولية تضامنية ، فإذا وجد فى بلد من يكفى لتغطية حاجاته ، وسد

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٩ .
(٣) سورة العلق : الآية ١ .
(٤) سورة القلم : الآية ١ .
(٥) سورة النمل : الآية ٤٠ .

ثغراته بحيث يكتفى المجتمع المسلم بأبنائه اكتفاء ذاتياً ، لا يجعله عالة على غيره ، فقد سلم المجتمع كله من الإثم والحرج ، وإلا أثم الجميع ، كل على قدر ما أوتى من قدرة وسلطة . كما نشاهد ذلك اليوم فى مجتمعاتنا التى تعلن أن دينها الإسلام ، وكل منها يمد يده إلى الغير يستورد منه السلاح الذى يدافع به عن كيانه ، أو يشـــترى منه الطعام الذى هو قــوت يومــه ، أو يطلب منه (التكنولوجيا) التى لا تستقيم حياة معاصرة بدونها .

فلو كف ذلك الغير يده – لسبب أو لآخر – فلم يمد ذلك المجتمع المسلم بالسلاح أو الغذاء ، أو الآلات ، لهلك بالهزيمة أو الجوع أو التخلف ! .

لست فى حاجة إلى أن أذكر الأدلة على عناية الإسلام بعمارة الأرض ، فما أحسب مسلماً له أدنى قراءة فى المصادر الإسلامية يجهل هذا . وأكتفى هنا بما ذكره الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم (الذريعة إلى مكارم الشريعة) حيث اعتبر (العمارة) أحد المقاصد الأساسية من خلق الله للإنسان كالعبادة والخلافة . يقول فى ذلك :

« إن كل نوع أوجده الله تعالى فى هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه ، فإنه أوجد لفعل يختص به ، ولولاه لما وجد ، وله غرض لأجله خص بما خص به ، فالبعير إنما خص ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس ، والفرَس ليكون لنا جناحاً نطير به ، والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما ، والباب لنحرز به البيت . والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء :

١ – عمارة الأرض المذكــورة فى قــوله تعالـــى : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [١] ، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره .

٢ – وعبادته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٢] . وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه .

٣ – وخلافته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [٣] ، وغيرها من الآيات [٤] .

---

(١) سورة هود : الآية ٦١ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٩ .

(٤) انظر : الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ، تحقيق د . أبو اليزيد العجمى – نشر دار الصحوة بالقاهرة .

ومن هنا يكون كل عمل لتنمية المجتمع وزيادة إنتاجه عبادة وقربة إلى الله ، فمن زرع زرعاً أو غرس غرساً ، فله بكل ما يؤكل منه صدقه ما ظل الناس ينتفعون به .

وكل عمل يؤديه المسلم بإتقان ، يجعله أهلاً لمحبة الله تعالى ومن أحبه الله كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وأى مسلم لا يعرف هذا الحديث : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » (رواه البيهقى وهو حسن) .

بل إن الإتقان - أو الإحسان - للعمل ليعد فى نظر الإسلام فريضة مكتوبة على المسلم كما كتب عليه الصلاة والصيام « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » (رواه مسلم) .

وإن أمة لديها مثل هذه التعاليم لا ترضى أن تعيش فى دائرة التخلف فترى غيرها يتقدم وهى فى ذيل القافلة ، وكان ينبغى أن تكون فى مأخذ الزمام ، وقد بوأها الله مكانة الشهادة على الأمم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ثالثاً : المال : باعتبار المال نعمة ، يجب المحافظة عليها ، والقيام بشكرها ، وقد سماه القرآن خيراً فى آيات كثيرة ، كقوله عن الإنسان : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

فينبغى للمسلم أن يسعى فى كسب المال من حله ، وإنفاقه فى محله ، وعدم البخل به عن حقه . كما ينبغى أن يعمل على تنميته بعد كسبه .

والقرآن يعتبر المال قواماً لحياة الناس ، ولهذا نهى عن تمكين السفهاء من المال . ولو كان مالهم حسبما تنص عقود الملكية .. لأنه فى النهاية مال المجتمع ، وثروة الأمة : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٣) .

وإذا كانوا ينقلون عن المسيح عليه السلام قوله : إن الغنى لا يدخل

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٢) سورة العاديات : الآية ٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥ .

ملكوت السموات حتى يدخل الجمل فى سم الخياط ! فالمسلمون نقلوا عن نبيهم قوله : « نعم المال الصالح للمرء الصالح » . كما نقلوا من أحاديثه ما يشير إلى أن الغنى الشاكر أفضل درجة من الفقير الصابر ، لأنه يستطيع بالمال أن يتصدق ويعتق وينفق فى سبيل الله . ويجاهد بماله ، مالا يستطيعه الفقير ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذا نقلوا عن المسيح قوله لمن أراد أن يدخل فى دينه : « اذهب فبع مالك واتبعنى » فقد نقلنا نحن عن رسولنا أنه دعا لخادمه أنس بن مالك — فيما دعا له — أن يكثر الله ماله . وقال : « ما نفعى مال كمال أبى بكر » .

رابعاً : **الصحة** : فتكاليف الدين وأعباء الدنيا ، لا يقوم بها المرضى والضعفاء إنما يقوم بها الأصحاء الأقوياء . والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

ولأول مرة يسمع الناس من دين أن المحافظة على الجسم واجب ، وأن حرمانه من حقه فى الراحة أو الطعام والشراب غير جائز ، ولو كان ذلك فى سبيل المبالغة فى التعبد . وهذا ما جعل الرسول الكريم يقول لمن وجد لديهم النزعة إلى إرهاق البدن لتصفو الروح : « إن لبدنك عليك حقاً » . وهو يحرم أشد تحريم المسكرات والمخدرات . حفاظاً على صحة البدن والعقل معاً ، ويلعن كل من ساهم فى ذلك من قريب أو بعيد .

ونراه يعنى بالوقاية قبل العلاج ، فيحظر البول والتغوط فى الطريق والظل والماء ، ويعتبر ذلك من أسباب اللعنة على من فعله .

ونراه يقر سنة الله فى العدوى ، وإن كانت الأشياء لا تعدى بذاتها ، بل بمشيئة الله تعالى ، فيقول : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » بل يقرها فى الحيوانات فيقول : « لا يوردن ممرض على مصح » والممرض صاحب الإبل المراض بالجرب ونحوه ، والمصح صاحب الإبل الصحاح ، فلا يجوز أن يخلط الأول إبله بإبل الثانى ، فيعديها .

ونراه يقر بمبدأ العزل الصحى فى حالات الوباء ، كما فى حديث : « إذا دخل الطاعون فى بلد وأنتم فيه فلا تخرجوا منه ، وإذا كنتم خارجه فلا تدخلوا فيه » .

وهو بعد ذلك يأمر بالتداوى « فإن الذى خلق الداء خلق الدواء » أخذاً

بما أقام الله عليه الكون من أسباب تفضى إلى مسبباتها بقدر الله تعالى ، فالتداوى ليس معارضة للقدر ، بل هو دفع للقدر بالقدر .

وقد سئل النبى ﷺ : « أرأيت أدوية نتداوى بها ، وتقاه نتقيها . . هل ترد من قدر الله شيء ؟ » قال : « هى من قدر الله » .

فالمرض من قدر الله ، والدواء من قدر الله ، والمؤمن يدفع قدراً بقدر ، كما يفر من قدر إلى قدر ، كما قال عمر : « نفر من قدر الله إلى قدر الله ! » .

وقد فتح النبى ﷺ أبواب الأمل أمام الأطباء والمرضى ، حين قال : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه وجهله من جهله » .

وهذا يدل على أنه ليس هناك مرض يستعصى على الشفاء ، وفق سنة الله إلا ما استثناه الحديث وهو (الهرم) . والمطلوب إذن هو : المزيد من البحث ، ومقاومة اليأس .

خامساً : الاستمتاع بالطيبات والزينة : فليس الإسلام كالأديان والفلسفات التى بالغت فى التنفير من الدنيا ، والتزهيد فى طيبات الحياة وزينتها ، وجعلت الاستمتاع بها يبعد عن الله ، ويقرب من الشيطان ، وقست على الجسم من أجل ارتقاء الروح ، حتى اعتبر بعضها القذارة عبادة ، والنظافة رجساً من عمل إبليس اللعين ! .

أجل ، الإسلام ليس كبوذية الهند ، ولا مانوية فارس ، ولا رواقية الإغريق ، ولا رهبانية النصارى ، ولا غيرهم .

إنما هو دين الحياة ، جاء يحل للناس الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، وينكر أشد الإنكار على الذين حرموا على الناس طيبات ما أحل الله ، ويقول فى ذلك كتاب الإسلام : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) .

ويعتبر القرآن طيبات الرزق من مظاهر ربوبية الله تعالى ، ودلائل قدرته ورحمته :﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

كما اعتبر القرآن ذلك من دلائل تكريم الله لبنى الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢) .

وما كان الله ليمن على الناس بخلق الطيبات وجعلها من رزقهم ثم يحرمها بعد ذلك عليهم ! .

ويدخل فى إطار هذه الطيبات :

(أ) طيبات المأكل والمشرب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

(ب) طيبات الملبس والزينة : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (٤) .

(جـ) طيبات المركـب : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَالا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

(د) طيبات المسكن : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِنَ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾(٦) .
وفى الحديث (ثلاث من السعادة) . وعد منها : « المسكن الصالح » ومن دعائه ﷺ : « اللهم وسع لى فى دارى » .

(هـ) طيبات الاستمتاع بالجنس الحلال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ (٧) .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُم لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة غافر : الآية ٦٤ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .
(٣) سورة المائدة : الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٦ .
(٥) سورةالنحل : الآية ٨ .
(٦) سورة النحل : الآية ٨٠ .
(٧) سورة البقرة : الآية ٢٢٣ .
(٨) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(و) **طيبات اللهو والترفيه** : فإن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، ولهذا تحتاج إلى الترويح بشيء من اللهو ، ليقويها على الجد ، وتقدر به على مواصلة المسيرة ، فإن القلب إذا أكره عمى .

ويتأكد مشروعية اللهو فى المناسبات السارة كالأعياد والأعراس ، حتى أن النبى ﷺ أذن للحبشة أن يلهوا بحرابهم فى مسجده الشريف فى يوم عيد ، حتى تعلم اليهود أن فى ديننا فسحة وأنه بعث بحنيفية سمحة .

وحتى أنه عليه الصلاة والسلام أنكر أن تزف العروس بلا لهو ولا غناء يشيع البهجة والسرور ، ويوسع قاعدة الإعلان عن الحدث السعيد .

* * *

الصحوة .. وهموم الوطن العربى والإسلامى

نظرة شاملة

● كثرة همومنا :

أما الصحوة الإسلامية فقد عرفناها :

وأما (هموم الوطن العربى) فهى تذكرني بقول الشاعر :

ولو كان همًا واحدًا لاحتملته   ولكنه هم وثان وثالث !

وإذا ناء شاعرنا بهموم ثلاثة ، فكيف إذا كانت همومنا لا تعد بالآحاد ، بل بالعشرات والمئات ؟! وغدونا ونشيدنا المفضل يتمثل فى قول أبى الطيّب :

رماني الـــدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبـــال

فصرت إذا أصــابتنى سهام   تكسرت النصال على النصال

ومع تكاثر همومنا وأرزائنا ، وتزاحم السهام التى تتناوشنا ، لا يجوز أن نستسلم للأمر الواقع ، ولا ينبغي لنا أن نيأس من العلاج ، وقد تعلمنا من نبينا- كما تعلمنـا من سنن الله فى الكون - أن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، وهذا يصدق على الأدواء الاجتماعية والمعنوية كما يصدق على الأدواء الفردية والمادية .

المهم أن نلتمس الشفاء ، ولا نسكت على المرض ، وأن نلتمسه ممن يعلمه ، حتى لا نعالج داء بداء مثله أو أشد منه خطرًا ، ومن قواعدنا الفقهية الشهيرة : إن الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه ، وشاعرنا العربى يقول :

إذا استشفيت من داء بداء   فاقتل ما أعلك ما شفاك !

ولا يتم هذا إلا إذا أحسنا تشخيص الداء ، وعرفنا أسبابه الحقيقية ، وأردنا علاجه بصدق ، وأن يكون العلاج استئصالاً للمرض ، وليس مجرد أقراص تسكن الألم إلى حين ، أو مراهم تداوى السطح ، ولا تنفذ إلى ما وراء ذلك من الأسباب الأساسية الباطنة .

* * *

● أصول همومنا سبعة :

إن همومنا التى نشكو منها كثيرة كثيرة ، ولكن أصـولها يمكن أن تتركز فى عدد محدود ينبغي أن نتفـق عليه ، فما هى أصـول هذه الهموم؟

فى ندوة (التراث وتحديات العصر) التى أقامها مركز دراسات الوحدة

العربية بالقاهرة ، فى صيف سنة ١٩٨٥ م حدد د . سعد الدين إبراهيم التحديات فى أربعة أمور ، أطلق عليها رابوع التخلف والاستغلال والاستبداد والتبعية .

وأنا أضيف إلى هذا الرابوع ثالوثًا آخر ، يتمثل فى التخاذل والتمزق والتسيب لتصبح الهموم سبعة كاملة ، أسردها فيما يلى :

١ - **هم التخلف المزرى** ، الذى يجب أن نتحرر منه سعيًا إلى التقدم والتنمية .

٢ - **هم الاستغلال أو التظالم الاجتماعى** ، الذى تئن تحت أثقاله الفئات الضعيفة والكادحة وواجب المسارعة إلى علاجه تحقيقًا للعدالة الاجتماعية .

٣ - **هم الاستبداد والطغيان الداخلى** ، الذى أصبح شرًا من الاستعمار الخارجى ، ووجوب مقاومته ، سعيًا إلى الحرية والشورى .

٤ - **هم التغريب والتبعية الفكرية والاجتماعية والتشريعية** وواجب التحرر منها بحثًا عن الاستقلال والأصالة .

٥ - **هم التخاذل المذل** أمام العدوان الصهيونى المتغطرس الذى يجب أن نتجاوزه سعيًا إلى النصر والتحرير .

٦ - **هم التفتت أو التمزق المخزى** الذى فرق الوطن الواحد ، والشعب الواحد ، إلى أوطان وشعوب متجافية ، بل متعادية ، وهو ما يجب أن نتخلص منه طلبًا للوحدة والتضامن .

٧ - **هم التحلل والتسيب الخلقى** ، الذى عشش فى وطننا الكبير ، بمختلف صوره ، والذى يجب أن نتطهر منه سعيًا إلي التماسك والاستقامة .

فكيف تنظر الصحوة الإسلامية إلى هذه الهموم ؟ وإلى أى حد تهتم بها وتسعى إلى علاجها ؟ وما نوع العلاج أو الحل الذى تقدمه فى سبيلها ؟

* *

● النظرات المرفوضة لتشخيص أدوائنا :

إن للصحوة الإسلامية نظرة خاصة فى تشخيص أدوائنا ، ووصف العلاج

لها ، وهى نظرة تتسم بالشمول والعمق . وهى ترى أن الخطأ أو الخطر فى علاجنا لأوصاب وطننا العربى والإسلامى يكمن فى فقدان النظرة الشمولية العميقة لهمومنا ويتمثل ذلك فيما يلى :

* *

١ - النظرة الجزئية :

يتمثل الخطأ والخطر فى (النظرة الجزئية) التى تفصل أجزاء الكل بعضها عن بعض ، وتنظر إلى كل أمر منفصلاً عن غيره فهى تنظر إلى الاقتصاد منفصلاً عن السياسة ، أو إلى التشريع معزولاً عن التربية أو إلى المجتمع بعيداً عن الفرد .

والواقع يقول : إن الحياة كلها نسيج واحد متصل اللحمة بالسدى ، لا ينفصل فيها جانب عن جانب ، إلا من باب التجريد الذهنى ، والتقسيم النظرى .

ولقد قال أحد السياسيين بحق : « إن الاقتصاد أعظم خطراً من أن يترك للاقتصاديين وحدهم ! وهذا ما يقوله الاقتصادى أيضًا : إن السياسة أخطر من أن تترك خالصة للسياسيين » . وهو ما يمكن أن يقوله السياسى والاقتصادى عن التربية مثلاً : إنها أعظم وأخطر من أن تترك للتربويين وحدهم .

ذلك أن كل واحد من هذه الجوانب يؤثر فى الجوانب الأخرى سلبًا أو إيجابًا ، ولا يسوغ بحال أن يستقل منها بالعمل وحده ، دون أى صلة بالمجالات الأخرى فلا تعاون ولا تنسيق .

ومنذ سنوات قريبة عقد مكتب التربية العربى لدول الخليج ندوة مهمة موضوعها : (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين ؟) ظهرت بحوثها فى عدة أجزاء .

ومن الواضح أن التربويين يريدون من الإعلاميين ألا تهدم الأجهزة الإعلامية فى الليل ما تشيده المؤسسات التربوية فى النهار . وأن يتعاون الفريقان على بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح .

ولا شك أن للتربويين مطالب من السياسيين والاجتماعيين والعلميين والمهنيين وكل الفئات ، مثل ما طالبوا الإعلاميين .

كما أن للفئات الأخرى مطالب عند التربويين أيضًا . فإذا أردنا التغيير

والإصلاح حقًا فلننظر : ماذا تريد شرائح المجتمع وفئاته المختلفة بعضها من بعض؟

لهذا تحاول الأيديولوجيات الثورية دائمًا أن تسيطر على الحياة كل الحياة لتوجهها جميعًا ، وتؤثر فيها جميعًا وفق فكرتها ، وإلا فإن الإعلام قد يهدم ما تبنيه التربية ، والمدرسة قد تنقض ما يشيده المسجد ، والسياسة قد تهدم ما يبنيه كل هؤلاء ، فإذا لم تكن هناك نظرة متكاملة لحياة المجتمع وأهدافه ، وقيمه العليا ومصالحه الكبرى ، ومحاولة التنسيق بين مختلف المؤسسات والأجهزة ، فإن جهود البناء والتعمير ستضيع سدى ، وتذهب جفاء ، ما دامت معاول الهدم تعمل في الجانب الآخر ، أو الجوانب الأخرى ، وهو ما شكا منه الشاعر قديمًا بقوله :

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟!

* *

٢ - فى النظرة السطحية :

ويتمثل الخطأ والخطر أيضًا فى (النظرة السطحية) التى لا تنفذ إلى الأعماق . وأبرز ما يمثل هذه النظرة اعتقادنا أن همومنا ومشكلاتنا مادية محض ، وأننا نستطيع أن نعالج الماديات بعيدًا عن المعنويات ، وأن حديث الإيمان والأخلاق ، يجب أن يطرح جانبًا إذا تحدثنا عن مشكلات السياسة أو معضلات الاقتصاد ، أو مصائب التخلف ، وطموحات التنمية ، فلا يصلح لرجال الاقتصاد ، وزعماء السياسة وخبراء التنمية ، أن يتحولوا إلى (دراويش) يتحدثون عن الدين والقيم والفضائل والأتون مستعر الأوار حول غول الديون ، وشبح الجوع ، وخطر العدو ، وفساد مرافق الحياة ! .

ومن السطحية أيضًا أن نحسب أننا بمجرد أن ننادى بالإسلام شعارًا ، أو نغير مواد القانون الوضعية بمواد إسلامية ، يطلع علينا الصباح ، وقد حلت كل مشكلاتنا وشفينا من كل أدوائنا ، غافلين أن لله فى خلقه سننًا لا تحابى ولا تلين ، منها : أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن التغيير يحتاج إلى عمل طويل النفس ، وتوجيه متعدد الجوانب متنوع الوسائل ، وتربية عميقة الجذور ، مديدة المراحل ، وأن الإصلاح يحتاج إلي تخطيط مدروس ورؤية واضحة للأوجاع وأسبابها وإعداد للمستقبل فى ضوء الاستفادة

من دروس الماضي وإمكانات الحاضر ، كما يحتاج الإصلاح إلى رجال يجمعون بين القوة والأمانة ، يقودون سفينة التغيير إلى بر الأمان .

إن كثيراً من المتدينين - بل من الدعاة الدينيين أنفسهم - يقرؤون بعض الآيات من القرآن الكريم ، ويفهمونها فهماً مغلوطًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(١)، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾(٢)، وقوله : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(٤) ، فهم يحسبون الإيمان والتقوى والاستقامة والصلاح مجرد أداء الشعائر،والإكثار من التسبيح والتهليل والتكبير، والامتناع عن المحرمات المعروفة من الزنى والسكر ، وأكل لحم الخنزير ونحوها .. مع تغييب العقل ، وإهمال العلم ، وإغفال العمل ، ومجافاة السنن، وانتظار البركة من السماء ، والسماء - كما قال عمر ﷺ - لا تمطر ذهبًا ولا فضة .

ولو رجعوا إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل الذين أورثهم الله الأرض ، ومكن لهم فيها ، وجعلهم أئمة ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، لعرفوا أنهم لم يحققوا ذلك بالجهد ، والعرق ، والعلم والفكر الدؤوب ، والجهاد الصبور ، وهكذا فهموا الإيمان والتقى والاستقامة والصلاح ، فمزجوا بين الروح والمادة ، ووازنوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وجمعوا بين حظ النفس من الحياة ، وحق الرب في العبادة ، فخدموا الدين بالدنيا ، وأصلحوا الدنيا بالدين ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾(٥) .

* *

---

(١) سورة الأعراف : آية ٩٦ .
(٢) سورة الطلاق : آية ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الجن : آية ١٦ .
(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠٥ .
(٥) سورة آل عمران : آية ١٤٨ .

٣ - النظرة القطرية (الإقليمية) :

ويتمثل الخطأ فى النظرة الإقليمية التى يقول كل قطر أو كل إقليم فيها : نفسى نفسى ، أو بلدى أولاً ، ويتوهم أنه يستطيع أن ينجو بنفسه لو عاش وحده ، وانعزل فى دائرة حدوده ، حتى لا يحمل هموم الأشقاء من إخوانه ، ولا يعنّى نفسه بالإسهام فى حل مشكلاتها .

إنها الأنانية الحمقاء التى نراها فى عضو الأسرة ، الذى يهجر أهله ، ويقطع رحمه ، ليعيش وحده مستأثراً بما لديه من نعمة وثروة ، وينسى أنه عند الشدائد لا ينجده ولا يحميه إلا أهله ، إن الفرد بمفرده ضعيف ، والقطر بمفرده أيضاً ضعيف .

وهيهات هيهات أن يستطيع قطر واحد - مهما بلغ حجمه أو غناه - النجاة وحده والوصول وحده ، فى عصر التكتلات الكبيرة ، التى لا مكان فيها للصغير إلا أن يكون مكان الذيل من الرأس ، أو العبد التابع من السيد المتبوع .

إن الإسلام يؤكد دائمًا أن يد الإسلام مع الجماعة ، وأن الخير فى الاجتماع والاتحاد ، وأن الشر فى الفرقة والشذوذ ، وأن الذئب « إنما يأكل من الغنم القاصية » وأن « لا صلاة لمنفرد خلف الصف » . وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1] .

* *

٤ - النظرة الآنية :

ويتمثل الخطأ كذلك فى (النظرة الآنية) العاجلة القصيرة النظر ، التى تعنى بهموم الحاضر فى غفلة عن المستقبل ، كأن المهم عندها أن تتخفف من عبء هذه الهموم التى يؤودها حملها ، ولا عليها إذا ألقت الحمل من فوق كاهلها ليحمله الجيل التالى ، أو الأجيال التالية ، أضعافًا مضاعفة .

فهى فى الواقع نظرة موغلة فى الأنانية ، لا تليق بنظرة الأبوة الحانية ، التى تجعل الأب يشد الحجر على بطنه من الطوى ،ليوفر اللقمة لولده وفلذة كبده .

ولهذا كان من العيب كل العيب على هذا الجيل أن يأكل رزق الأجيال

---

(١) الصف : آية ٤ .

القادمة مما أفاء الله به من النفط وغيره من المعادن ، أو مصادر الرزق الموقوتة بزمن يقصر أو يطول ، لكنه محدود .

كما لا يجوز له أن يتوسع في الاستهلاك ، ويستقرض المليارات بالربا الماحق الممحوق ، ليحمّل أعباء هذه الديون للأجيال التي لم تطرق بعد أبواب الحياة .

قد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه ، قوله : لا يعجبني الرجل يأكل رزق أيام في يوم واحد !

يعيب الصدّيق — بقوله هذا — الرجل المتلاف الذي يسرف في النفقة ، ويتوسع في الاستمتاع ، حتى يستهلك في يوم واحد ، ما كان يمكن أن يكفيه أياماً ، وقد يعتريه بعد السعة ضيق ، فيندم على سرفه فيما فات ، ولات ساعة مندم .

وإذا كان هذا معيباً في شأن الفرد ، فهو أشد عيباً في شأن المجتمع ، حين يأكل رزق أجيال في جيل واحد ، كالأب المسرف الذي ينفق كل ثروته في حياته ، ويدع ورثته من بعده ، ولا مورد لهم ، يقيهم هوان العيش ، وذل السؤال ، وهو ما منعه النبي ﷺ ، حين نهى سعد بن أبي وقاص ، أن يوصي بماله كله أو ثلثيه أو نصفه — وهي وصية في البر والخير — ولم يأذن له بأكثر من الثلث ، قال : « والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » متفق عليه .

إن عقلية (أحيني اليوم ، وأمتني غداً) عقلية متخلفة ، يرفضها المنطق ، ويرفضها الخلق ، ويرفضها الإسلام) .

* *

٥ — النظرة التلفيقية :

ومثل ذلك في الخطأ (النظرة التلفيقية) التي تحاول أن تجمع بين فلسفات وأفكار متنافرة الأصول ، متباينة الغايات ، متعارضة المناهج ، مثل الجمع بين الإسلام والعلمانية ، أو الإسلام والماركسية ، أو الإسلام والرأسمالية ، أو بين الحضارة الإسلامية عموماً ، والحضارة الغربية ، فلا يكون ذلك إلا ضرباً من إضاعة الوقت والجهد ، أو العبث بعقول الناس والتدليس عليهم . سرعان ما ينكشف زيفه .

وقد رأينا فى تراثنا محاولات تلفيقية باءت بالفشل ، مثل محاولات (إخوان الصفا) فى التلفيق بين الدين والفلسفة .

وكثير من النظرات التى نسميها (توفيقية) هى فى حقيقتها (تلفيقية) ولهذا كان نصيبها الإخفاق أيضاً ، مثل محاولات الفارابى وابن سينا — وبعدهما ابن رشد — فى التوفيق بين عقائد الإسلام الثابتة وأفكار أرسطو عن الإله والكون والوجود .

بل حاول الفارابى أن يوفق أو يلفق بين رأيى الحكيمين ، يعنى الفيلسوفين الكبيرين : أفلاطون وأرسطو — رغم اختلافهما المعروف فى المنهج والنظرة — بدعوى أن الحقيقة واحدة لا تختلف ، ووحدة الحقيقة أمر مسلم به، ولكن أفكار الباحثين عنها ليست واحدة ، ولا يمكن أن يكون الشىء وضده واحداً .

أما الذى نؤمن به فهو (الاقتباس) و(التطعيم) على أن يظل الأصل غالباً متميزاً . وفرق بين هذا الاتجاه (الاقتباس والتطعيم) وبين اتجاه التوفيق أو التلفيق : أن التطعيم يقتضى أن هناك شيئاً أصيلاً قائماً بذاته ، له جذوره وامتداده وكيانه وخصوصيته ، يطعم بشىء آخر من جنس مقارب له ، ولكن لا يلغيه ولا يغير طبيعته وخصائصه ، أما التوفيق أو التلفيق فيقتضى المعادلة بين طرفين كل منهما أصل بذاته . ولهذا يتعلقان (الاقتباس والتطعيم) بالوسائل لا بالأهداف ، وبالفروع لا بالأصول ، وبالكيفيات المتغيرة لا بالقيم الثابتة .

وقد رأينا مثل الغزالى والراغب الأصبهانى وغيرهما من المفكرين المسلمين يستفيدون من الفلسفة اليونانية كثيراً من تقسيماتها وتحليلاتها ومصطلحاتها ، ولكنهم جعلوا ذلك فى خدمة الفكرة الإسلامية ، والقيم الإسلامية .

على أن أعظم ما فى الحضارة الغربية أمران : العلم التجريبى ، والديمقراطية السياسية .

أما العلم فهو فى الأصل مقتبس من حضارتنا كما شهد بذلك شهود من أهلها (بريفولت ، وجورج سارتون ، وجوستاف لوبون وغيرهم) . فإذا أخذناه فهى بضاعتنا ترد إلينا .

وأما الديمقراطية السياسية ، فأصولها عندنا في البيعة والشورى ، وحق المسلم بل واجبه ، في النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقرير مبدأ المساواة والإخاء بين الناس ، الذين خلقهم الله من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا .

وعلى كل حال ، فإن أخذ النافع ، واقتباس الحكمة من أى وعاء خرجت، أمر لا مراء فيه ، وقد روى البخارى في صحيحه عن النبى ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كلّ شيء ، ما خلا الله باطل » وكان لبيد حين قالها من شعراء الجاهلية .

* *

٦ - النظرة التبريرية :

ونعنى بها تلك النظرة التى تقوم على تبرير الواقع القائم ، وهو واقع لم نصنعه نحن ، ولم نفكر فيه ، إنما صنع لنا ، وفرض علينا ، دون اختيار منا ، ولا اعتبار لرأينا ، ولا استشارة لنا .

والذى فرض هذا الواقع هو الاستعمار الذي رأى وقرر ، وصمم ونفذ ، كما فعل ذلك حين قرر إدخال القوانين الوضعية ، وألغى الشريعة الإسلامية ، وعمل بدهاء وتخطيط على (علمنة) الأفكار والمشاعر والتقاليد ، والمؤسسات المختلفة إلى جوار علمنة التشريع .

هذا الواقع الذى ورثناه عن عهد الاستعمار ، نجده فى جوانب كثيرة مناقضاً لأصولنا الإسلامية ، ومواريثنا الثقافية ، ومع هذا يحاول فريق منا أن يمنح هذه الجوانب الدخيلة علينا ، سنداً شرعياً للاستمرار والبقاء ، وهى زنيمة مقطوعة النسب عن أمتنا وحضارتنا ، أى أنهم يريدون أن يخلعوا عن رأس (الخواجة) الأوروبى (قبعته) ويلبسوه (عمامة) إسلامية ! أو (عباءة) عربية !

وما أكثر ما قرأت ، وسمعت من كتابات ومحاضرات ، تركب الصعب والذلول لتفلسف هذا الواقع ، وتبرره دون حجة ناهضة .

وأسخف هذه التبريرات ما حاول أن يستخدم الإسلام نفسه فى تبرير ما يناقض الإسلام ! وذلك فى فترات الهزيمة النفسية أمام زحف الحضارة الغربية ، وهى فى أوج قوتها ونحن فى حضيض ضعفنا ، حتى رأينا من يحاول تحليل

الحرام ، وإسقاط الفرائض وتعطيل الشريعة ، باسم الشريعة ذاتها ، حتى حاول هذا التيار يوماً أن يقتحم (الأزهر) نفسه على يد الشيخ على عبد الرازق فى كتيبه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) ، ولكن الأزهر غضب غضبته التاريخية وأخرجه من زمرة العلماء .

إن رفض الإسلام علانية أقرب إلى الجدية من هذا الهزل الذى يلبس لبوس الجد ، وما هو إلا تبرير مكشوف القناع لواقع مرفوض رفضاً كلياً من جمهور الأمة .

* *

النظرة الشمولية للصحوة :

إن الصحوة الإسلامية تنظر إلى هموم الوطن العربى الإسلامى ، نظرة شاملة تتسم بالأصالة والعمق والتميز ، ممتدة فى الماضى ، واعية للحاضر ، متطلعة إلى المستقبل ، وهى تقدم نظرتها لإنقاذ الوطن العربى الإسلامى فى صورة مشروع إحياء متكامل ، يعيد إلى الفرد الثقة والأمل ، وإلى الأمة هويتها وانتماءها ، ويقودها فى طريق الاستقلال الحضارى والتميز الثقافى ، يجمع بين الإيمان الراسخ والعلم المتجدد ، . يرحب بالجديد النافع والقديم الصالح ، تعمل فيه التربية بجانب التشريع ، ويتكامل فيه الجامع والجامعة ، ويلتحم فيه الحاكم بالشعب ، ويتضامن فيه العرب بعضهم وبعض ويربط العرب بالأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط ، مشروع يتخذ الإسلام أساساً والإيمان منطلقاً ، والأخلاق ضرورة ، ويعتبر العلم عبادة ، والعمل فريضة ، والتنمية جهاداً فى سبيل الله ويعبئ قوى الأمة لمعركة التنمية بكل جوانبها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ويعمل على زيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك وعدالة التوزيع وسلامة التداول ، ويأخذ من الحضارة الحديثة أفضل ما عندها من العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم ، متجنباً ما أصابها من الوهن والانحلال فى نواحيها الإيمانية والأخلاقية والإنسانية ، مما هو أصيل فيها ، ومما هو طارئ عليها ، مستغنياً بما عندنا عما عندها ، رافضاً نمط حياتها فى الاستمتاع والاستهلاك ، سالكاً سبيل القناعة والاعتدال ، مؤمناً بأن للحياة غايات أكبر من مجرد المتعة والجرى وراء المنافع المادية واللذات العاجلة ، فى ظل تشريع ربانى . تؤمن الأمة بعدالته وقدسيته وكماله وسموه ، وتنقاد لأحكامه طواعية

واختياراً ، بحكم إيمانها ، تشريع يجمع بين المثالية والواقعية ، وبين الفردية والجماعية ، وبين الثبات والمرونة ، وبين الأصالة والتجديد .

مشروع يقوم على تحريك شعوبنا كلها لتتعبد لله بالعمل ، وتفجير طاقاتها المخزونة للإبداع والإتقان ، في ظل حكومات شرعية دستورية منتخبة انتخاباً حراً نزيهاً وفي ظل نظام شورى (ديمقراطى) حقيقى يسود فيه القانون، ويحس كل فرد فيه بالأمان على نفسه وماله وأهله وحرماته ، ويشعر أنه حر يستطيع أن يقول (لا) بملء فيه ، دون خوف من سياط الجلادين وسجون المستبدين .. نظام يستطيع فيه الشعب أن يلتقى في المسجد مع حاكمه كل يوم - أو كل جمعة على الأقل - وأن يرد عليه ولو كان على المنبر ، وأن يقول له ما قيل لابن الخطاب : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا !

مشروع يستنفر الأمة لمقاومة الخطر الإسرائيلى ، والعدوان الصهيونى ، الذى اغتصب الأرض ، وشرد الأهل ، وأذل العرب ، وأهان المسلمين ، وتحدى العالم فلا بد من تعبئة أمة العرب والإسلام ، بإيمان جديد ، يرد إليها روح الحياة وحياة الروح ، ويذكرها بأيام خالد وقطز وصلاح الدين ، ويقودها بكلمة التوحيد وصيحة التكبير ، لا بالولاء لفلان وعلان من الناس .

ذلكم هو مشروع الصحوة للإنقاذ والإحياء ، وهو مشروع ليس بالمستحيل ولا بالمتعذر إذا صدقت النيات ، وصحت العزائم ، وفيه وحده النجاة والخلاص،﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وإني أؤكد بكل ثقة أننا لن يتم لنا استقلال حقيقى سياسى ، واقتصادى ، ولن نتحرر من التبعية بكل ألوانها ، ولن تستقل لنا شخصية ، ولن يتم لنا انبعاث حضارى حقيقى ، نابع منا ، ومعبر عنا ، منا مبدؤه ، وإلينا منتهاه ، وبنا قيامه ، ولنا ثمراته ، إذا ظللنا للغرب ذيولاً وظلالاً ، منه الإرسال ، ومنا الاستقبال ، منه الفعل ومنا الانفعال ، منه الإنتاج ومنا الاستهلاك ، عليه أن يبدع وعلينا أن نقلد ، عليه أن يغنى وعلينا أن نردد .

إذا ظللنا على هذا المنوال ، فهيهات أن ننشىء لنا حضارة تخصنا .

أغلب الظن أننا سنبقى أسارى لحضارة القوم ، يأخذون تمرها ، ويلقون لنا بنواها ، ويأكلون لحمها ، ويمنون علينا بعظمها .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠١

سنظل نستهلك أدوات الحضارة ولا ننتجها ، نشتريها ولا نصنعها ، سنظل نستورد من الغرب المواد الغذائية التي بها نقيم أودنا ، والأسلحة التي نحمي بها أوطاننا !

سيتفنن الغرب في استلاب الأموال التي أفاءها الله علينا ، حتى لا نبني بها شيئًا يغنينا عن الاستيراد ، وينفع أجيالنا التالية ، حتى يدعوا لنا ولا يلعنونا .

سيغرقوننا في دوامة استهلاكية لا تنتهي ، يأخذون المواد الخام من ديارنا بأرخص الأثمان ، ثم يعيدونها إلينا مصنعة يسيل إليها لعابنا ، فنشتريها منهم بأغلى الأثمان .

حتى ما ليس لنا حاجة إليه يلحون علينا بوسائلهم حتى يخلقوا عندنا حاجات تسوقنا إلى شراء منتجاتهم ، فنشتري ونشتري ونشتري ، حتى نغرق في بحر من الديون لا قرار له ، ولا شاطئ له .

إننا أحوج ما نكون إلى إنسان يستغني عما عند القوم من كماليات وتَرَفيات وترفيهيات ، إنسان قادر على ضبط نفسه بالقناعة ، والزهد ، وأن يعيش على نصف بطنه عند اللزوم ، بل يشد الحجر عليها عند الضرورة ، إنسان يقول ما قالت المرأة العربية قديمًا :

لبيت تخفق الأرياح فيه — أحب إلي من قصر منيف !
ولبس عباءة وتقر عيني — أحب إلي من لبس الشفوف !
وأكل كسيرة في قعر بيتي — أحب إلي من أكل الرغيف !

إننا نجد مثل هذا السلوك الآن حلمًا بعيد المنال ، ومثالاً مغرقًا في الخيال ، بل شيئًا قريبًا من المحال .

وما ذاك إلا لأن الناس أصبحوا عبيداً للعادات الاستهلاكية التي أدخلتها عليهم الحضارة الغربية بأساليبها الماكرة ، وإعلامها الساحر ، ووسائلها الجهنمية المخططة .

ولكن تغيير عادات الناس وسلوكياتهم ليس بالمستحيل ، إذا دخل على الناس إيمان جديد ، يقودهم من داخلهم ، ويخاطبهم من أعماقهم ، ويعينهم على تغيير أنفسهم بأنفسهم .

إن الإيمان الديني هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يغير الإنسان تغييراً

جذريًا ، وينشئه خلقًا آخر ، جديداً فى أهدافه ، جديداً فى اتجاهه ، جديداً فى منطقه ، جديداً فى أخلاقه ، جديداً فى أسلوبه .

ذكر القرآن لنا نموذجًا بارزًا لهذا التغيير الكلى السريع ، وهو سحرة فرعون حين أعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ، وقالوا لفرعون ومن معه : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

وذكر التاريخ لنا أعظم مثل لذلك أمة العرب ، كيف كانوا قبل الإسلام ، وكيف صاروا بعد الإسلام .

مر قائد من قواد الفرس على جماعة من جند المسلمين ، فرآهم - بعد أن توضؤوا وتطهروا - يصلون صفوفًا ، وراء إمامهم كالبنيان المرصوص ، كأن على رؤوسهم الطير ، إذا قرأ أنصتوا ، وإذا ركع ركعوا ، وإذا رفع رفعوا ، فقال : أكل كبدى عمر ، لقد علم هؤلاء البداة مكارم الأخلاق ! .

والحق أن الذى علمهم ، وعلم عمر معهم إنما هو الإسلام .

نحن فى حاجة إلى تربية الأمة على نمط حياة جديد ، مستمسد من قيمنا ، ومتلائم مع حاجاتنا ، ومتناسب مع إمكاناتنا ، ثائر على نمط الحياة الغربية ، حتى لا يعود تقليدها أكبر همه ، ولا مبلغ علمه ، ولا محور سعيه .

ويسرنى أن أسجل هنا بكل إعجاب كلمة للدكتور جلال أحمد أمين فى (ندوة التراث وتحديات العصر) قال فيها :

« إن إطلاق وصف التنمية على ما حدث وما زال يحدث للاقتصاد والمجتمع العربى لهو وصف أقرب إلى السخرية منه إلى وصف الواقع ، يراد بإطلاقه تسكين الناس وتخديرهم حتى يتمكن الجراح الغربى من إتمام مهمته . الدخل يبدو وكأنه يتعاظم والسلع تتكاثر ، والمدن تتضخم ، والمدارس تتضاعف ، والكبارى العلوية والأنفاق السفلية تبنى وتحفر ، والناس تتدافع فى الطرقات والشوارع والمواصلات العامة وكأنها ذاهبة أو عائدة من أعمالها ، والسفن تأتى بالبضائع وتذهب بغيرها والناس تهاجر وتأتى بالسلع ، والأمر يبدو وكأن تنمية تحدث ، والذي يحدث فى الواقع ليس أكثر من عبث الأجنبى بأمة لا تدرى ما تصنع !

---

(١) سورة طه : الآية ٧٢ .

فالعرب يبيعون رأسمالهم من النفط ويسمون ثمنه دخلاً قومياً ، أو يقبضون رسوماً على ما وهبه الله أو الأجداد لهم ، كقناة السويس والأهرامات وأبى الهول ، ويحسبونها فى عداد الناتج القومى ، ويبيعون الطاعة للأجنبى مقابل الهبات ، ويعقدون القروض لبناء الكبارى العلوية لكى تمر عليها سياراته ، أو لشراء الأسلحة منه ليقاتلوا بها أعداءه ، ويعلمون أبناءهم لغة الأجنبى ليخدموا فى بنوكه وشركاته ، أو يصدرونه للخارج ليشتروا بثمنه أجهزة تعرض فضائح الأجنبى وجرائمه وسخافاته . فإذا قلت لهم : حذار ، إن هذه التنمية معيبة ومشؤومة ، قالوا لك : ما عليك ، إن لدينا خطة خمسية سوف نتدارك بها الأمر ، وإذا بالمخططين يجتمعون لمناقشة ما إذا كان معدل النمو المستهدف يجب أن يكون ٧ بالمائة أو ٧٫٥ بالمائة ! فأى أمل يمكن أن يساورنا فى أن يؤدى الاستمرار فى تبنى المنطلقات والمسلمات نفسها إلى وضع أفضل مما نحن فيه ؟ إنما يكمن الأمل فى طرح كل مسلمات التنمية الغربية وبديهياتها للمساءلة والشك ، ولن نجد ما يمكن أن نستلهمه فى ذلك إلا التراث »[١] .

* * *

(١) التراث وتحديات العصر : ص ٧٧٠ ، ٧٧١ .

الصحوة .. وهموم الوطن العربى والإسلامى
تحليل وتفصيل

١ – هَمُّ التخلف

إن أول همومنا العربية والإسلامية ، الذى لا يختلف فيه.اثنان هو هم التخلف المزرى الذى ما زالت أمتنا ترزح تحت نيره الثقيل والذى صنف وطننا كله في دائرة ما سموه (العالم الثالث) أو (البلاد النامية) .

ونعنى بالتخلف : أننا لا زلنا عالة على غيرنا فى دنيا العلم التجريبى والتكنولوجيا الحديثة . حتى أن نصف ما نأكله أو أكثر لا نزرعه ، وجل ما نستعمله لا نصنعه !

وحتى السلاح الذى ندافع به عن أرضنا وعرضنا لم يزل صناعة أجنبية ، نستورده ولا ننشئه ! .

إن من المحزن حقًا ، أن تكون بلادنا زراعية ، ولا نحقق لأنفسنا الغذاء الكافى . وإن من المخجل أن مناطق من فلسطين ظلت بأيدينا زمنًا طويلاً صحراء قاحلة ، فلما استولت عليها إسرائيل حولتها إلى واحة خضراء !

أما تخلفنا الصناعى فحدث عنه ولا حرج . . نستورد فى كثير من بلادنا من الصاروخ إلى الإبرة مع أن فقهاء الإسلام اعتبروا إتقان كل علم أو مهنة ، أو صناعة يحتاج إليه المسلمون فرض كفاية . . كما اعتبروا ذلك عبادة وقربة إذا صحت فيه النية .

وهذا ما جعلنى أقول دائمًا : إن الأمة التى أنزل الله عليها (سورة الحديد) لم تتعلم صناعة الحديد .

وكان حسبها أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [١] لتستخدم الحديد فى الميدانين المدنى والعسكرى ففى قوله : ﴿ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية وفى قوله ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية . وللأسف لم نحسن هذه ولا تلك ! .

لقد بدأت مصر نهضتها الصناعية مع اليابان فى عصر واحد ، بل قبل اليابان فأين مصر من اليابان اليوم ؟!

---

(١) الحديد : الآية ٢٥ .

ولقد رأينا بلاداً لم تبدأ نهضتها إلا من قريب ، ولكنها خطت خطوات جبارة فى وقت قياسي ، كما فى كوريا التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية نهضتها الصناعية ، والتى أصبح اليابانيون يرونها منافساً خطراً لهم .

ترى هل لدى الإنسان اليابانى والكورى والصينى والأوروبى من المواهب والقدرات ما ليس عند الإنسان العربى أو المسلم ، حتى تقدم القوم وتخلفنا ؟؟

لقد طال تخلفنا وطال ، حتى كاد يحسبه بعض الناس لازمة من لوازمنا الذاتية ، كأن التخلف عربى أو إسلامى ، كما أن التقدم غربى ! بل ربما توهم بعض من يجهلون التاريخ أن الإسلام هو سبب تخلفنا ، ما دام المسلمون — كل المسلمين — متخلفين ! وما دام كل المتقدمين غير مسلمين ! .

ونسى هؤلاء أن حضارة العالم كانت لعدة قرون إسلامية ، وكانت لغة العلم فى العالم هى اللغة العربية ، وكانت مراجع العلم العالمية فى الفلك والفيزياء والطب وغيرها مراجع إسلامية ، وكانت جامعات المسلمين موئل الطلاب من جميع أنحاء الدنيا ، وكانت أسماء علمائنا فى شتى التخصصات ألمع الأسماء فى الشرق والغرب .

ولم يعد لنا عذر أن نبقى فى سجن التخلف والعالم كله يتقدم من حولنا، وعندنا من الحوافز الدينية والأخلاقية والعملية ما يفرض علينا التقدم فرضاً . ولدينا من الطاقات المادية والبشرية ما يؤهلنا للسير فى قافلة التقدم ، واللحاق بركب الزمن الذى ننتسب إليه .

إننا فى حاجة إلى أن نخطط لأنفسنا ، بعد أن نحدد أهدافنا ، لننطلق إلى بناء التقدم المنشود ، بناء تشترك فيه كل الفئات والطبقات ، تشارك فى تخطيطه ، وتشارك فى تنفيذه ، وتشارك فى ثمراته .

إن التقدم الذى يلائمنا ، وينبع من ذاتنا حقاً ، هو التقدم المتوازن المتكامل ، فهو تقدم اقتصادى تنموى ، يصحبه ويلازمه تقدم سياسى واجتماعى وثقافى وأخلاقى ودينى ، وهو فى كل هذه الجوانب ، متكامل متوازن أيضاً .

فإذا أخذنا التقدم الاقتصادى مثلاً ، نجد فكرة الإسلام فيه ، أنه لا يهتم بجانب على حساب جانب ، فلا يعنى بالتجارة مثلاً على حساب الزراعة ، ولا يهتم بالزراعة على حين يغفل الصناعة أو العكس ، بل يعنى بها كلها لأهميتها .

فقد رغب الإسلام في الزراعة والغرس وإحياء الموات أعظم الترغيب ، وليس منا من يجهل الحديث الصحيح المشهور « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » . وأعجب منه حديث : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » ، رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد .

ولكن الإسلام — برغم ترغيبه في الزراعة وتنويهه بمثوبة أهلها — كره لأمته أن تحصر نشاطها وجهدها الاقتصادي في دائرة الزراعة وحدها . وأنكر على أبنائه أن يكتفوا بالزرع وحده ، ويتبعوا أذناب البقر وكفى ، مهملين الصناعات والحرف الأخرى ، التي تكتمل بها مقومات الأمة القوية ، وعناصر الحياة الطيبة العزيزة . وفي هذا قصور بين في كفاية الأمة ، يعرضها للخطر .. ولا غرو أن جاء في الحديث ما يدل على أن ذلك مصدر شر وبلاء وذل يحيق بمجموع الأمة ، وهو ما صدقه الزمن كل التصديق .

روى أبو داود عن النبي ﷺ « إذا تبايعتم بالعينة (وهي صورة من التحيل على أكل الربا باسم البيع) وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم ، حتى ترجعوا إلى دينكم » .

إن هذا الحديث الشريف يرسم بعباراته الوجيزة صورة للمجتمعات الزراعية الوادعة المستسلمة ، التي لا هم لها إلا الزرع ، واتباع أذناب البقر ، وإهمال أمر الجهاد والإعداد ، وهو ما يجعلها فريسة سهلة الوقوع في براثن المرابين في الداخل ، والغزاة من الخارج ، فلا مناص إذن من العمل على تكامل كل عناصر القوة المادية والاقتصادية للأمة ، فلا يكتفى بزراعة عن صناعة ، ولا بصناعة مدنية عن صناعة حربية ، ولا بهذه وتلك عن التجارة ، ولا بالجميع عن التربية الجهادية ، والإعداد العسكري ، الذي يرهب عدو الله وعدو المسلمين .

وما ينبغي ملاحظته وجوب إقامة التوازن بين حق الأقطار والأقاليم في استغلال مواردها ، وتنمية ثروتها ، وأن تأخذ بنصيبها منها ، وبين حق الأمة الكبرى في سد الثغرات ، وبناء الصناعات الثقيلة الكبرى ، وتحقيق تكامل اقتصادي ، يهيئ للأمة اكتفاء ذاتيا ، ويجعلها قادرة على اتخاذ قرارها بنفسها وفي أرضها دون حاجة إلى أن تمد يدها لغيرها ، وهذا ما توجبه المصلحة

المشتركة التى جعلت العالم الآن ينقسم إلى أن كتل كبيرة اقتصادية وسياسية ، وهو ما توجبه الأخوة الإسلامية ووحدة العقيدة ، وتفرضه النصوص الوفيرة « وتعاونوا على البر والتقوى » « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وبجوار هذا التوازن المكانى بين أقطار الأمة بعضها وبعض ، يجب أن يتحقق توازن زمانى أيضاً ، بين أجيال الأمة بعضها وبعض . على معنى أنه لا يجوز أن يفرض التقشف والحرمان والجهد الشاق على جيل معين ، تضحية منه أو تضحية به فى سبيل جيل آخر أو أجيال لاحقة فى عالم الغيب ، وقد قال الفقهاء فى موقف مشابه :لا يجوز التضحية بالأم عند تعسر الولادة من أجل جنينها ، لأن حياتها حقيقية ، وحياته موهومة غير محققة ، ولا يضحى بالحقيقى فى سبيل موهوم . كما أنها أصل وهو فرع ، فكيف يضحى بالأصل من أجل فرعه ؟

وأهم من ذلك أنه لا يجوز أن يسرف جيل من الأجيال فى استغلال الموارد الطبيعية ، والاستمتاع بالثروة الوطنية على حساب الأجيال القادمة .

وإذا كان الشرع قد نهى الأفراد عن الإسراف والتبذير ، بحيث لا يتخم شخص بجوع شخص آخر ، ولا يملأ شر الأوعية — وهو بطنه — بأن يجور ثلث طعامه على ثلث شرابه ، أو ثلث نفسه ، كما لا يأكل رزق عدة أيام فى يوم واحد ، فكذلك لا يجوز أن يأكل جيل واحد رزق عدة أجيال قادمة ، نتيجة السرف والترف والتوسع وسوء الاستهلاك .

وإذا كان الأب العاقل الرحيم يجتهد أن يدخر لأولاده من بعده ما يساعدهم على شق طريقهم فى الحياة بقوة وأمل ، ولو بحرمانه أحياناً من بعض ما يشتهيه .. فإن على الأمة أن تنهج هذا النهج مع أجيالها ، حتى يتكافل بعضها وبعض ، وحتى يدعو لاحقها لسابقها ، ولا يلعن آخر الأمة أولها .

وهذا ما لاحظه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ومن وافقه من فقهاء الصحابة ، حين أبى أن يقسم الأرض المغنومة على الفاتحين ، كما طالب بذلك بعض الصحابة ، واتجه إلى إبقائها فى أيدى أربابها ، وفرض خراج عليها لبيت مال المسلمين ، لتكون ذخراً للأجيال اللاحقة . وعبر بعض الفقهاء عن ذلك بأنه « وقفها » على المسلمين . وقد كان حجة عمر فى صنيعه هذا آيات توزيع الفيء فى سورة الحشر (٧ — ٩) .

فقد قررت الآيات توزيع عائد الفئ توزيعًا عادلاً ، لا زال غرة فى جبين الإنسانية ، فجعلت نصيبًا فيه للجيل الحاضر من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وصودرت ملكياتهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ومن الأنصار الذين فتحوا صدورهم ودورهم لإخوانهم المهاجرين فآووا ونصروا ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وأشركت مع هذا الجيل الذى بذل وضحى أجيالاً أخرى ، عبر عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] .

وبهذا علمتنا الآيات الكريمة أن الأمة كلها وحدة متكاملة على اختلاف الأمكنة وامتداد الأزمنة ، وأنها — على مر العصور — حلقات متماسكة ، يعمل أولها لخير آخرها ، ويغرس سلفها ليجنى خلفها ، ثم يأتى الآخر فيكمل ما بدأه الأول ، ويفخر الأحفاد بما فعله الأجداد ، ويستغفر اللاحق للسابق ، ولا يلعن آخر الأمة أولها .

وبهذا التوزيع العادل تفادى الإسلام خطأ الرأسمالية التى تؤثر مصلحة الجيل الحاضر ومنفعته ، مغفلة — فى الغالب — ما وراءه من الأجيال ، كما تجنب خطأ الشيوعية (كما فى عهد ستالين وماوتس تونج) التى تتطرف كثيرًا إلى حد التضحية بجيل أو أجيال قائمة ، فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة .

ولهذا قال الفقيه الجليل معاذ بن جبل لأمير المؤمنين عمر ، حين هم بقسمة الأرض — أول الأمر — على الفاتحين : « والله إذن ليكونن ما تكره : إنك إن قسمتها اليوم صار الريع العظيم فى أيدى القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلي الرجل والمرأة !! ثم يأتى بعدهم قوم يسدون من الإسلام سدًا ، وهم لا يجدون شيئًا فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم » قال : فصار عمر إلي قول معاذ [2] .

ومن هنا قال عمر لبلال وغيره ممن عارض وقف الأرض على الأمة كلها[3] : « تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شيء ؟! » .

---

(١) الحشر : الآية ١٠ .   (٢) الأموال لأبى عبيد ص ٥٩ .

(٣) نفسه ص ٥٨ .

ومن ثم يجب أن نقف مع أنفسنا وقفة مراجعة وتقويم ، لسلوكنا مع ذلك الكنز العظيم الثمين ، الذى ننفق منه بإسراف ، يبلغ حد الإتلاف ، ويستهلك منه جيلنا ما كان يكفى لعدة أجيال ، وأريد بهذا الكنز : النفط ـ البترول ، هذه المادة النفيسة الغالية التى أودعها الله بين يدى أمتنا ، لتكون ذخيرة لها ولأجيالها المتعاقبة ، فى عصر تخلفت فيه عن ركب الأمم المتحضرة .

كان الواجب أن نأخذ من هذا الكنز بحساب ، حتى لا نجور على حق من بعدنا ، ولكنا لم نبال إلا بأنفسنا ، وتوسعنا فى السحب من رصيدنا هذا توسعًا لو صنعه الفرد فى ماله ، لقلنا عنه : سفيه يجب الحجر عليه ، وغل يده عن التصرف فى حر ماله . حفاظًا على حق نفسه وحقوق غيره .

وإذا كان ثمة عذر لنا فى بعض العقود السابقة من السنين ، لتمكن النفوذ الأجنبى من مقدراتنا حين ذاك ، فلم يعد لنا اليوم عذر بعد أن أصبحنا سادة أنفسنا ، والمستقلين بالتصرف فى ثرواتنا .

وحسب هذا الجيل ، والجيل الذى قبله أيضًا ما أنفقه ، بل ما أحرقه ، من هذا الكنز الذهبى الكبير .

ولكن السؤال الكبير هنا : ما الذى يحول بيننا وبين التقدم والنماء المنشود ؟

* *

● **العقبات فى طريق التقدم والنماء :**

إن هناك عقبات شتى تقف فى طريقنا إلى التنمية والتقدم الحقيقى ، إذا لم نخطط ونعمل جاهدين للتغلب عليها ، فسنظل ندور حول أنفسنا ، لا نخرج من دائرة التخلف ، والصحوة الإسلامية هى المؤهلة للتغلب على هذه العقبات :

١ – **أولى هذه العقبات** : المسافة الشاسعة التى بيننا وبين الدول المتقدمة علينا ، فلا زلنا حتى اليوم – فى موقف المستوردين والمستهلكين ، ولا زالوا هم الصناع والمنشئين .

إننا نحاول أن نرتقى إلى عصر الصناعة الأول عندهم ، وهو الذى كانت تعمل فيه الآلة لتوفير الجهد البدنى للإنسان . أما هم فقد ارتقوا الآن إلى « عصر الصناعة الثانى » وهو الذى تعمل فيه الآلة لتوفير الجهد الذهنى

للإنســـان ، عصــر الحاســبات والخازنات الآلية للمعـلومات ، أى عصر « الكومبيوتر » الذى بلغت صناعته الآن مستويات مذهلة ، واتسعت استخداماته حتى شملت كافة مجالات الحياة ، وأصبحت الدول الصناعية نفسها منقسمة فى هذا المجال ما بين متقدم ومتخلف ، فالولايات المتحدة واليابان فى المقدمة ، والدول الأخرى تأتى بعدها بمراحل كثيرة . وأصبحت « الأجيال » الجديدة من هذا المخلوق « الكومبيوتر » أكثر تقدمًا وتفوقًا من الأجيال القديمة بمقادير هائلة .

فكيف نلحق بركب القوم ، والشقة بعيدة بيننا وبينهم ؟! والبلية التى لا تنكر أنها لا تضيق بمرور الأيام ، بل تزداد اتساعًا ، وكيف لا ونحن لا نزال نسير بسرعة الجمل ، وهم يسيرون بسرعة الطائرة ، بل الصاروخ ؟!

وكما أن فى دنيا الاقتصاد يكون الغنى أقدر على أن يزيد غناه بيسر وسهولة ، من الفقير الذى يريد أن يحصل غنى جديدًا . كذلك فى دنيا العلم والتكنولوجيا ، من ملكهما استطاع بهما أن يفتح كل يوم آفاقًا جديدة فى مجالهما ، فالعلم يدفع إلى المزيد من العلم ، والتكنولوجيا المتفوقة تسهل المزيد من التفوق وتغرى به .

فنحن أشبه بالفقير الذى يريد أن يكون ثروة من الصفر ، وهم أشبه بالرأسمالى الذى يجد المجالات مفتوحة أمامه ، لتصبح ألفه مليونًا ومليونه بليونًا ، بلا معاناة !

٢ - **العقبة الثانية** : أن الدول التى تملك ناصية العلم والتكنولوجيا ، والتى نحتاج للتتلمذ عليها لنأخذ عنها العلم وتطبيقاته ، ليست مخلصة فى تعليمنا ما عندها ، ولا حريصة على تقدمنا .

إنها تجاملنا حينما تسمينا (الدول النامية) مجاملة لنا ، وتلطفًا بنا بدل أن تسمينا « الدول المتخلفة » ولعلها تقصد بذلك إلى إيهامنا بأننا فى طريق النماء بالفعل ، على حين لازلنا فى طور التخلف .

والحقيقة أن هذه الدول تعمل على بقائنا فى مكاننا ، كالثور فى الساقية يدور ويدور ، والمكان الذى انتهى إليه هو الذى ابتدأ فيه .

إنها لا تساعدنا على تنمية التقدم ، بل تعمل جاهدة على « تنمية التخلف » كما سماه أحد الباحثين .

« فلم يكف الغرب الشره ما صنعه في مرحلة الإبادة والاسترقاق في القارات الثلاث (ذبح الغرب أربعين مليونًا من الهنود الحمر في أمريكا ، واسترق مائة مليون إنسان باللصوصية والحيلة والسوط في إفريقيا ، وامتص دماء خمسمائة مليون في آسيا) .. ولم يشبع نهمه ما حصل عليه من ثروات وكنوز ومكاسب في مرحلة « النهب العالمي » التي يسمونها مرحلة « الاستعمار » من باب تسمية الشيء بضده ! حين كانت بلاد الشرق والعرب والإسلام « بقرة حلوبًا » للغرب . وكان اقتصادها كله « خادمًا » للاقتصاد الغربي ، مهمتها أن تقدم المواد الخام للمصانع الغربية ، ولو على حساب الإنتاج الغذائي لأهل البلاد وتستغل الأيدي العاملة الكادحة بالسخرة والسياط ، بدل نقلها عبيدًا إلى ما وراء البحار ! كانت هذه البلاد تزرع القمح وتأكل التبن ، وتزرع القطن ولا تجد ما تلبسه .

لم يكف الغرب ما صنعه في المرحلتين السابقتين حتى أضاف إلى أمجاده مجدًا جديدًا يتمثل في مرحلة « تنمية التخلف »كما سماها د. شاكر مصطفى.

« إن كل قوى الدنيا أثيرت ضد العرب حين ارتفعت أسعار البترول سنة ١٩٧٤ ، استكثر الغرب أن يزداد الدخل القومي لبعض دول العالم الثالث . ومع ذلك فإن الدخل البترولي العربي كله لا يساوي الإنتاج القومي لإيطاليا وحدها . وثلاثة أرباع عائداته إنما تعود مرة أخرى إلى المؤسسات الغربية إما لتسديد الاستهلاك وإما ودائع أبدية .. الله أعلم بمصيرها ! .

ويتحدثون عن معونات الدول المتقدمة للدول المتخلفة .. إن ٧٣ ٪ من المعونات التي قدمت للعالم الثالث في السبعينات كانت تعود إلى أصحابها في سنة دفعها نفسها .

النهب المزمن القديم لا يستمر فقط ولكنه يزداد ، وتضاف إليه الآن عمليات أخرى من التدمير لهذا العالم المنكوب :

- امتصاص خبراته البشرية الناشئة لئلا تتكون منها قاعدة تنموية قوية .
- الربط بعجلة الاستهلاك ليكون أكثر تأثرًا بتهديد الجوع .
- إثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعي والديني واللغوي والسياسي والاقتصادي في المجتمعات النامية لتكون أضعف من أن تستغل خيراتها أو ترفض الخنوع .

إنها التنمية للبلاد النامية ولكن على الطريقة الغربية ، تنمية التخلف .

ولا أريد أن أذكر هنا كيف يغرى الغرب المتقدم العقول النابغة من أبنائنا ليستخدمها عنده ويحرم منها بلادها ! وأكثر من ذلك أن أجهزة سرية ترصد العبقريات الشابة التى يتألق نجمها فى سماء العلم ، وخاصة فى الميادين الحساسة كالذرة والإلكترونيات ونحوها ، لتدبر اغتيالها بسبب أو آخر !!

ولعل يوماً يأتى تنشر فيه أسرار أحداث من هذا النوع تكشف لنا ماذا يكنه الغرب للشرق عامة والشرق الإسلامى خاصة ؟

وهل ننسى ما بذله القوم من جهود مستميتة لوأد جهود باكستان فى سبيل الوصول إلى صنع قنبلة نووية ؟ حتى لا يوجد بلد إسلامى واحد يملك هذا السلاح ، على حين ملكه اليهود فى إسرائيل ، والهندوس فى الهند ، وغير هؤلاء وهؤلاء ؟!

وهل ننسى ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى ؟ وهل يتصور أن يتم هذا دون علم من أمريكا ، وتسهيل ومعاونة من أجهزتها وأقمارها الصناعية ؟

ومعنى هذا كله أن اعتمادنا على الغرب اعتماداً كليًا إنما هو اعتماد على فراغ ، ولا بد أن نعتمد ـ بعد الله تعالى ـ على أنفسنا .

٣ ـ **وعقبة ثالثة** : أننا ما دامت أوضاعنا الاجتماعية والسياسية والفكرية والتربوية والأخلاقية كما هى ، فلسنا أهلاً لامتلاك تكنولوجيا متطورة .

فالتكنولوجيا ليست مائدة تنزل من السماء حافلة بما لذ وطاب ، كالمائدة التى طلبها الحواريون من المسيح عيسى عليه السلام ، ولكنها ثمرة لشجرة لابد أن تغرس وتسقى وتتعهد ، حتى تؤتى أكلها بإذن ربها .

فلا بد من تربية سليمة تهيئ لزهرات العقول الذكية أن تتفتح ، وتجد المناخ الملائم لبروزها ونمائها وإثبات وجودها ، وتجد من المجتمع التشجيع والمعاونة ، وتجد من الأنظمة السياسية ما يسهل لها بلوغ أرقى المستويات ، ويضع بين يديها من الإمكانات ما يمكنها من الاستفادة من خبراتها فى الرقى بوطنها ، ومنحها من الحوافز وحرية الحركة ما يصقل مواهبها ، ويؤهلها للإبداع والإتقان .

أما إذا كان أكبر هم المؤسسات التعليمية والجامعية تخريج جيوش من الموظفين ، وكان البحث العلمي على الهامش ، والباحثون والمبتكرون في مؤخرة الصفوف ، والنابغة يوضع في غير مكانه المناسب ، ليحل محله الموالي أو المحسوب أو الثرثار ، أو المنافق ، وجو الأمن والحرية غير متوافر ، فهذا كله مما يدفع إلى تزايد العقول المهاجرة من أوطانها إلى العالم الغربي يوماً بعد يوم ، حيث تعد هذه العقول لا بالمئات بل بالألوف في أوروبا وأمريكا .

إنها تجد هناك أمنها وحريتها ورخاءها وتقديرها وإثبات وجودها العلمي . وكثير من أصحاب هذه العقول يفعل ذلك كارهاً . غير راضي النفس ولا منشرح الصدر ، ولا قرير العين .

إن مناخ الحرية والعدل وإعطاء كل ذى حق حقه ، هو الذى يتيح للمواهب أن تبرز ، وللقدرات أن تعمل .

وفي أدبنا العربي يحكون أن عنترة العبسي كان محقوراً من قبل أبيه وقبيلته لسواد لونه ، فكان موكولاً إليه رعي الإبل ، شأنه شأن عبيد أبيه ، فلما أغارت على قبيلته بعض القبائل الأخرى وفتكت بها ، وقف يتفرج ، لا يشارك ولا يتحمس ، فنظر إليه أبوه وقال له : كر ! فقال الفتى في مرارة : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر ! فقال الأب : كر وأنت حر !

وهنا وثب الفتى كالليث الهصور ، وأبدى من البطولة في الدفاع عن حوزة القبيلة ، ورد المغيرين ، ما جعله حديث الجميع ، إن كلمة تقدير وإحقاق للحق هي التي أعادت للفارس المهضوم اعتباره ، وردت إليه كرامته ، وجعلته بعد ذلك أسطورة للعرب في الشجاعة والفداء . وقد تحدث عن قومه بني عبس وموقفه منهم في بعض شعره فقال :

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهمو   واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا

فهل وعى حكامنا والمسؤولون فينا هذا الدرس ، ليخرجوا من رعاة الجمال « عناتر » من نوع جديد ، شجاعتهم في عقولهم ، وعدتهم العلم والتفوق ، وسلاحهم « التكنولوجيا » ؟!

أراد أحد الحكام العرب في وقدة من وقدات الحماس أن يستقطب الكفايات والعبقريات العلمية العربية والإسلامية المهاجرة إلى الغرب ، وبعث مندوبيه ودعاته هنا وهناك ، يدعون هذه الكفايات أن تدع مهاجرها لتعود إلى

وطن عربى مسلم تحقق فيه ذاتها ، وتخدم فيه دينها وأمتها ، ويعدونهم بأن كل الإمكانات المادية والأدبية ستوفر لهم ، وأن مدينة للعلم والبحث والتكنولوجيا ستنشأ وتقوم بوجودهم ، وأن . . وأن . . من المبشرات التى جعلت كثيرين منهم يستجيبون للدعوة ، ويرحبون بالعودة ، وكلهم رجاء وأمل ، وعزيمة على العمل ، ولكنهم بعد قدومهم ، للبلد الذى دعاهم واستضافهم فوجئوا بجو غريب ، وعوملوا كأنهم أسرى حرب ، أخذت منهم جوازات السفر فلم يعودوا قادرين على أية حركة أو انتقال إلا بإذن ولا إذن . وغدوا محكومين لبعض العسكريين الذين يعاملونهم كأنهم جنود فى مرحلة التدريب، ولم تطق هذه العقول هذا السجن الإجبارى ، فلم تكد تتاح لها فرصة الإفلات حتى رجعت إلي مهاجرها ، وهى تنشد قول الشاعر العربى القديم حين ركب دابته ، وخاطبها وهو حر آمن :

عدَسْ ما لعبّادٍ عليكِ إمارة أمنت ، وهذا تحملين طليق !

٤ – **وعقبة رابعة** : أننا نريد أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة فرادى متفرقين ، فكل دولة عربية أو إسلامية ، تريد أن تتقدم وتتطور بإمكاناتها الخاصة ، وفى دائرتها المحدودة ، وهيهات لدولة نامية مهما بلغت من القدرة المالية والعددية أن تستطيع اللحاق بقافلة الدول الصناعية وحدها .

وإذا كنا نقول عن الفرد : إنه قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وضعيف بمفرده قوى بجماعته ، فكذلك الدول . الدولة الواحدة بمعزل عن شقيقاتها أضعف من أن تحقق الأمل الكبير فى التقدم العلمى التطبيقى ، ولكن الدول الإسلامية التى تزيد على الأربعين ، أو على الأقل العربية التى تزيد على العشرين ، تستطيع أن تعمل عملاً ، إذا تجمعت قدراتها ، واتحدت إراداتها واجتمعت كلماتها .

إنها لا ينقصها المال ، وبخاصة الدول النفطية منها ، ولا ينقصها العدد ، وهم نحو مائتى مليونًا من العرب ، ونحو مليار من المسلمين ، ولا تنقصها العقول المبدعة ، وفى الغرب وحده منها الكثير ، ولكن ينقصها العزم والتخطيط ، وتجميع الطاقات ، وتوحيد الجهود .

ولقد أقامت مجموعة من البلاد العربية – فى وقت من أوقات الاتفاق أو التقارب السياسى – هيئة عربية للتصنيع مقرها القاهرة . وقلنا : الحمد لله

خطوة مباركة ، ثم كان شؤم ما سموه « مبادرة السلام » وما ترتب عليها من خلاف في السياسة العربية سببًا في حل هذه الهيئة الصناعية .

إننا في عصر الإنتاج العريض ، وفي عصر التكتلات الكبرى ، وفي عصر الأسواق المشتركة ، والويل للصغار إذا تفرقوا وعملوا فرادى في سوق يسيطر عليها الكبار متجمعين .

٥ - **وعقبة خامسة** : أن الأمة لم تعبأ تعبئة معنوية للوصول إلى التقدم والنمو المنشودين ؛ لظن الكثيرين ممن بيدهم أزمة الأمور عندنا : أن لا صلة للماديات بالمعنويات ، ولا علاقة للدين بالدنيا ، ناسين أن الإنسان هو وسيلة التكنولوجيا ، كما هو هدفها ، وأن الإنسان إنما تحركه أهداف وحوافز وقيم ، يمكن أن تفجر فيه طاقات هائلة ، يستطيع أن يتخطى بها العقبات ، ويصنع ما يشبه المعجزات ، ولهذا كان العنصر الديني في غاية الأهمية لإنسان مجتمعاتنا ، الذى لا يؤثر فيه شيء مثل كلمة الدين ، ولا يحفزه حافز إلى العمل والإبداع مثل حافز الإيمان .

وطالما قلت : إن لكل أمة روحًا وشخصية خاصة ، ولكل شخصية مفتاحها الذى لا يفتح مغاليقها غيره ، مثل مفتاح السيارة ، التى لا يدور محركها ولا تتحرك عجلاتها إلا به . إنك إذا وضعت فيها مفتاحها الخاص بها، فإنك بلمسة واحدة قادر على أن تحركها وتصل بها إلى ما تريد . أما إذا أردت أن تحركها بغير مفتاحها فهيهات هيهات . لا تستطيع أن تحرك سيارة النقل بمفتاح « الصالون » ولا سيارة أمريكية بمفتاح سيارة إيطالية . إنها محاولة فاشلة وتضييع للوقت والجهد بلا حاصل .

وليس معنى هذا أننا بالتسبيح والتهليل ، أو الصلاة أو الصيام ، أو تلاوة القرآن - وحدها - قادرون أن نحقق أهدافنا ، ونسابق خصومنا . كلا ، فما قلت هذا أبدًا ولا أقوله ولن أقوله . فإن مفتاح السيارة الحقيقى لن يحركها إذا كان خزانها فارغًا من « البنزين » أو بطاريتها فارغة من الكهرباء . أو عجلاتها فارغة من الهواء ، أو بها عطب يمنعها من الحركة والانطلاق . لابد من استيفاء الشروط ، وانتفاء الموانع ، لكى يؤدى المفتاح مهمته فى دفع السيارة إلى الأمام .

* *

٢ - هَمُّ الظلم الاجتماعى

رغم المناداة من زمن طويل بالعدالة الاجتماعية ، وقيام أحزاب تنادى بالاشتراكية . فإن الظلم الاجتماعى فى أوطاننا لازال حقيقة واقعة .

هناك فئات تتمتع بامتيازات غير معقولة ، تجعلها تلعب بالملايين لعبًا حيث يتاح لها من الفرص والإمكانات ، ما يجعل الثراء إليها يطرق بابها ، وإن لم تتعب فى السعى إليه .

وإلى جوار هؤلاء نجد أناسًا يبحثون عن لقمة الخبز ، فلا يجدونها ، وإذا وجدوها فبشق النفس ، مغموسة بالعرق والدمع والدم .

قصور فاخرة لا تجد من يسكنها ، وإذا سكنها أصحابها فهى أيام معدودة من صيف أو شتاء .. وفى مقابلها عشش من الصفيح ، أو البوص ، أو اللبن ، وحجرات فى الحارات والأزقة ، فى الأحشاء الدقاق للمدن ، فى كل حجرة منها عائلة من زوجين وأولاد ، وربما معها أم أو أب !

شباب بلغوا سن الثلاثين أو أكثر ، لا يستطيعون الزواج ، لأنهم لا يجدون شقة صغيرة تؤويهم وزوجاتهم . وواحد ينفق فى ليلة عرسه ربع مليار من الدولارات أو تزيد !

أناس لا يجدون (القروش) المعدودة ، لسد جَوْعة ، أو لستر عورة ، أو لعلاج مريض ، وغيرهم يعبثون بالملايين ، ينفقون نفقة المسرفين ، بل المتلفين، ويعيشون عيشة (أولى النَّعمة) المترفين ، الذين اعتبرهم القرآن أعداء كل رسالة وخصوم كل إصلاح أو تغيير .. وشيوع هذا الترف ، وبروز أصحابه نذير بهلاك المجتمعات ودمارها ، وفقًا للسنة التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١) .

ذلك أن التظالم الاجتماعى ، يؤثر تأثيرًا سلبيًا على السياسة ، وعلى الاقتصاد والتنمية ، وعلى الأخلاق أيضًا .

فحين تحتكر الثروة فئة من الناس ، أو تتمتع أسرة أو طبقة بامتيازات لا

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

تتوافر لغيرها ، يعني ذلك أنها القادرة على التأثير فى السياسة ، والوصول إلى المناصب السياسية العليا ، بسطوتها الاقتصادية ونفوذها لدى من بيدهم الأمر ، حتى البلاد التى تجرى فيها انتخابات ، يستطيع المال أن يلعب دوراً كبيراً فى التأثير على الناخبين ، بالدعاية المركزة حيناً ، وبالتأثير على القوى الضاغطة ، حيناً ، وبشراء الأصوات حيناً آخر ، مما جعل بعض الناس ينادون بالديمقراطية الاجتماعية ، قبل الديمقراطية السياسية ، وإن كانوا فى النهاية أضاعوا الاثنتين معاً .

وفى جانب الاقتصاد والتنمية ، حين يرى الناس أن العاملين يحرمون ، وأن القاعدين يكسبون ، وأن الذين يكسبون الملايين هم لصوص الانفتاح ، وتجار المخدرات ، وموردو الأطعمة الفاسدة ، والألبان الملوثة بالإشعاع القاتل ، وأمثالهم من المتاجرين بصحة الشعب ، وحياة الأجيال . وأن توزيع الثروة لا يتم وفق قوانين العدالة التى جاء بها الدين ، وقامت بها السموات والأرض ، ولكن وفق معايير تحكمية ، أو أهواء بشرية — سينعكس ذلك سلباً على العمل والإنتاج كماً ونوعاً .

بل إن الشعور بالظلم قد يجعل الفرد لا يتحمس للدفاع عن وطنه ، الذى لم يطعمه من جوع ، ولم يؤمنه من خوف . وسيقول متذمراً ما قال المثل العامى : فى همكم مدعوون ، وفى فرحكم منسيون ! أو ما قاله الشاعر قديماً :

وإذا تكون كريهة أُدعى لها

وإذا يحاس الحيس يدعى جندب !

وهذا ما جعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول لواليه على حمص حين كتب إليه يطلب مالاً لبناء سور المدينة ، فقال له : حصنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم ! يريد أن المدينة التى يشعر أهلها بقيام الحق والعدل فيها يحميها أهلها ويستميتون فى الدفاع عنها ، قبل أن تحميها الأسوار والتحصينات .

وفى مجال الأخلاق والعلاقات الاجتماعية ، يُشيع التظالم رذائل الحقد والحسد والبغضاء ، وهى التى اعتبرها الحديث النبوى (داء الأمم) وسماها (الحالقة) لا لأنها تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

كما أن روح الانتهازية وحب الإثراء من أى طريق ، وأقرب طريق ، وفقد الثقة بجدوى الاستقامة والجد فى العمل . . كل أولئك وغيرها بعض آثار الظلم الاجتماعى ، وهى من الموبقات للأمم والمجتمعات .

والتيار الإسلامى يقدم الحل العادل للخلاص من الظلم الاجتماعى ، وإقامة العدالة الاجتماعية ، وتقريب الفوارق بين الأفراد والطبقات ، بحيث لا يزداد الغنى غنى ، والفقير فقراً ، فى ظل فلسفة كلية تمزج بين الروح والمادة ، وتجمع بين حسنتى الدنيا والآخرة ، وتوفق بين مطامح الفرد ومصالح المجموع .

١ ــ احترام الملكية الخاصة إذا تحقّقت من طريق مشروع ، مع إيجاب قيود وتكاليف إيجابية وسلبية على المالك ، باعتبار المال مال الله فى الحقيقة ، وهو مستخلف فيه . ومنع المالك من الإضرار بغيره ، وبخاصة الإضرار بالمجتمع ، فملكيته ليست مطلقة ، ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام .

٢ ــ تحريم موارد الكسب الخبيث ، من مثل : الاتجار فى المواد المحرمة كالمسكرات والمخدرات ، أو الغصب أو السرقة ، أو الرشوة ، أو استغلال النفوذ، أو أى طريقة لأكل أموال الناس بالباطل .

٣ ــ تحريم الربا والاحتكار ، وهما الساقان اللتان تقوم عليهما الرأسمالية الجشعة .

٤ ــ مصادرة الملكية المجموعة من حرام ، لحساب الفئات الفقيرة والمحرومة ، وإن طال الزمن على تملكها ، فمضى الزمن لا يحل الحرام فى الإسلام .

٥ ــ مساءلة من أثرى ثراء مفاجئًا ، أو جمع مالاً مشتبهاً فى طريقة كسبه أيا كان مركزه ، وبخاصة كبار موظفى الدولة ، وهو قانون « من أين لك هذا ؟ » وقد بدأه النبى ﷺ . . ونفذه فى أكثر من واقعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

٦ ــ منع تملك الأشياء الضرورية للمجتمع ، ملكية خاصة ، اهتداء بحديث « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » وكانت هى الأشياء الضرورية للعرب فى عصر النبوة ، ويقاس عليها الآن كل ما يضر امتلاكه للأفراد .

٧ – منع المالك من السرف والترف والتبذير فى ماله ، لما للجماعة من حق فيه ، إلى حد جواز الحجر عليه ، وغل يديه عن التصرف فيه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) . وتربية المجتمع عموماً على الاعتدال فى الاستهلاك وعدم إضاعة المال فيما لا يعود على الفرد ولا الجماعة ، بنفع مادى ولا معنوى ، ومحاربة العادات الضارة فى الاستهلاك ، حفاظاً على الثروة الخاصة والعامة .

٨ – اعتبار العمل حقاً لكل إنسان قادر ، وواجباً عليه فى الوقت نفسه ، وعلى الدولة أن تهيئ للفرد العمل المناسب ، وأن توفر له من التدريب ما يلزمه، ولا يجوز إعطاؤه من الزكاة ، وهو قادر ، فإنها لا تحل لذى مرة سوى ، كما فصلنا ذلك فى (فقه الزكاة) .

٩ – من عجز عن العمل ، أو قدر عليه ولم يجده ، أو وجده ولم يكن دخله منه كافياً له ولمن يكلف بإعالته ، وجبت إعانته حتى يكتفى .

١٠ – فرض الزكاة على أغنياء الأمة لترد على فقرائها ، والغنى كل من ملك نصاباً من مال نام ، والفقير كل من لا يجد تمام الكفاية ، والزكاة هى أول الحقوق فى المال ، وليست آخرها ، ففى المال حقوق سوى الزكاة .

١١ – إعانة ذوى الحاجات الطارئة مثل الغارمين (المدينين) وأبناء السبيل (كاللاجئين) .

١٢ – تحقيق التكافل العام ، الذى يجعل المجتمع كالجسد الواحد ، بدءاً بتكافل الأقارب ، فتكافل أهل الحى أو أهل القرية ، فأهل الإقليم ، فالمجتمع كله بعد ذلك ، فكل مواطن فى المجتمع الإسلامى – مسلماً أو غير مسلم – يجب أن يتحقق له تمام كفايته . وهو ما يشمل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعلاج ، والتعليم ، وكل ما لا بد له منه له ولأسرته ، بما يليق به ، من غير إسراف ولا تقتير. ويؤخذ ذلك من الزكاة، ومن موارد الدولة الأخرى ، وقد وضحنا ذلك فى كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) .

١٣ – رعاية التكافل الزمانى – إلي جوار التكافل المكانى – وهو التكافل

---

(١) سورة النساء : آية ٥ .

بين الأجيال بعضها وبعض ، بحيث لا يطغى جيل على حقوق الأجيال التى بعده ، بتبديد الثروة الوطنية أو الإسراف فيها ، أو تحميلها أعباء نتيجة سوء تصرف الجيل القائم ، وقد وضحنا بعض ذلك فى الحديث عن (التخلف) .

١٤ - توزيع الثروة وفق قاعدة (الفرد وبلاؤه) وقاعدة (الفرد وحاجته) وإقرار مبدأ الميراث والوصية ، كما شرعهما الله . وهما من عوامل تفتيت الثروات الكبيرة .

١٥ - تقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والطبقات بالعمل المخطط الدؤوب على رفع مستوى الفقراء ، والحد من طغيان الأغنياء ، كيلا يبقى فقر مدقع وبجواره ثراء فاحش ، عملاً بتوجيه القرآن فى حكمة توزيع الفيء على الفئات الضعيفة ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

١٦ - تنمية الثروة الفردية والجماعية ، بما لا يضر بقيم الأمة وأخلاقها وعقائدها ، فالاقتصاد الإسلامى اقتصاد أخلاقى ، ولا يقبل الإسلام النمو الاقتصادى إذا كان على حساب المثل العليا - ولهذا أهدر المنافع الاقتصادية للخمر والميسر لما وراءهما من الإثم الكبير ، ومنع حج المشركين وطوافهم بالبيت عرايا وإن خسر المسلمون من وراء ذلك مكاسب مادية ﴿ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

* *

(١) سورة الحشر : آية ٧ .   (٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

٣ - هَمُّ الاستبداد السياسى

ومن أعظم هموم الوطن العربى والإسلامى هم الاستبداد السياسى : استبداد فئة معينة بالحكم والسلطان ، برغم أنوف شعوبهم ، فلا هم لهم إلا قهر هذه الشعوب حتى تخضع ، وإذلالها حتى يسلس قيادها ، وتقريب المداحين بالباطل ، وإبعاد الناصحين بالحق .

هذا الاستبداد خطر على الأمة فى فكرها وفى أخلاقها ، وفى قدرتها على الإبداع والابتكار . ولسنا فى حاجة إلي أن نعيد ما كتبه ، الشيخ عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه الشهير (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) عن مضار الاستبداد ، وآثاره فى حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وإن كان الاستبداد اليوم أشد خطراً من قبل بمراحل ومراحل ، مما أصبح فى يد السلطة من إمكانات هائلة ، تستطيع بها أن تؤثر على أفكار الناس وأذواقهم وميولهم ، عن طريق المؤسسات التعليمية والإعلامية والتثقيفية والترفيهية والتشريعية ، وجلها - إن لم تكن كلها - فى يد الدولة .

كما لست فى حاجة إلى إعادة ما ذكرته عن (الشورى) أو (البعد السياسى) فى الإسلام ، كما تفهمه الصحوة .

ولكن الذى أؤكده أن الإسلام أول شيء يصيبه الأذى والضرر البالغ من جراء الاستبداد والطغيان .

وتاريخنا الحديث والمعاصر ينطق بأن الإسلام لا ينتعش ويزدهر ، ويدخل إلى العقول والقلوب ، ويؤثر فى الأفراد والجماعات ، إلا فى ظل الحرية التى يستطيع الناس فيها أن يعبروا عن أنفسهم ، وأن يقولوا : (لا) و (نعم) إذا أرادوا ولمن أرادوا ، دون أن يمسهم أذى أو ينالهم اضطهاد .

كما أثبت التاريخ الحديث والمعاصر أن الدعوة إلي الإسلام ، إنما تضمر وتنكمش حين يطغى الاستبداد ، أو يستبد الطغيان .

ولولا الاستبداد الذى استخدم الحديد والنار ، ما تمكنت العلمانية فى تركيا من فرض سلطانها على التعليم والتشريع والإعلام والحياة الاجتماعية كلها ، على الرغم من معارضة الجماهير الإسلامية الغفيرة ، والتى لم يستطع

الحكم العلماني بعد حكم ستين سنة أن يستأصل جذورها الإسلامية ، أو يُخمد جذوتها .

ومعظم أقطار الوطن العربي – والإسلامي – قد ابتليت بفئة من الحكام عناهم الشاعر بقوله :

أغاروا على الحكم في ليلة ففرّ الصباح ولم يرجع !

القلوب تكرههم ، والألسنة تدعو عليهم ، والشعوب تترقب يوم الخلاص منهم لتجعله عيداً أكبر ، ومع هذا يُستفتى الشعب على حكمهم ، فلا ينالون أقل من ٩٩,٩٩٩ (التسعات الخمس) المشهورة في كثير من بلادنا ، وبلاد العالم الثالث المقهور المطحون .

إن الاستبداد ليس مفسداً للسياسة فحسب ، بل هو كذلك مفسد للإدارة ، مفسد للاقتصاد ، مفسد للأخلاق ، مفسد للدين ، مفسد للحياة كلها .

هو مفسد للإدارة ، لأن الإدارة الصالحة هي التي تختار للمنصب القوى الأمين ، الحفيظ العليم ، وتضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وتثيب المحسن وتعاقب المسيء .

ولكن الاستبداد يقدم أهل الثقة عند الحاكم ، لا أهل الكفاية والخبرة ، ويقرب المحاسيب والمنافقين ، على حساب أصحاب الخلق والدين .

وبهذا تضطرب الحياة وتختل الموازين ، وتقرب الأمة من ساعة الهلاك ، كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

وكما أن هناك ساعة عامة تطوى فيها صفحة البشرية كلها ، توجد لكل أمة ساعة خاصة ، يذهب فيها استقلالها وعزها ، إذا أسندت أمورها إلى من لا يرعى أمانتها ، ولا يقوم بحقها ، ولا يتقى الله فيها .

والاستبداد مفسد للاقتصاد ، لأن كثيراً من الأموال لا تنفق في حقها ، ولا توضع في موضعها ، بل تذهب لحماية أمن الحاكمين ، والتنكيل بخصومهم في الداخل ، وتدبير المؤامرات لأعدائهم في الخارج ، وتكثيف

الدعاية لأشخاصهم ونظامهم ، وتغطية ما يفشل من مشروعاتهم التى لم تأخذ حقها من الدرس ، أو درست وضرب عرض الحائط بآراء الخبراء والدارسين ، وتمويل المغامرات الجنونية الحربية والسياسية لإرضاء طموح الزعيم فى فتح البلاد، وقهر العباد !

وخراب المؤسسات العامة ، وتفاقم خسائرها السنوية نتيجة سوء الإدارة، وشيوع ألوان النهب والسرقات المكشوفة والمقنعة لأموال الشعب ، وانتشار الرشوة باسمها الخاص أو باسم العمولات والهدايا والتستر على صفقات مريبة يكسب أفراد من ورائها ملايين ، ويخسر الشعب من ورائها بلايين ؟ .. والوقوع فى شراك قروض وديون لا تبنى بها صناعة ثقيلة ، ولا قواعد إنتاجية ، ولكن تنفق فى أمور استهلاكية ، لا تغنى من فقر ، ولا تقدم لغد ، وهذا كله يؤدى إلى خلق حالة من اليأس والإحباط وعدم المبالاة لدى الفرد العادى ، يؤثر فى مردود الإنتاج ، ومسيرة التنمية كلها .

يحدث كل هذا فى غيبة الحرية والشورى الحقيقية . فلا معارضة ولا صحافة ولا ضمانات ، حتى منبر المسجد نفسه لا يستطيع أن يأمر بمعروف ، أو ينهى عن منكر لأنه لو فعل كان تدخلاً فى السياسة ، ولا دين فى السياسة ، ولا سياسة فى الدين !

وإذا قرر الزعيم أمراً ، فليس من حق أحد أن يسأله : لم ؟ بله أن يقول له: لا ، فليس فى الشعب أحد مثله ذكاء عقل ، وشفافية قلب ، وحسن إدراك للعواقب ، وإحاطة بالأمر من جميع الجوانب ، فهو العلامة فى كل فن ، والفهامة فى كل شيء ! وأما من حوله فمهمتهم أن يؤمّنوا إذا دعا ، وأن يصدقوا إذا ادّعى .

ومن اجترأ واعترض فيا ويله ماذا يلقى ؟ لأنه باعتراضه يصبح عدو الحرية ولا حرية لأعداء الحرية !

والاستبداد مفسد للأخلاق ، إذ لا ينفق فى سوق الاستبداد إلا بضائع النفاق والملق والجبن والذل والخنوع ، وهى الرذائل التى تقتل العزة فى الأنفس ، والشجاعة فى القلوب ، وتميت الرجولة فى الشباب ، وفى هذا دمار الأمم ، وفى الحديث : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم . يا ظالـــم فقد تودع

منهم » ، فكيف إذا كان الاستبداد يلقنها كل يوم أن تقول للظالم : أيها البطل المنقذ العظيم ؟!

والحديث الشريف يقول : « احثوا في وجوه المداحين التراب » ولكن هؤلاء المداحين المطبلين في مواكب النفاق هم أول المحظوظين والمقربين !

والاستبداد كثيراً ما يتغاضى عن المجرم والمنحرف إذا كان من أنصاره ، فهو يظله ويستره ، فإذا انكشف حماه ودافع عنه ، ليعلم أتباعه دوماً أن ظهرهم مسنود ، وأن ذنبهم مغفور ، على نحو ما قال الشاعر قديماً :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع !

وفي المقابل يحسن الكثيرون من غيره أنصاره فلا يثابون ولا يكافؤون . وقد تعمدت أن أقول : من غير أنصاره ، لا فهم أنهم ليسوا من خصومه وأعدائه ، ولكن شعار الاستبداد دائماً : من ليس معنا فهو علينا . أكثر من ذلك : أن يأخذ القاعد المتبطل مكافأة العامل المجد ، وأن يعاقب البرئ بذنب المسئ ! وتلك هي الطامة الكبرى .

والاستبداد بعد ذلك مفسد للدين أيضاً ، لأنه يعادي التدين الصحيح الذي ينير العقول ، ويبين الحقوق ، ويقيم العدل ، ويرفض الظلم ، ويربي المؤمنين على قول الحق ، ومقاومة الباطل ، ويجرئهم على أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويعتبر أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . وفي مقابل هذا يبارك الاستبداد التدين المغشوش ، تدين الموالد والأضرحة ، والنذور، وصيحات المجاذيب ، وحلقات الدراويش ، وما إلى ذلك من ألوان التدين السلبي ، الذي يعزل صاحبه عن المجتمع ومشكلاته والأمة وقضاياها ، وحسبه — إن كان مخلصاً — أن يبحث عن النشوة الروحية لنفسه ، تاركاً الطغيان يفعل ما يشاء ، مردداً قول من قال : أقام العباد فيما أراد !

ولهذا ترى الحكام المستبدين يحرصون على حضور احتفالات التدين الزائف ، ويدعمون مؤسساته ، ويقفون وراء المزيفين من المشايخ المتحدثين باسمها ، ليتخذوا منها أداة لضرب تيار الصحوة الإسلامية الحي المتحرك .

أما هذا التيار الإسلامي الحقيقي الحركي ، فلا يجهل أحد أنه — دون غيره من التيارات اليمينية واليسارية — لقي من مظالم الاستبداد وطغيان زبانيته، ما تقشعر من مجرد ذكره الجلود .

التيار الإسلامي وحده هو الذى قدم الضحايا بالألوف وعشرات الألوف .

هو وحده الذى امتلأت السجون بنزلائه ، وارتوت السياط من دمائه ونهشت الكلاب الحيوانية والبشرية من لحمه ، وسحقت أدوات التعذيب من عظمه ، وذهب إلى ربه من ذهب من شهدائه ، جهرة تحت أعواد المشانق أو برصاص الطغاة ، أو خفية تحت آلات العذاب ، وما ربك بغافل عما يعلمون .

ولا دواء لداء الاستبداد إلا بالرجوع إلى نظام الشورى ، والنصيحة ، الذى جاء به الإسلام ، مستفيدين من كل الصيغ والضمانات التى انتهت إليها الديمقراطية الحديثة .

وقد كتب شيخ الدعاة إلى الحرية والديمقراطية الأستاذ خالد محمد خالد فى صحيفة (الأهرام) القاهرية فى ٢٤ / ٦ / ١٩٨٥ م مقالاً رد فيه على الدكتور يوسف إدريس ، مؤكداً أن الشورى فى الإسلام هى الديمقراطية التى يتنادى بها الناس اليوم .

وعاد إلى الموضوع فى صيف سنة ١٩٨٦ م فى صحيفة (الوفد) ودعا التيار الإسلامى أن يعترف صراحة بهذه الديمقراطية بأركانها وعناصرها التى ذكرها وأكدها وهى :

(أ) الأمة مصدر السلطات .

(ب) حتمية الفصل بين السلطات .

(جـ) الأمة صاحبة الحق المطلق فى اختيار رئيسها .

(د) وصاحبة الحق المطلق فى اختيار ممثليها ونوابها .

(هـ) قيام معارضة برلمانية حرة وشجاعة تستطيع إسقاط الحكومة حين انحرافها .

(و) تعدد الأحزاب .

(ز) الصحافة الحرة . . لا بد من إعلاء شأنها .

وقال الأستاذ خالد : « هذا هو نظام الحكم فى الإسلام بلا تحريف فيه ولا انتقاص منه » .

وأنا أؤكد للكاتب الكبير ، كما أكد له غيرى ، أنا نرحب بكل ما ذكره من الضمانات ، ونتمسك به وندعو إليه ، وإن كنا نخالفه فى اعتبار هذا هو الإسلام ، فالإسلام نظام متميز فى منطلقاته ، وفى غاياته ، وفى مناهجه ، وهو أكبر وأعمق وأوسع من الديمقراطية ولكنا نقول بغير تردد : إن الإسلام يرحب بكل ما ذكره من عناصر ، من زوايا ثلاث :

(أ) باعتبار أن الحكمة ضالة المؤمن ، فأنى وجدها فهو أحق الناس بها .

(ب) وبناء على أن مبنى الشريعة – فيما لا نص فيه – على رعاية المصلحة ، فحيث وجدت المصلحة فثم شرع الله .

(جـ) وبناء على أن هذه الضمانات التى وصلت إليها البشرية من خلال تجاربها ومعاناتها الطويلة مع الظلاّم والمستبدين ، أصبحت ضرورية ولازمة لحماية الشورى من العابثين بها ، والعادين عليها . وحجتنا فى ذلك القاعدة الفقهية الشهيرة : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

على أننا نزيد على ذلك بأن تقرير القواعد وحده لا يكفى ، ما لم نقم بتوعية الشعب ، وتربية طلائعه على حراسة هذه القواعد ، والاستماتة فى سبيل الدفاع عنها ، وهذا ما يستطيع التيار الإسلامى أن يقوم به أكثر من غيره ، إذا دخل الإسلام المعركة ضد الاستبداد والتسلط بقوة ووضوح .

وهنا يجب أن نوعى الجماهير ، ونربى النخبة على معان مهمة ، وقيم أصيلة ، وأحكام شرعية بينة ، طالما أخفيت عنه ، أو أهمل بيانها ودعوة الناس إليها :

(١) يجب أن تقوم التوعية والتربية على مقاومة روح السلبية والجبرية السياسية ، التى تؤمن بأن ما تريده الحكومة نافذ ، كأنه قدر الله الذى لا يرد ، وقضاؤه الذى لا يغلب ، فإن الحكومات من إفراز الشعوب ، وقد ورد فى الأثر « كما تكونوا يول عليكم » فإذا غيرنا ما بأنفسنا من الأفكار والمخاوف تغيرت حكوماتنا .

(٢) يجب أن نقاوم روح اليأس والانهزامية المميتة ، التى تشيع بين الناس : أن لا فائدة ، ولا أمل فى تغيير أو إصلاح ، وأن الذى يأتى أسوأ من الذى يذهب . فهذه الروح الانهزامية منافية لمنطق الحياة التى يعقب الله فيها

النهار بعد الليل ، والخصب بعد الجدب ، ومنافية لمنطق الكفاح الذى نهضت به الأمم ، وسادت به الشعوب ، وهي – قبل ذلك كله – منافية لمنطق الإيمان الذى يرفض اليأس ويعتبره من دلائل الكفر ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ (١) .

(٣) يجب أن نعلم الشعب أن الساكت عن الحق كالناطق بالباطل ، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأن نحيي بين الناس الفريضة الإسلامية العظيمة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم . وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منها ، وبطن الأرض خير لها من ظهرها .

هذا مع رعاية الأدب والرفق فى الدعوة والخطاب والأمر والنهى ، اتباعا لما أمر الله به موسى وهارون حين أرسلهما إلي فرعون ، فأوصاهما بقوله : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (٢) .

(٤) يجب أن نوعى الجماهير أن الشعوب مسؤولة مع حكامها ، إذا هى مشت فى ركابهم ، ولم تقل لهم : (لا) حيث يجب أن تقال ، فقد ذم الله قوم فرعون بقوله :﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾(٣) وقال نبى الله صالح لقومه ثمود ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾(٤) .

(٥) يكمل ذلك أن يعلم كل الناس أن أعوان الظلمة معهم فى جهنم ، وان مجرد الركون إليهم موجب لسخط الله تعالي وعذابه ، ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾(٥) .

ومن هنا دان القرآن – مع فرعون وهامان – جنودهما ، لأنهم أدواتهم فى ظلم الناس ، وإرهاب الشعوب . يقول القرآن : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (٦) ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧ (٢) سورة طه : الآية ٤٤ .

(٣) الزخرف : آية ٥٤ . (٤) سورة الشعراء : الآيات ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٥) هود : آية ١١٣ . (٦) سورة القصص : آية ٨ .

(٧) سورة القصص : آية ٤٠ .

حكوا عن الإمام أحمد أنه حين سجن وعذب فى محنة القول بخلق القرآن سأله سجانه عن الأحاديث التى وردت فى وعيد أعوان الظلمة ، فقال : هى صحيحة .

فقال السجان : وهل ترانى من أعوان الظلمة ؟

قال الإمام : لا . أعوان الظلمة من يخيط لك ثوبك ، أو يقضى لك حاجتك ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم !

(٦) أن نعلم الجماهير أن الانتخاب (شهادة) والشهادة لا يجوز كتمانها ولا التخلف عن أدائها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ (١) ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢) فإن آفة الانتخابات فى كثير من بلادنا أن جمهرة الناس لا يذهبون للإدلاء بأصواتهم ، لاعتقادهم أن الحكومة ستفعل ما تريد !

كما يجب أن يعى الناس : أن الذى ينتخب غير الصالح ، أو ينتخب شخصاً وهناك من هو أولى منه قوة وأمانة ، وحفظاً وعلماً ، قد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ولم يقم بحق (الشهادة) التى ائتمن عليها ، بل (شهد زوراً) ، وشهادة الزور من أكبر الكبائر ، حتى قرنها القرآن بعبادة الأوثان ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣) .

وإذا كان هذا التغليظ فى الحقوق الفردية ، فهو فى حقوق الأمة أغلظ وأكبر فى الإثم ، لما يترتب عليه من تضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وفيه الهلاك والدمار للأمة .

وأود أن أذكر هنا أن الطغاة والمستبدين لن يدعوا التيار الإسلامى يقوم بما يريد من توعية وتربية للأمة ، يكون حصادها التمرد على أولئك المتسلطين. ولكن إصرار المؤمنين — مع الحكمة اللازمة — سيذيب الحواجز ويتخطى كل العقبات ، لأن إرادتهم من إرادة الله ، والله ولى المؤمنين .

* *

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .　　(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

(٣) سورة الحج : آية ٣٠ .

٤ – هَمُّ التغريب والتبعية

كان القرن الرابع عشر الهجرى الذى ودعته أمتنا الإسلامية منذ سنوات قلائل ، قرن الجهاد والكفاح للدفاع عن (الذات) ، والمحافظة عليها ، إزاء (الغزو الأجنبى) ، أو بعبارة أخرى : (الاستعمار الغربى) الذى زحف عليها بعساكره وجيوشه ، منتهزاً فرصة ضعفها وتفرقها واستطاع أن ينتصر عليها انتصاراً حسبه فى وقت من الأوقات نهائياً وحاسماً .

وكان دفاع الأمة عن ذاتها يتمثل فى أمرين : الدفاع عن (الفكرة الإسلامية) والدفاع عن (الأرض الإسلامية) ، فالفكرة هى رسالة الأمة ومبرر وجودها ، وهدف حياتها ، والأرض هي مشرق شمسها ومنبت بذورها ، ومجلى تطبيقها لعقيدتها وشريعتها ، ولهذا حرص الإسلام على أن تكون له (دار) حرة مستقلة ، ومن هنا كانت فرضية الهجرة إلي المدينة فى أول الإسلام، ولهذا كان الجهاد فريضة للذود عن (دار الإسلام) .

ولا غرو أن تعالت نداءات الجهاد فى كل مكان من أرض الإسلام ، لمقاومة الغزاة ، والتحرر من سلطانهم ، فإنما هى إحدى الحسنيين النصر ، أو الشهادة فى سبيل الله .

وأما أشد أنواع الصراع وأطولها وأعمقها ، فهو ما خاضته أمتنا ضد الغزو الثقافى ، وهو أخطر أنواع الغزو وأقساها .

فالغزو العسكرى يحتل الأرض ، وهذا يحتل الأنفس والعقول .

والغزو العسكرى يلمس ويحس ، فيرفض ويقاوم ، والآخر يتسلل إلى حنايا المجتمع تسلل النوم إلي الأجفان ، أو الداء إلى الأبدان .

والغزو العسكرى يقهر الشعوب بالسيف فتخضع له كارهة ، متربصة متي تتخلص منه ، والفكرى يضللها بفتنتها عن نفسها ، فتطيعه راضية مختارة ، ﴿ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١) .

والحق أن أمتنا لم تصب بمثل هذا الغزو من قبل ، على امتداد تاريخها الطويل .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧ .

لقد عرفت فى تاريخها الفكرى تلك الأقاويل والأقاصيص الدخيلة التى دخلت إلى الثقافة الإسلامية عن طريق من أسلم من أهل الكتاب ، والنقل عن كتبهم المحرفة وعرفت باسم (الإسرائيليات) ، ولكنها – وإن لوّثت الثقافة الإسلامية وكدرت صفاءها – لم يكن لها تأثير على التصور الإسلامى لله وللكون وللحياة وللإنسان ، فبقى هذا التصور – فى مجمله – فى قرون الأمة الأولى سليمًا خالصًا .

وعرفت أمتنا فى تاريخها الفكرى تأثير (الفلسفة اليونانية) بعد أن ترجمت كتبها فى العصر العباسى إلي العربية ، وإعجاب كثير من العباقرة المسلمين بها وبخاصة فلسفة أرسطو الذى أطلقوا عليه « المعلم الأول » إلى حد اتخاذها أصلاً تحاكم إليه مقررات العقيدة الإسلامية ، فإن وافقته فبها وإلا كانت محاولات (التلفيق) كما فى رسائل (إخوان الصفا) أو (التوفيق) كما فى كتب الفيلسوفين الكبيرين : الفارابى وابن سينا ، ومن بعدهما ابن رشد صاحب كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) .

ولكن التأثير الحقيقى للفلسفة اليونانية فى الفكر الإسلامى كان فى دائرة خاصة هى دائرة من يسمون (الفلاسفة الإسلاميين) ، وأما الجمهور الأعظم من علماء الإسلام فى شتى التخصصات فقد قاوموا هذا التأثير ورفضوه ، وإن لم يسلموا من تأثر به واستفادة منه فى صورة مختلفة .

وقام الإمام أبو حامد الغزالى بشن غارته علي (الفلسفة) بسلاح الفلسفة ومنطقها نفسه ، وبين فى « تهافت الفلاسفة » أخطاءهم فى عشرين مسألة ، وكفرهم فى ثلاث منها ، معروفة ومشهورة ، ولهذا أطلق عليه العلماء « حجة الإسلام » .

وجاء بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ، فزاد عليه محاولة تنقية الثقافة الإسلامية كلها من آثار الفلسفة اليونانية ، ومن ذلك (نقض المنطق) الصورى الأرسطى الذى اعتبره الغزالى « معيار العلوم » وبين ابن تيمية فى كتابين له : أنه علم لا يحتاج إليه الذكى ، ولا ينتفع به البليد ، وبهذا سبق رواد النهضة الأوربية الحديثة التى رفضت المنطق الصورى القياسى(الأرسطى)، وقامت على أساس المنهج الاستقرائى التجريبى الذى اقتبس أصلاً من الحضارة الإسلامية ، كما شهد بذلك المنصفون .

أما الغزو الفكرى الغربى الحديث .فهو شىء لم تعرفه أمتنا من قبل . فقد

أثر فى الجمهور الأعظم من مثقفى الأمة ، وغيّر نظرتهم إلي الإسلام ، وإلى الحياة ، وإلى التاريخ ، وإلى أنفسهم .

وكان له أثره البالغ في تغيير التصور وتغيير السلوك ، وبالتالى : تغيير المجتمع كله : تربيته وتعليمه ، وفكره وثقافته ، وتقاليده ، وتشريعه ، واقتصاده ، وسياسته الداخلية والخارجية .

لقد ذكر الأستاذ « برنارد لويس » فى كتابه عن « الغرب والشرق الأوسط » أن الشرق الإسلامى قد أصيب فى تاريخه بلطمتين لم يصب بمثلهما فى تاريخه : « أولى هاتين اللطمتين : كان الغزو المغولى من أواسط آسيا التى حطمت الخلافة القائمة ، وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة - قلب العالم الإسلامى لحكم غير إسلامى .

أما اللطمة الثانية : فهي : « تأثير الغرب الحديث » .

ورأيى أن اللطمة الثانية كانت أشد خطراً من الأولى ، فإن المغول الذين دخلوا الشرق الإسلامي غالبين ، لم يلبثوا أن اعتنقوا دين المغلوبين ، وهذه حقًا إحدى معجزات الإسلام التاريخية .

صحيح أنهم فى أول الأمر ، لم يحكموا الشريعة الإسلامية ، بل حكموا بما توارثوه عن ملكهم (جنكيزخان) الذى وضع لهم دستوراً سموه (الياسق) وهو كما قال ابن كثير : مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا ، يقدمونه علي الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولكن هذا الأمر لم يستمر بعد أن حسن إسلامهم وذابوا فى المجتمع الإسلامى . كما أن الفكر الإسلامى ، لم يتأثر به ، ولم يلتفت إليه ، واعتبره من حكم الجاهلية المرفوض بنص القرآن .

وهذا بخلاف الغزو الغربى الحديث ، فقد أثر فى الحياة كلها عن طريق التربية والتعليم : التعليم العام ، والتعليم الجامعى ، وعن طريق الصحيفة والكتاب ، ثم أجهزة الإعلام الأخرى ، وهى أبعد أثراً ، وأشد خطراً . وعن طريق الاستشراق والاستغراب . ثم عن طريق التشريع والحكم . وكان أكبر همه تكوين (الفئة القيادية) التى يريد أن يلقى عليها عبء القيادة والتوجيه

يصنعها على عينه ، مطمئنًا إلى أنها لن تسير إلا فى نفس خطه ، تاركًا الجماهير فى غفلاتها وأكل عيشها .

وكان من ثمرة ذلك : ظهور « العلمانية » بمعنى فصل الدين عن الدولة والحياة . فكان لابد من « علمنة التعليم » وترك الجامعات والمعاهد الدينية القديمة (الناشزة) تموت تدريجيًا بالعزلة والاختناق .

وكان لابد من « علمنة » الاقتصاد والسياسة الداخلية والخارجية ، والحياة الاجتماعية كلها ، بحيث تسير وراء نهج الغرب ، حذو القذة بالقذة ، غير ملتزمة بمنهج الإسلام ، وروح الإسلام ، الذى يرفض (الفصام) فى الحياة والإنسان .

فالنصرانية تقبل قسمة الإنسان ، وشطر الحياة شطرين بين قيصر وبين الله، كما يقول إنجيلهم « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

أما الإسلام فيرفض هذا تمامًا ، ويعلن أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار ، ويرى أن رسالته للحياة كلها ، وللإنسان كله ، وأن أحكامه تشمل الدين والدنيا ، وتشرع للفرد وللمجتمع ، وأنها وحدة لا تقبل التجزئة بحال ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (١) .

كما أن تاريخ النزاع بين الدين والعلم فى الغرب ، أو بين الكنيسة وطلائع النور والحرية ، والذى انتهى بهزيمة الكنيسة – والدين الذى تمثله – أمام مواكب العلم والحرية ، وبالتالى فصل الدين عن الدولة ، الذى يعنى عزل الكنيسة عن السياسة والحكم . هذا التاريخ لا وجود له عندنا ، فالدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين ، والجامعات عندنا نشأت تحت سقوف الجوامع .

ولهذا كان عجيبًا كل العجب أن تجد « العلمانية » بمفهومها الغربى قبولاً فى المجتمع الإسلامى لولا تأثير الغزو الفكرى ، الذى غرب الأفكار والمشاعر ، فلم يعد المسلم المغزو يفكر بالإسلام ، وإن فكر للإسلام ، ولم تعد مشاعر الحب والبغض ، والولاء والعداء عنده قائمة على الإسلام .

وكان من نتائج هذا التغريب المكثف المستمر للعقل وللمشاعر وللحياة فقدان أو ضعف الشعور بالذاتية الإسلامية ، والاستعلاء الإسلامى ، أمام الغرب المنتصر وحضارته ، وبروز ظاهرة اجتماعية من أخطر الظواهر ، هى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للغرب فى كل ما يصدر عنه من ماديات ومعنويات حتى نادى بعضهم جهرة بأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب !

وصدق فى ذلك ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى حين قال : « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وفى بعض الروايات : التعبير بـ« فارس والروم » بدل اليهود والنصارى .

والحديث ينكر على الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها ، إلى حد تغدو فيه ذيلاً تابعًا للآخرين من أصحاب الديانات السابقة ، أو أصحاب الحضارات السائدة ، وفارس والروم لا يوجدان اليوم بهذا الاسم والعنوان ، ولكن معناهما موجود فى الدولتين العظميين اللتين تمثلان : المعسكر الشرقى والمعسكر الغربىء كما كانت فارس والروم عند ظهور الإسلام .

ويعبر الحديث عن مدى هذه التبعية الذيلية بقوله : « شبراً بشبر » ، « وذراعًا بذراع » .. ويضرب « جحر الضب » مثلاً لهذا النوع من الاتباع الأعمى فجحر الضب يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة ، ومع هذا لو دخل أولئك « المقلدون » هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المقلدون . وبتعبير عصرنا : تظهر « مودة » جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز ، تسمى « مودة جحر الضب » ! .

هذا مع حرص الإسلام البالغ فى تشريعاته وتوجيهاته ، على أن تظل الشخصية المسلمة مستقلة متميزة فى مخبرها وفى مظهرها ، حتى لا يسهل ذوبانها فى غيرها ، وبالتالى تفقد خصائصها ومشخصاتها . وهذا معنى الدعاء اليومى المتكرر للمسلم فى صلاته ، سبع عشرة مرة على الأقل ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

وفى هذا ألفّ شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » .

لم تضع جهود التغريب سدى ، بعد أن وجد من أبناء المسلمين من

---

(١) سورة الفاتحة : الآيتان ٦ ، ٧ .

يتنكر للإسلام ، وبعد أن عزل الإسلام عن قيادة المجتمع وتوجيهه ، وكل ما تفضلوا به عليه إنما هو (ركن) أو (زاوية محدودة) تأخذ عنوان (الدين) في بعض أمور الحياة .

ففي التشريع سلب الإسلام حقه أن يكون مصدرًا للدستور والقوانين المختلفة ، وتركت له منطقة (الأحوال الشخصية) . وحتى هذه عدَوْا عليه فيها ، وأخذت منه كليًا أو جزئيًا ،كما في تركيا وبعض البلاد العربية ، ولا زالت بلاد أخرى تعمل قوى التغريب فيها جاهدة لمنع الطلاق وتعدد الزوجات ، وإعلاء المرأة على الرجل .

وهكذا تجد كل ما في أجهزة الإعلام من إذاعة أو تليفزيون (ركنًا للدين) أو (زاوية) يتمثل في قراءة القرآن ، أو في حديث ديني يومي ، أو أسبوعي ، يوضع عادة في وقت ميت بحيث لا يسمع أو لا يرى !!

وأما في الصحافة فنجد - في معظم بلاد المسلمين - كل ما للإسلام فيها صفحة أو بعض صفحة في كل يوم جمعة تسمى « الصفحة الدينية » ، فهي صفحة (دينية) ، وقلما ترتقي لتكون (إسلامية) بحق . وإذا ذكر فيها الإسلام ، فهو (الإسلام المستأنس) الذي يعيش به الناس في الماضي أكثر من الحاضر ، ويعلمهم أن الحاكم إذا أحسن فعليهم الشكر ، وإذا أساء وطغى فعليهم الصبر ... !! وفي المدرسة ومؤسسات التربية والتعليم نجد للدين حصة ، كثيرًا ما تكون في آخر اليوم الدراسي بعد أن يكون الطلاب والمعلمون قد تعبوا وسئموا ، وغالبًا ما تتخذ للراحة من عناء اليوم المدرسي ، وكثيرًا ما يكون الدين فيها (موجهًا) مطعّمًا بكل ما يؤيد النظام والسلطان !

وفي جهاز الحكومة حسب الإسلام أن يكون له وزارة أو جزء من وزارة تشرف على الأوقاف والشؤون الدينية ، كثيرًا ما تكون رسالتها مباركة الواقع الماثل ، ومساندة الحكم القائم ، وإعطاءه سندًا من الشرع ، وإن حاد عن الشرع !

وهكذا تعمل قوى التغريب دائمًا على حصر الإسلام : (مكانيًا) في المسجد ، و (زمانيًا) في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وشهر رمضان من كل عام ، و(حياتيًا) في مجرد إقامة الشعائر دون التأثير في الحياة بالتشريع والتوجيه ، والقضاء والتنفيذ ، وصبغ المجتمع بصبغة الإسلام ، وإشرابه روح الإسلام .

بيد أن من الحق أن يقال : إن الفكر الإسلامي لم يعدم يومًا من يقف في وجه هذا الفكر الغربي الزاحف ، وفي وجه دعاته وعملائه أو عبيده في ديارنا ، بل وجد من أفذاذ المسلمين من تصدى له وجهًا لوجه ، يدفعون شبهاته ، ويردون مفترياته ، ويكشفون عن عوراته ، ويزيلون الصدأ والغبار عن كنوز الإسلام ، وقيمه وتراثه العريق ، ويعيدون للمسلمين الثقة بسمو الإسلام ، وكمال الإسلام ، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

رأينا من هؤلاء جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ، وشبلي النعماني .

ومن بعدهم رشيد رضا ، ومحمد إقبال ، وسليمان الندوي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وشكيب أرسلان ، وحسن البنا ، وأبو الأعلى المودودي ، وعبد الحميد بن باديس ، والبشير الإبراهيمي ، ومصطفى السباعي ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب ، وعباس العقاد ، وغيرهم ممن قضى نحبه وممن ينتظر .

وأوضح دليل على ذلك : الثروة الطائلة التي حفلت بها المكتبة الإسلامية الحديثة في العقيدة والتشريع ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والدعوة والسيرة ، والتاريخ والحضارة ، وغيرها من مختلف مجالات الفكر الإسلامي . بالإضافة إلى العشرات ، بل المئات من رسائل الماجستير والدكتوراة في شتى جوانب الدراسات الإسلامية .

ولا غرو أن أثرت هذه الحركة الفكرية الإسلامية في داخل البلاد الإسلامية وخارجها وإن بقي عدد غير قليل من دعاة التغريب ، وعبيد الفكر الغربي في أرضنا . وبعض هؤلاء عملاء مأجورون ، أو حاقدون مكشوفون ، ومثلهم لا يرده إلى الأصالة الإسلامية ألف برهان وبرهان .

وكان من أثر ذلك تصايح الرأي العام الإسلامي – في جملة من الدول المنتسبة إلى الإسلام – بوجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، واتخاذها مصدر الدستور والقوانين .

ومناداته كذلك باعتبار الدين مادة أساسية في جميع مراحل التعليم العام ، وتدريس (الثقافة الإسلامية) في المرحلة الجامعية .

وقد رأينا من المستشرقين من بدأ يراجع نفسه فيما كتب ، ومن يقف وقفة مستأنية قبل أن يكتب ، لأنه يعلم أن المسلمين أصبحوا يقرؤون .

ومنهم من رد على سابقيه من المستشرقين، لأنه تبين له ما لم يتبين لهم ، وقد بات بعض ما كان من « المسلّمات » لدى المستشرقين قديمًا ، فى عداد الأباطيل اليوم .

ورأينا من المستغربين — ممن كانوا عبيد الفكر الغربى بالأمس — يعودون إلى الساحة الإسلامية معتذرين إلى الله وإلى المؤمنين عما بدر منهم من قبل . وآخرين يحاولون الاقتراب من الفكر الإسلامى ، بالكتابة عنه ، أو الثناء عليه ، أو الرد على خصومه ، قد يكون هذا اقتناعًا منهم وتصحيحًا لمسارهم ، وقد يكون تملقًا للرأى العام الإسلامى المتزايد يومًا بعد يوم .

ورأينا الفكر الإسلامى ذاته يتجاوز مرحلة الدفاع وأسلوب الاعتذار عن الإسلام الذى صبغ إنتاجه عدة عقود من السنين — إلى مرحلة المواجهة والهجوم والانطلاق من موقع القوة والأصالة والاعتزاز .

مع هذا ، لا ننكر أن فئات من أبناء وطننا العربى والإسلامى ، لازالت خاضعة بقدر أو بآخر ، لفكر الغرب ، بشقيه الليبرالى والماركسى ، ولا زال لكل منهما أحزاب سياسية وأيديولوجية تنطق باسمه ، وتنادى به أساسًا لحياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

لا زالت هناك دول وحكومات تقوم على تبنى هذا الفكر أو ذاك ، على تفاوت بينها فى مدى ما تعترف به للإسلام من حق فى توجيه بعض الزوايا للحياة أو التشريع لها .

* *

• ألوان أخرى من التبعية :

على أن هناك ألوانًا أخرى من التبعية خلفها الاستعمار ، غير التبعية الفكرية والثقافية لها خطرها وأثرها .

منها التبعية التشريعية التى جعلت قوانيننا صورة منقولة من القوانين الغربية بغض النظر عن مخالفتها لعقيدتنا وشريعتنا وقيمنا وأعرافنا وتقاليدنا التى استقرت عليها حياتنا الاجتماعية ، ثلاثة عشر قرنًا .

وهذا ما جعل تيار الصحوة الإسلامية اليوم فى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى ، ينادى بضرورة التحرر من ربقة القوانين الوضعية التى خلفها

الاستعمار ، والعودة إلى أحكام الشريعة الإسلامية . والمعركة حامية الوطيس ، والمفروض أن تحسم لحساب الإسلام ، ما دام هذا هو مطلب الجماهير .

ومنها : التبعية الاجتماعية : تبعية التقاليد التى تجعل المسلم أو المسلمة أسيرة لتقاليد غريبة كل الغرابة ، وكل الغربة ، على مجتمعاتنا ، مثل تقاليد الشرب والرقص والاختلاط بغير حدود فى الاحتفالات ، والتقاليد المتعلقة بالزى والزينة ، ونحوها ، من كل ما يمسخ شخصيتنا ويجعلنا نحاكى الغرب محاكاة القرود .

ومنها التبعية الاقتصادية : وهى التى تجعلنا ندور فى فلك الاقتصاد الغربى ننتج ما يريد لنا أن ننتجه ، ونستهلك ما يريد لنا أن نستهلكه ، وهو لا يريد لنا أن ننتج من الصناعات المدنية والحربية ما يجعلنا نستغنى عنه ، وعن استيراد سلعه ومصنوعاته . فإذا سمح لنا أن ننتج شيئًا كان ذلك بإشرافه وهيمنته ، هو الذى يخطط ، وهو الذى ينفذ ، وهو الذى يستفيد ، بحيث نظل مربوطين بعجلته ، فالأجهزة من عنده ، والخبراء من عنده ، وقطع الغيار من عنده . وهكذا .

كما أنه يريد لنا أن نتوسع فى استهلاك كل ما يصنعه ، وكثير منه مما يمكن أن يستغنى عنه ، وكثير آخر مما يجلب الضرر على المدى القصير ، أو المدى الطويل ، وبعض آخر هو من أسباب الدمار للأمم . وهو يغرينا بذلك بوسائله التى يعجز (إبليس) عن مثلها ، ويفتح لنا أبوابًا بعد أبواب ، وحاجات تلو حاجات ، وما قصر عنه جهدنا ومواردنا — وهى قاصرة لا محالة — ييسر لنا سبيل الاقتراض منه ، والاقتراض معناه (الربا) الملعون آكله وموكله ، الربا المؤذن بحرب من الله ورسوله .

ومع هذا أوقعنا فى الفخ ، فى مصيدة الديون الربوية ، التى يجر بعضها إلى بعض ، ويسلم كل دين منها إلى آخر بعده ، وكثيراً ما نتورط فى دين جديد لتسديد فوائد دين قديم وأقساطه . وصدق قول الشاعر :

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن
قضاء ، ولكن كان غرمًا على غرم !

* *

٥ – هَمُّ التخاذل أمام إسرائيل

إن هَمَّ التخاذل والاستسلام أمام الاغتصاب الصهيونى ، والخطر الإسرائيلى ، هم كبير وجسيم يزداد كبرًا وجسامة بمضى الأعوام .

ذلك لأننا وهنا ودعونا إلى السلم فى مواجهة قوم قام كيانهم كله على الحرب والعدوان حتى حرف بعض منا كلم القرآن عن مواضعه ، فزعم أنهم جنحوا للسلم فلنجنح لها ، ولنتوكل على الله ! وما جنح القوم لها يومًا .

وكان علينا أن نعرف عدونا على حقيقته ، كما هو ، لا كما نريده أن يكون .

ومصادر معرفته كثيرة وميسورة ، منها : كتاب ربنا القرآن الكريم .. وكتبهم المقدسة نفسها التى وصفتهم بما وصفت .. وتاريخهم معنا من قديم ، ومع العالم كله .. وواقعهم الحاضر معنا منذ أرادوا أن يقيموا وطنًا لهم على أنقاضنا .. وما يكتبونه عن أنفسهم .. وما يكتبه الآخرون عنهم ، وهو شيء كثير .

إننا لسنا قليلاً فى العدد ، ولكننا – كما جاء فى الحديث النبوى – كثرة كغثاء السيل ، والغثاء ، ما يحمله السيل من حطب وورق ، وأعواد وغيرها ، مما يتصف بالخفة والسطحية وعدم التجانس وفقدان الهدف .

كما أشار هذا الحديث إلى أن الوهن الحقيقى يبدأ داخل الأنفس ، وإن كان معها العتاد والسلاح ، إنه حب الدنيا وكراهية الموت ! .

لقد أسقط إخواننا المجاهدون الأفغان بصمودهم العبقرى حجة أولئك الذين يقولون : ماذا نستطيع أمام القوى العالمية ؟

أجل ، أثبت الذين بدأوا جهادهم ببضع بنادق عتيقة ، ثم غنموا السلاح بعد ذلك من عدوهم : أن الإيمان خليق أن يصنع العجائب وأن يجعل من الأميين وأشباههم قوة تحتار فى أمرهم الدولة الكبرى الثانية فى العالم [1] .

---

(١) وكما أثبت ذلك (جيل الحجارة) من ابناء فلسطين فى حركة المقاومة الشعبية الإسلامية الباسلة التى أقضت مضاجع إسرائيل .

كما أثبت الصائمون القائمون فى حرب العاشر من رمضان أن إسرائيل ليست كما زعموا القوة التى لا تقهر ، فقد استطاعوا أن يعبروا القناة ، ويقتحموا خط بارليف ، ويقهروا القوة المزعومة .

وقديمًا قالوا عن التتار مثل ما قالوه حديثًا عن إسرائيل ، قالوا : إذا قيل لك : أن التتار قد انهزموا فلا تصدق .

وبعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وانتشار الرعب فى العالم كله من هؤلاء الغزاة الجدد المدمرين ، رفض القائد المملوكي سيف الدين (قطز) تهديد قائد التتار ، وإنذاراته التي تقذف بشر الوعيد والتهديد ، بل بادر بقتل رسله إليه ، على غير ما عرف من سنة المسلمين ، إيذانًا بأن لا سبيل غير الحرب ولا بديل للصدام المسلح .

وكان اللقاء التاريخي الحاسم فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ فى معركة (عين جالوت) وسجل التاريخ النصر لقطز وجنوده من أبناء مصر على جيوش التتار ، ولم يمض على سقوط بغداد إلا عامان ! .

كان مفتاح النصر في تلك المعركة كلمة قطز التى أطلقها كالقنبلة المدوية (وا إسلاماه) !

إن معركتنا مع إسرائيل فى جوهرها معركة دينية ، وإن اتخذت أبعادًا سياسية واقتصادية وقومية .

بل إن القومية فى النظرة اليهودية الأصيلة ، ممتزجة بالدين امتزاج الجسم بالروح ، فلا معنى للقومية عندهم بغير دين ، وعندهم ثالوث مقدس ممتزج بعضه ببعض : الإله .. والشعب .. والأرض .

وليس من المنطق ولا من الأمانة ، ولا من المصلحة إخراج الإسلام من المعركة مع الصهيونية ، تحت دعاوٍ لا يسندها علم ولا برهان ، إلا مخاوف ومجاملات .

والنتيجة أن ندخل المعركة مع العدو وهو مسلح بتعاليم التوراة وندخلها نحن مجردين من تعاليم القرآن .

أكد زعماء اليهود (دينية) قضيتهم قبل قيام إسرائيل ، وبعد قيامها ، فمنذ أواخر القرن الماضى قال هرتزل : إن العودة إلي صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية .

وما أحرانا أن نقول : إن العودة إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة إلى الإسلام ، وما زال زعماء إسرائيل إلى اليوم يقودون أتباعهم بوعود التوراة ، وأحلام التلمود ، وأقوالهم فى ذلك لا تحصى .

فماذا صنعنا نحن فى مواجهتهم ؟

لقد قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق لقائده المظفر خالد بن الوليد فى إحدى وصاياه : حارب عدوك بمثل ما يحاربك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح .

وهذا منطق لا غبار عليه من الوجهة العسكرية المحضة ، فإذا كان عدونا يحاربنا بالدين حاربناه بالدين أيضًا ، فإذا جند عدونا جنوده باسم « يهوه » إله إسرائيل جندنا جنودنا باسم الله رب العالمين ، وإذا دفع جنوده باسم اليهودية ، دفعنا جنودنا باسم الإسلام ، وإذا قاتلنا بالتوراة قاتلناه بالقرآن ، وإذا جاءنا تحت لواء موسى ، جئناه تحت لواء موسى وعيسى ومحمد ، فنحن أولى بموسى منهم ، وإذا ذكروا نبوءات « أشعيا » ذكرنا نحن أحاديث البخارى ومسلم .

وإذا حاربنا من أجل الهيكل حاربناه من أجل المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

وإذا قال عدونا لجنوده : أنتم شعب الله المختار ، قلنا لجنودنا : أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وبهذا نكون نحن المتفوقين ، لأننا أصحاب الدين الأقوى ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

لابد من التعبئة الإيمانية للأمة إذا أردنا النصر ، ولا تتم التعبئة الإيمانية إلا بالتعبئة الأخلاقية ، فالأخلاق ثمرة الإيمان وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا عهد لمن لا خلق له .

فإذا لم نربِ فى الأمة معانى الخشونة والتضحية والصبر على المكاره ، والانتصار على الشهوات والاستعلاء على الغرائز ، والعفة عن الحرام ، والبعد عن الميوعة والطراوة وأخلاق المخنثين ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال - فهيهات أن نصمد فى وجه العدو أو نصبر على حر المعركة ، أو نحتمل شظف الجهاد .

إن أمتنا انتصرت قديمًا على اليهود وطهرت جزيرة العرب من شرهم ، لأنها كانت الأمة الأقوى إيمانًا وأخلاقًا .

كان اليهود أحرص الناس على الحياة - كما وصفهم القرآن [١] - وكنا أحرص الناس على الموت فى سبيل الله .

كانوا - كما وصفهم الله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [٢] وكنا كما خاطبنا الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [٣] .

كانوا كما خاطبهم القرآن : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [٤] . وكنا كما وصف الله المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [٥] .

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلــوه ، وكنا كما خاطبنا ربنا ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٦] .

كانوا يعبدون الذهب . حتى أنهم عبدوا عجلاً اتخذ من حلى وكنا نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا ، ولا أحداً .

كانوا كما خاطبهم الحق تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[٧] . وكنا كما خاطبنا جل جلاله ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾[٨] .

كانوا يأكلون الربا وقد نهوا عنه ويأكلون أموال الناس بالباطل ، وكنا نحرم الربا قليله وكثيره . ونخاف الدرهم الحرام ، واللقمة الحرام ، فإن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به .

كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وكنا نحن حماة الرسالات ، والذائدين عن حمى الدعوات .

أما الآن فقد تغيرت أنفسنا عما كانت عليه ، وأصابنا رذاذ من أخلاق اليهود ورذائل اليهود ، الحرص على الحياة .. التفرق ، القسوة ، الأنانية ، تحريف الكلم عن مواضعه ، الإيمان ببعض الكتاب دون بعض .. أكل الربا ، قتل الدعاة إلى الله ، السكوت على الفساد ، وعدم التناهى عن المنكر .

---

(١) فى الآية ٩٦ من سورة البقرة : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ .

(٢) سورة الحشر : آية ١٤ . (٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة : آية ٧٤ . (٥) سورة الأنفال : آية ٢ .

(٦) سورة آل عمران : آية ١١٠ . (٧) سورة البقرة : آية ٨٥ .

(٨) سورة آل عمران : آية ١١٩ .

فاستوينا مع اليهود فى الرذيلة والمعصية ، وكان لهم الفضل علينا فى مجالات أخرى : فى التخطيط والتنظيم وحسن التعبئة لكل القوى المادية والبشرية .

بل أقول : إن اليهود قد سرقوا بعض أخلاقنا وبعض فضائلنا ، فى الوقت الذى نقلوا هم إلينا رذائلهم القديمة ، أو نقلناها نحن راضين مختارين ، بعد أن حقنونا بالحقن الفكرية المخدرة التى تجعلنا نستسلم لكل ما يصنعونه لنا من أزياء و « مودات » لنسـائنا مما عند الركبة ، وفوق الركبة ، وما فوق فوق الركبة .. ومن تقاليع تدمّر شبابنا ، وتميت فيهم كل روح للخشونة والجهاد . إلى جوار (المودات) الفكرية التى لا تعرى السيقان أو الأذرعة ، بل تعرى الرؤوس من الفكر ، والقلوب من اليقين .

إن اليهود الذين عرفوا بعبادة الذهب أصبحوا يبذلون الملايين عند الحاجة لتحقيق فكرتهم وبناء دولتهم . وأغنياؤنا مشغولون بالرحلات المترفة إلى أوروبا وغيرها حيث ينفقـون مئات الألوف على اللهـو والفـراغ والعبث والمجـون أو الدعاية الجوفاء ، فإذا طالبتهم ببذل دفعوا لك دراهم معدودات ، لا تسمن ولا تغنى من جوع !! .

إن اليهود « الجبناء » قد دربوا أبناءهم – بل وبناتهم – على أن يكونوا جميعاً حين يدوى النفير جيشاً مقاتلاً – لا يتخلف منهم أحد ، وأبناؤنا وبناتنا– نحن المهزومين – مشغولون بتوافه الأمور ! .

فلا غرابة بعد ذلك إذا خذلتنا رذائلنا ، وانتصر اليهود علينا ، فإنما هو انتصار للقوة على الضعف ، وللنظام على الفوضى . وللبذل على البخل ، وللجد على الهزل . وللعمل على الفراغ .

إن الإسلام يستطيع أن يصنع الكثير والكثير ، فى معركتنا مع العدو الصهيونى المتغطرس إذا جعلنا قضية فلسطين (قضية إسلامية) فهى قضية كل مسلم فى المشرق والمغرب .

إنه القادر على أن يشحذ العزائم ، ويعبىء القوى ، ويجمع الصفوف حينما ينادى المنادى : الله أكبر ، الله أكبر ! وحينما ينشد الجندى : يا رياح الجنة هبى ! .

إنه القادر على أن يحشد مائتى مليون من العرب ، ووراءهم نحو تسعمائة مليون من المسلمين فى أنحاء العالم ، يذكرون فلسطين كلما ذكروا الإسراء والمعراج أو ذكروا المسجد الأقصى .

ولقد رأينا بأعيننا ما يمكن أن تفعله كلمة الإسلام فى دنيا السياسة ، حين انطلق الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - وخاطب باسمها الدول الإفريقية المسلمة وعرف الناس صدقه ونقاءه ، فقطعوا علاقتهم بإسرائيل دولة بعد دولة ،

إن الإسلام هو الحل ، ولكننا لا نريده ، لماذا ؟ الجواب يطول ،

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمـــول !

* *

٦ – هَمُّ التفرق والتمزق

لقد مر على الوطن العربى قرون كثيرة كان فيها جزءاً من دولة كبرى ، بل كان عقلها المفكر ، أو قلبها النابض ٠

كان هكذا فى عهد الراشدين ، وفى عهود الأمويين والعباسيين والعثمانيين حتى زحف الاستعمار الغربى على دار الإسلام ، واقتسم بلاد الخلافة (تركة الرجل المريض) كما كانوا يسمونها ، ووزع الوطن العربى – قلب الخلافة العثمانية – بين المستعمرين كما توزع الغنائم والأسلاب ، فلإنجلترا : مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين وبلاد الخليج (ما عدا السعودية) ٠ ولفرنسا : سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش (المغرب) ٠ ولإيطاليا : ليبيا والصومال وإرتيريا ٠

المهم أن هذه التجزئة أو هذا التفتيت للوطن العربى ، قد أصبح حقيقة سياسية ، تغذيها مشاعر (الوطنية) المستوردة ، التى لم يكن يعرفها المسلمون من قبل ، حيث لم يكن الولاء للإقليم وارداً فى ذهن المسلم ، إنما كان ولاؤه للإسلام ، ودفاعه عن (دار الإسلام) ٠

وساعد على تأجيج هذا الشعور وإلهابه حركات المقاومة ، التى قامت بها الشعوب ضد تسلط المستعمر الأجنبى ٠

وما أن نالت استقلالها وتحررها من نير المحتل الأجنبى ، حتى نسيت أنها كانت مع أخواتها كياناً أو جزءاً من كيان واحد كبير ، ووجد كثيرون مصالحهم فى استبقاء هذا التقسيم ، مبررين ذلك بدعوى الوطنية والولاء للوطن ٠

وانتهى الأمر بأن أصبح فى هذا الوطن الواحد – الذى كان جزءاً من وطن واحد أكبر – يضم أكثر من عشرين دولة ، كل دولة لها اسمها وعلمها ودستورها وجيشها وتمثيلها ٠٠ الخ ٠

وغدونا ننظر إلى خريطة العالم فنجد دولاً منها ما يزيد تعداد إحداها عن ألف مليون نسمة كالصين ، ومنها ما قد يصل إلى سبعمائة مليون كالهند ، ومنها ما يقارب الثلاثمائة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠

ولكن إذا جئنا إلى خريطة الوطن العربى ، نجد فيها دولاً تكاد تحتاج إلى المجهر حتى تراها على الخريطة المصغرة ٠

وليتها حين تعددت لسبب أو لآخر ، ولم تستطع أن تتوحد فيما بينها – وهو ما ترجوه شعوبها من زمن طويل – تقاربت وتضامنت تضامناً حقيقياً ، يتصاعد ويقوى يوماً بعد يوم ، حتى يستحيل إلى وحدة فعلية .

ولكنها – للأسف كما هو واقعها اليوم – تتباعد وتتجافى فيما بين بعضها وبعض إلى حد المقاطعة السياسية ، بل الحرب الإعلامية ، بل الحرب العسكرية فى بعض الأحيان . وبعد أن كنا نتحدث عن الصراع العربى الإسرائيلى ، أصبح جل حديثنا عن الصراع العربى العربى ! .

وحسبنا ما يجرى فى لبنان من أنهار الدماء ، من أكثر من عشر سنوات ، دون أن يستطيع العرب وقف هذا النزيف .

بل عجز العرب عما دون ذلك ، وهو أن يعقدوا مؤتمراً للقمة يحاولون به تقريب الصفوف ، وتهدئة الأمور ، وإن لم يعالج القضايا من جذورها .

لقد قال شوقى : « إن المصائب يجمعن المصابين » والعرب تحل بهم مصائب كبيرة ، وهموم من كل صوب ، وتكفى مصيبة إسرائيل وحدها ، لتجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ، ولكنهم ازدادوا فرقة واختلافاً . وانعكس هذا على فصائل المقاومة الفلسطينية حتى قاتل بعضهم بعضاً .

بل إن البلدين العربيين المتجاورين ، اللذين يحكمهما حزب واحد ، (يسارى تقدمى !) بينهما من الجفاء والعداء والتربص ما لا يخفى على أحد .

بل البلد الواحد الذى يحكمه حزب واحد ، انقسم على نفسه ، وبات (الرفقاء) يقاتل بعضهم بعضاً بالطائرات والدبابات ، كما رأينا فى اليمن الجنوبى .

إن هذا التفتت أو التمزق الذى تعانيه أمتنا قد أصاب الوطن العربى كله بالضرر البالغ فى جميع نواحى الحياة ، وعلى كل الأصعدة : سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وتكنولوجياً .

فعلى صعيد السياسة : لم يعد لنا وزن دولى ، لأن وزننا فى وحدتنا ، وليس لدولة منا وحدها وزن مؤثر فى المحيط العالمى الذى توجهه الكتل الكبيرة .

بل كان تفرقنا سبباً فى ضعف كل منا بمفرده ، فذهب يبحث عمن

يقوى به فى معسكرات الشرق أو الغرب ، وأدى هذا إلى أن يكون منا موالون للغرب ، وآخرون موالون للشرق ، ولكل من الفريقين سياسات لا يقبلها الفريق الآخر .

بل رأينا القضايا التى تشبه أن تكون بديهية لا تحتمل الخلاف ، نختلف فيها ، مثل قضية الغزو السوفييتى لأفغانستان ، فهذا مرفوض بكل المقاييس ، ولكن وجدنا من الدائرين فى فلك السوفييت من يؤيد الغزو الأحمر ، ويدين المجاهدين الأبرار الذين بيضوا ببسالتهم وجه الإسلام .

وعسكرياً : عجزنا – ونحن مائة وخمسون مليوناً – عن مواجهة إسرائيل، ذات الثلاثة ملايين ! .

وقد سئل أحد العرب الحصفاء سنة ١٩٦٧ م : كيف هزمتم أمام إسرائيل وأنتم عشرون دولة ؟! فقال بحق : هزمنا ، لأننا عشرون دولة أمام دولة واحدة !!.

لقد تخاذلنا حتى توهم بعضنا أنه يمكنه أن يحل مشكلته بنفسه بصلح منفرد عن الآخرين ، وليحترق الباقون . وهو وهم عريض ، وتفكير مريض ، إنما هو تقسيم للمعركة إلى مراحل ، وكل فريق له يومه الآتى لا ريب فيه ، ويومئذ يوفى حسابه ، المهم ألا يقف الجميع صفاً واحداً ، كما حثهم الله في كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(١) .

واقتصادياً : لم نستطع أن نقيم تكاملاً فيما بيننا ، ونحقق اكتفاء ذاتياً في أبسط الأشياء وهى المواد الغذائية ، وفى الصناعة لم نقدر على إقامة صناعة ثقيلة مدنية أو عسكرية ، بل لم نحقق ما هو أقل من ذلك ، وهو صناعة المحرك (الموتور) فى حين أن بلداً كالهند صنع السيارة ، بل صنع الطائرة ، بل صنع– أكثر من ذلك – القنبلة النووية . إن (الكم) أو العدد ، أو الكثافة البشرية، شرط مهم لقيام صناعات كبرى ، ولهذا يمكننا أن نقيم بالاتحاد والتضامن ما نعجز عن إقامته متفرقين .

و (**تكنولوجيًا**) : لم نزل فى ألف باء التكنولوجيا ، وما قلناه فى شأن

---

(١) سورة الصف : الآية ٤ .

الاقتصاد ، نقوله فى شأن التكنولوجيا ، إننا لا نستطيع أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة آحاداً متفرقين ، بل إنما ننجح إذا دخلناها كالمقاتلين صفاً كالبنيان المرصوص .

إن الموقف ردئ كل الرداءة ، ولا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام الصحيح ، إن العرب لا يجتمعون إلا على رسالة يعتصمون بحبلها ، تجندهم وراءها صفوفاً كما جندتهم نبوة محمد ﷺ .

وإذا كان بعض الأحزاب العربية يرفع شعار « أمة واحدة ذات رسالة خالدة » فلن تتحد هذه الأمة على غير القرآن ، ولا يستطيع أحد أن يخترع لها رسالة غير رسالة الإسلام .

إنها الرسالة التى هدتها من ضلالات الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى النور ، ونقلتها من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

كما قال ربعى بن عامر رضى الله عنه .

وهى التى خلدت ذكر العرب فى العالمين ، وجعلت لهم لسان صدق فى الآخرين ، وهى لا تزال رسالتهم إلى العالم ، نزل كتابها بلسانهم ، ونشأ رسولها من بينهم ، والإيمان بها والحماس لها هو - وحده - الذى يرأب صدعهم . يقول القرآن : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

إن التيار الوحيد الذى يمكنه أن يحوز الأغلبية التى تقارب الإجماع ، هو تيار الوسطية الإسلامية .

إنه وحده القادر على أن يحشد الجماهير المؤمنة العريضة فى ساحته ، وأن يجندها لتمضى خلفه ، متناسية ما بينها من فوارق .

وهو وحده الذى يستطيع أن يجمع أغلبية النخبة من خلفه إذا تحررت من أغلال الغزو الثقافى ، وهو يكسب يوماً بعد يوم منها أعداداً غير قليلة .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

وهو وحده القادر بمنهجه المتوازن على أن يجمع العرب المختلفين ، حيث يؤمن الجميع بأصوله الربانية .

إن الاجتماع على الشريعة منهاجًا – بعد الاجتماع على العقيدة ، منبعًا وأساسًا من شأنه أن يجمع الكلمة الشتيتة ويوحد الصف المفترق .

أما الإعراض عن الإسلام وشريعته ومنهاجه ، واتخاذ مناهج وضعية بشرية، فهو جدير أن يفرقنا شيعًا ، ويجعلنا طرائق قددًا : فئة تتجه إلى اليمين، وأخرى تتجه إلى اليسار ، واليمين درجات ، واليسار درجات ، وبينهما مسافات ومسافات من يمين اليمين إلي يسار اليسار ، ولكل منهم قبلة يرضاها ، وجهة يتولاها ، ولهذا لا يتصور مع هذه التعددية المتنافرة المتباعدة المتناقضة ، أن تتحد الكلمة وهو ما حذر منه القرآن حين قال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

* *

● سؤال وجوابه :

قد يقول قائل : إننا نوافقكم على أن الاعتصام بحبل الإسلام ، واعتماده منهاجًا للحياة ، يقضي على أنواع من التفرق ، ولكنه يخلق تفرقًا من نوع آخر .

إنه يقضي على التفرق إذا كان منشؤه العصبية العرقية ، أو العصبية الإقليمية ، أو التناقضات الأيديولوجية ، أو الأهواء السياسية ، حين يحكم الجميع منهج الإسلام ، وأخوة الإسلام ، وأخلاق الإسلام .

وهو – وإن كان صعب المنال – أمر متصور ، إذا سرت روح الإسلام ، وهبت ريح الإيمان ، نتيجة التوجه الصادق ، والتوجيه الدؤوب ، والتربية المستمرة .

ولكن لا ننسى أن هذا الالتزام بالإسلام ، سيثير عصبيات واختلافات أخر غير تلك التي تحدثتم عنها . ونعني بها عصبية الأقليات الدينية ، طائفية ومذهبية وفكرية .

ففي بلد كمصر مثلاً ، يثير الحكم بالإسلام عصبية الأقباط المسيحيين ،

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .

وفى السودان عصبية الجنوبيين ، وفى بلاد كالخليج ، يثير الحكم الإسلامى عصبية الشيعة على الأغلبية السنية .

وغير هؤلاء وأولئك سيثير الحكم الإسلامى خلافات المعارضين ، للاتجاه الفكرى السائد ، فإذا افترضنا أن الاتجاه الذى قاد وحكم هو فكر الإخوان المسلمين المعتدلين ، فإننا نتوقع أن يعارضه جماعات السلفيين والتحريريين ، والجناح المتطرف داخل حركة الإخوان المسلمين أنفسهم .

وأود أن أقرر هنا جملة أمور :

١ ـ أن اتفاق جميع الناس على أمر واحد شىء متعذر ، بل مستحيل ، حتى أنهم لم يتفقوا على أعظم الحقائق ، وهى الإيمان بالله الواحد .

ولهذا يكفى فى أمر ما أن تتفق الأغلبية .

٢ ـ أن الاختلاف ذاته لا يضر ، إنما الذى يضر ويدمر هو التفرق والعداوة .

ومما يسهل أمر الخلاف أن يعلم الجميع أنه واقع بمشيئة الله تعالى وحكمته ، فلا يطمح أحد فى استئصاله ، وجمع الناس كرهًا على مبدئه ، يقول القرآن ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (٢) .

أما الفصل بين المختلفين وأيهم على حق ، فموعده يوم القيامة ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) . ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

٣ ـ أن العصبية الطائفية ليست وليدة الالتزام بالإسلام ، فقد رأينا بلادًا علمانية تقوم فيها خلافات بل مذابح طائفية .

وأبرز مثل لذلك فى وطننا العربى ، لبنان ، وما يجرى على أرضه من أهوال وما وقع ويقع إلى اليوم من مجازر بشرية تشيب لها الولدان ، ولبنان علمانى قح .

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٩ .   (٢) سورة هود : الآية ١١٨ .

(٣) سورة الحج : الآية ٦٩ .   (٤) سورة الشورى : الآية ١٥ .

وفى خارج الوطن العربى ، نرى الهند ، وما يحدث فيها بين الهندوس والسيخ ، وبين الهندوس والمسلمين ، مما سارت بذكره الركبان ، والهند بلد علمانى عريق .

٤ — لابد إذن من البحث عن أسباب أخرى لنمو النزعة الطائفية ، ومن هذه الأسباب :

(أ) وجود عدو مشترك من مصلحته أن يفرق بين جميع الطوائف ، ويضرب بعضهم ببعض ، وهو فى النهاية الرابح ، وهى فلسفة استعمارية معروفة « فرق تسد » .

(ب) وقوع ظلم من أحد الفريقين للآخر : إما من الأكثرية القوية بعددها فتجور على حق الأقلية فى إثبات وجودها الدينى ، والتعبير عنه فى حياتها العملية . أو من الأقلية المسنودة من أطراف خارجية فتستأثر بامتيازات على حساب الأكثرية ، وتتعالى عنها .. أو تريد أن تأخذ أكثر من حقها ، وأكبر من حجمها ، على حساب الأكثرية .

(جـ) وجود أهواء ومصالح شخصية لبعض العناصر من هذا الطرف أو ذاك ، تستفيد من الصراع الظاهر والخفى ، وتصطاد فى الماء العكر ولا تبالى فى سبيل مصالحها الخاصة أن تهدم وطناً بأسره .

(د) سوء فهم الأطراف المختلفة بعضها لبعض كتحميل وزر الحوادث الفردية للطائفة كلها ، وتصديق الشائعات وتفسير الوقائع على غير حقيقتها .

(هـ) ترك زمام الأمور للمتطرفين والمتعصبين المهيجين من كلا الفريقين الذين يجعلون من الحبة قبة . وتأثير ذلك على العوام والغوغاء الذين يندفعون بعواطفهم ، ولا يفكرون بعقولهم ، ويستثارون بأدنى شىء ، وابتعاد العقلاء والحكماء عن التصدى للأمر ، بما يليق به من حكمة وأناة ، تضع الأمور فى نصابها .

(و) فقدان الصراحة فى علاج هذه الأمور ، والتركيز على المواطنة دون اهتمام بالرابطة الدينية ، جرياً وراء الكلمات الغامضة « الدين لله ، والوطن للجميع » ، فلا المسلم ، ولا المسيحى مستعد أن يترك دينه لأى شىء ولا لوطنه ، فالواجب أن تحل المشكلة الطائفية فى ضوء التوجيهات الدينية لكل من الفئتين ، وإزالة المخاوف والهواجس والرد على الأسئلة المثارة بوضوح حتى تطمئن الأنفس ، القلقة ، وتهدأ القلوب الثائرة .

(ز) من الخير لكل من المسلم والمسيحى أن يتعامل مع صاحبه وهو متمسك بقيمه الدينية ، وهى قيم أخلاقية ، وربانية وإنسانية عليا ، تلزمه بمراقبة الله فى كل علاقاته وتصرفاته .

فهذا أصلح وأنفع من التعامل فى أجواء النفاق السياسى الذى يزعم أن الدين بعيد عن الموضوع كله .

وأصلح كذلك من تنحية الدين جانباً بالفعل ، وتعامل الجميع بوصفهم علمانيين ، بلا دين .

فالمسلم الملتزم بأحكام دينه ، المراقب لربه فى سره وعلانيته أفضل – فى علاقته بالمسيحى – من المسلم المتفلت الذى لا يعرف الله ولا يتقيه .

وكذلك المسيحى الملتزم بدينه ، المتبع لتعاليم الإنجيل الحقة ، وكلها تحض على المحبة والتسامح والإيثار ، أفضل يقيناً – فى علاقته بالمسلم – من المسيحى الذى لا يعرف من المسيحية ، إلا الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، وتعليق الصليب .

* *

٧ - هَمُّ التحلل والتسيب

ليس تأخير الحديث عن هذا الهم لأنه أقل أهمية ، أو لأنه دون غيره فى ترتيب الهموم . بل لعل العكس هو الصحيح ، إذا أردنا وضع الأمور فى نصابها .

إن المراقب لما يجرى فى وطننا العربى على امتداده من المحيط إلى الخليج - وفى وطننا الإسلامى من المحيط إلى المحيط - فى العقود الأخيرة خاصة ، يجد هذه الظاهرة واضحة وضوح الشمس . ظاهرة التحلل والتسيب الأخلاقى الذى عشش وأفرخ فى مجتمعاتنا التى طالما زهيت بأنها مجتمعات أخلاقية .

وقارئ الصحف العربية لا يعدم كل يوم فضيحة من الفضائح وجريمة من أكبر الجرائم ، من نهب للمال العام - إلى لصوصية منظمة من كبار القوم (المحميين) أو (المحسوبين) إلى رشا [١] وعمولات تبلغ الملايين ، إلى احتيال وتزوير ، أو انتهاك للحرمات والقوانين ، إلى جرائم العربدة والسكر ، والفجور والعُهر ، وتناول المخدرات والسموم البيضاء ، والاتجار بها ، والإثراء من وراء تهريبها . إلى غير ذلك مما يعرفه الخاص والعام ، على أن هناك أشياء تعرف ولا تنشر وأشياء تحدث ولا تعرف فى حينها .

وهذا - من ناحية - نتيجة لسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ﴿ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [٢] .

ومن ناحية أخرى هو سبب لها أيضًا ، فإن فساد الأخلاق يفسد الحياة كلها وهو الذى يدمر الأمم ويأتى على بنيانها من القواعد .

ورحم الله أحمد شوقى حين قال :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتمًا وعويلاً

ومثل هذا الوضع لا يجوز السكوت عليه ، لأن الزمن هنا ليس جزئًا من العلاج ، كما يقال ، بل مضى الزمن يزيد الجسم علة والطين بلة ، إذا لم نسارع بالعلاج الناجع الصحيح .

---

(١) رشا : جمع رشوة .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

ولن نجد علاجًا لهذا الداء إلا من طب الإسلام ، وصيدلية الإسلام ، وهذا ما تؤمن به الصحوة الإسلامية ، بل ما تقوم به الصحوة بالفعل ، وما يجب على كل التيارات والمدارس الأخرى أن تعينها عليه ، لأن ثمرة نجاحه للجميع ، ومضرة إخفاقه على الجميع .

* *

● أساس التغيير المنشود :

إننا متفقون على ضرورة التغيير والإصلاح ، ولكننا مختلفون على المنهج والطريق . وقبل ذلك : على منطلق التغيير .

وإن من أكبر الأخطاء أن نحلم بالإصلاح والتغيير ، ولا نعمل له ، ولا نسعى له سعيه ، ولا نسلك إليه طريقه ، مستبينين الوجهة والغاية .

ونحسب أن الإصلاح أو التغيير يهبط علينا من السماء هبة من الله . والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ولا إصلاحًا ، ولا تنزل ملائكة يتولون أمر إصلاح البشر ، وإنما البشر هم الذين يصلحون أنفسهم .

إن التغيير يجب أن يبدأ منا أولاً ، من داخلنا .

إن قانون القرآن الصلب أن الأقوام — أو المجتمعات — لا تتغير بأمر قدرى سماوى ، بل بجهد بشرى أرضى ، وهو جهد يتجه إلى الأنفس قبل كل شيء . ليغير ما بها من صفات رديئة فاسدة ، إلى صفات طيبة صالحة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(1) .

وإذا كان شعار الماركسية : غير الاقتصاد وعلاقات الإنتاجية يتغير التاريخ، فإن شعار القرآن : غيروا أنفسكم يتغير التاريخ !

وتغيير ما بنفس الإنسان ليس بالأمر الهين السهل ، كما يتصور بعض الناس ، فليس بمجرد الوعظ والإرشاد يتغير ما بنفس الإنسان ، وليس بالأوامر العسكرية يتغير الإنسان ، ولا باللوائح الإدارية يتغير الإنسان ، ولا بالتنظيمات الشكلية يتغير الإنسان ، إنما يتغير الإنسان من داخل نفسه ، بتغيير أهدافه ومثله ومعتقداته وقيمه وتصوراته، ومفاهيمه، بإضاءة عقله ، وإحياء ضميره ،

---

(1) سورة الرعد : الآية 11 .

وإيقاظ وجدانه ، وشحذ إرادته ، وتزكية نفسه، وتهذيب سلوكه. وهذا يحتاج منا إلى إعادة بناء الإنسان فى وطننا الكبير .

* *

● إعادة بناء الإنسان :

وهذا أكبر ما يشغل الصحوة اليوم ، ويحظى باهتمامها الأول : هو إعادة بناء الإنسان العربى المسلم ، حتى يستطيع أن يقوم بدوره الكبير فى عالم الغد .

إن الإنسان فى أوطاننا قد تعرض لتخريب خطير من داخله ، تخريب جعله لا يهتم إلا بذاته دون النظر إلى الجماعة أو الوطن أو الأمة . ولا يهمه من ذاته إلا جانبها المادى ، فهو يلهث وراء المنفعة واللذة فحسب ، والمنفعة التى يسعى وراءها هى منفعته هو ، ومنفعته المادية ، والآنية أيضاً . إنه لم ير فى نفسه إلا الطين ، والحمأ المسنون ، أما نفخة الروح .. أما جوهر الإنسان .. فهو فى شغل عنه ، بل هو يكاد لا يعرفه ولا يؤمن به ، فلا يبحث عنه .

لقد كان أول ما بدأ به النبى ﷺ هو بناء الإنسان بتحريره من أباطيل الشرك ، وأهواء الجاهلية ، وترسيخ عقيدة التوحيد فى نفسه ، ومعانى الإيمان فى قلبه ، ومكارم الأخلاق فى حياته ، وتطهير رأسه من ضلال الفكر ، وإرادته من شهوات الغى ، وعلى هذا ربى الجيل المثالى الأول ، الذى امتحن فصبر وأعطى فشكر ، وثبت على السراء والضراء ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وتحمل عبء نشر الدعوة ، وإقامة الدولة ، وتربية الأمة ، وحماية الحوزة ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف ولا استكان .

وكان هذا هو مفتاح النجاح الحقيقى لكل ما حدث بعد ذلك من روائع الإنجازات .

* *

● جوهر أزمتنا أخلاقى :

إن أزمتنا الكبرى — فى جوهرها — أزمة روحية أخلاقية ، أزمة إيمان وأخلاق . ولسنا من الغفلة والسذاجة ، بحيث نجحد أن أزمتنا فى عدد من جوانبها وأبعادها ، اقتصادية وسياسية ، وإدارية وعلمية وتكنولوجية .

فهذه الجوانب والأبعاد مسلمة لا ريب فيها ، ولكن جذورها وأسبابها – في التحليل النهائي – تعود إلى انطفاء جذوة الإيمان والأخلاق .

إن لنا عشرات السنين نشكو من استبداد الطغاة ، وطغيان المستبدين وتحكمهم في جماهير شعوبنا كأنهم قطعان تساق ، لا آدميون يفكرون ويشعرون وفقدان المؤسسات الديمقراطية التي تحمي حريات المواطنين أمام عسف الحكومات .

ما علة هذا ؟ إنه ضعف الإيمان والأخلاق لدى الحاكمين ، ولدى المحكومين جميعًا .

إنه التأله الفرعوني ، والاستكبار الهاماني ، والبغي القاروني ، مع الوهن النفسي والخلقي الذي أصاب الناس ، ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١) . ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ (٢) .

إنه الوهن المتمثل في (حب الدنيا وكراهية الموت) لدى الناس ، فكل يقول : نفسي نفسي ، ولا يريد أن يضحي ويبذل من أجل أمته .

إن تمسك الحكام بكراسيهم ، واستماتتهم في سبيلها واستعانتهم للبقاء فيها بكل منافق ودجال ، وإن كان أجهل الناس ، وأنجس الناس ، بل ربما استعانوا بأعداء دينهم وأمتهم لتثبيتهم وتمكينهم هو الذي أضاع البلاد ، وأذل العباد .

إن معظم التمزق والتفرق الذي نعانيه بين أقطارنا وحكوماتنا ، ليس أساسه اختلاف الأفكار والسياسات ، بقدر ما هو اختلاف الأهواء والأغراض والمصالح لدى القابضين على أزمة الحكم والقيادة .

إن الديون التي تحسب الآن بعشرات المليارات في بعض البلاد العربية ، والتي غدت أطواقًا تكبلها ، وأغلالاً تزرح تحتها ، دون أن تستفيد منها لمستقبل أجيالها ، وبناء غدها .. إنما تمت على أيدي أناس لا يراقبون الله ، ولا يخافون سوء الحساب ، ولا يبالون أن يدمروا قومهم في سبيل بناء مصالحهم الشخصية .

إن شيوع المخدرات والسموم بين الشباب ، وشراءها بمئات الملايين في وقت يحتاج فيه الناس إلى كل درهم وفلس ، وراءه فساد أخلاقي كبير .

---

(١) سورة هود : آية ٩٧ .   (٢) سورة الزخرف : آية ٥٤ .

إن جماهير غفيرة من الناس تأكل الحرام ولا تبالى ، لا يحللون اللقمة التى تدخل أجوافهم ، وتقيم بنيانهم ، لأنهم يستوفون أجورهم ولا يعملون ، وإذا عملوا لا يتقنون . فهم يأخذون من الحياة ولا يعطون .

وآخرون يبنون أنفسهم بهدم غيرهم ، ويشيدون ثرواتهم من عرق الآخرين ودمائهم .

إن كثيراً من الخطط الفاشلة ، والقرارات الباطلة والسياسات القاتلة ، إنما دفع إليها استرضاء فئات من الناس على حساب الحق ، أو تملق آخرين ولو بخراب الوطن ، أو التخلص من حرج اليوم ولو بتحميل المتاعب والخسائر كلها على الغد .

إن السباق المجنون على الاستهلاك ، وخصوصًا للسلع المستوردة ، والتباطؤ المميت في الإنتاج ، وخصوصاً فى الزراعة والصناعة ، كل ذلك يمثل بعض ما نعانيه من أزمة الإيمان والأخلاق .

لقد غدونا – للأسف – نتكلم ولا نعمل ، ونقول ولا نفعل ، ونستورد ولا ننشىء ونستهلك ولا ننتج ، ونستقبل ولا نرسل ، ونقلد ولا نبتكر ، وباختصار : نهدم ولا نبنى ، ونميت ولا نحيى .

إن هذا يجعلنا نزداد إيمانا بأن مهمتنا الأولى يجب أن تكون تجديد الإيمان والأخلاق ، وبعث الحياة فى الجسد الهامد ، حتى يجرى فى عروقه الدم، وينهض إلى الانطلاق والعمل من جديد .

إن أمتنا فى حاجة إلى روح جديد يسرى فى كيانها ، ينشئها خلقًا آخر ، يغير فلسفتها ونظرتها إلى الحياة ، وإلى الأشياء ، ويبدل نمط حياتها الحالى المتواكل المتثائب ، إلي نمط منتج فعال .

إن المادية ، والأنانية ، والطفيلية ، والوصولية ، والانتهازية ، والنفعية وغيرها من الرذائل المدمرة ، يجب أن تطارد حتى تختفى من دنيانا .

إن منكرات الارتجالية والعفوية ، والانهزامية والمحسوبية والشللية ، وألوان الغش التجارى والثقافى والتربوى والسياسى وغيرها من الآفات التى ذاعت وشاعت يجب أن تقاوم حتى تطهر ساحتنا منها .

إن رذائل الفوضى واللامبالاة،والتواكل، والكسل ، والعجز ، والتسويف وضعف الإنتاج ، وسوء الاستهلاك ، وتدمير المال العام ، كلها يجب أن تحارب

كما يحارب الدرن والبلهارسيا وغيرها ، بل هى أخطر على الأمم من كل الأمراض المتوطنة والوافدة .

* *

● إمكانات تيار الصحوة :

إن تيار الصحوة الإسلامية هو التيار الوحيد الذى يخاطب الجماهير فيُسمعها ويُفهمها ، وينفذ إلى سويداء قلبها ، أما التيارات الأخرى ، فهى مغلقة على ذاتها ، تخاطب نفسها ، أو على أكثر تقدير – يخاطب بعضها بعضًا ، أما الجماهير العريقة فهى تناديهم من مكان بعيد ، فهى لهذا لا تسمعهم وإن سمعتهم لا تفهمهم ، وإن فهمتهم لا تستجيب لهم .

تيار الصحوة الإسلامية هو وحده القادر – إذا تهيأت له الظروف – أن ينفخ فى الأمة روح الحياة ، وأن يمنحها من الحوافز والقدرات ما يعجز عنه أى تيار آخر ، ينتمى إلى اليمين أو اليسار .

إن هذا التيار هو وحده القادر على أن يقود مسيرة أمتنا فى معاركها السبع ، ويمدها بالوقود اللازم فى غدها الحافل بالمخاوف والآمال .

تيار الصحوة هو القادر على تجديد الإيمان فى حياة الأمة ، وتهيئة المناخ الصالح لتكوين الفرد المؤمن بربه ورقابته ومعيته ، المؤمن بلقائه وحسابه وجزائه، المؤمن بأن عمل الذرة من الخير أو الشر مرصود عند الله ، مجزى عليه فى الدنيا والآخرة ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

لقد قرأنا فى التاريخ ، وشاهدنا فى الواقع ، ماذا يصنعه الإيمان بالإنسان حين تخالط بشاشته قلبه ، ويسرى نوره بين جوانحه .

إنه يتغير تغيراً كليًا ، من حيث اهتمامه وسلوكه وقدرته على البذل والعطاء ، إن الإيمان يحرك سواكنه ، ويستثير كوامنه ، ومن ناحية أخرى يحميه من شهوات نفسه ، وإغراءات الشياطين من حوله . ولهذا نرى الشاب إذا مسته نفحة الإيمان ، يلتزم – مع إقامة شعائر العبادة – بصدق القول ، وإتقان العمل ، وطهارة المسلك ، واجتناب ما حرم الله ، فيتوب عن الزنى ، والشرب وتعاطى المخدرات ونحوها ، حتى السيجارة لا يتناولها .

وهذا الالتزام هو أكبر ما يخيف أعداء هذه الأمة من الصحوة ، ويفزعهم من انتشارها وقوتها .

إننا فى أشد الحاجة إلى طاقات هائلة ، وقدرات فائقة ، حتى نستطيع أن نلحق بركب العالم المعاصر ، ونعوض ما فاتنا فى القرون الماضية التى استيقظ فيها الغرب ونما ، وتقدم وتخلفنا .

ولن نستطيع ذلك إلا بطاقات معنوية يقدم إنساننا فيها شيئًا فوق العادى وفوق المألوف .

ونحن نعلم أن إنساننا اليوم لا يؤدى ما يؤديه الإنسان العادى فى عالمنا ولا يقوم بالواجب المألوف المطلوب من مثله فى دنيانا !

فكيف يمكننا أن نغير إنساننا بحيث يلحق إنسان العصر فى العطاء ثم يسبقه ويتجاوزه ؟؟ .

إن هذا لا يتم إلا بحوافز ومحركات معنوية غير معتادة ، حوافز أكبر من الأجر الإضافى ، والترقية إلى منصب أعلى ، وما شابه ذلك .

إن هذا لا يكون إلا بإيمان دينى ، يفجر فى الإنسان المؤمن طاقاته المكنونة ويثير همته الكامنة ، ويحرك قدراته المبدعة .

ومن المعروف للدارسين المتعمقين أن فى الإنسان طاقات كامنة مخبوءة تحتاج إلي مفجر يظهر فاعليتها ، ويخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل .

ويمكن للإنسان إذا وجد هذا الحافز ، وعاش لذاك الهدف أن يعطى أضعاف ما يعطيه الإنسان النمطى .

إن القرآن الكريم يشير إلى أنه يمكنه بإيمانه وإرادته أن يعمل بطاقة عشرة من الآخرين . اقرأ معى هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[1] .

وهذه المضاعفة فى الطاقة لا تقتصر على المعارك العسكرية ، كما هو منطوق الآية ، بل يشمل كل المعارك ، ومنها معارك البناء والتنمية ، بشرط أن يوجد القائد المحرض ، والمؤمنون المسلحون بالإرادة والصبر .

إن الأمة فى حاجة إلى تعبئة معنوية هائلة ، وإلى استنفار عامّ للبذل

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٦ .

والجهاد من أجل البناء والنماء والعزة ، وتيار الصحوة هو المرشح للقيام بتلك التعبئة وهذا الاستنفار ، وهذا ما لا ينازع فيه أحد من العقلاء .

إجماع كل التيارات على ضرورة التغيير وأهمية العامل الدينى :

إن كل الأدباء والمفكرين الغيورين ، من حملة القلم ، ودعاة الإصلاح — ممن يمثلون شتى الاتجاهات والمدارس من يمين ويسار — مجمعون على أن أمتنا فى مأزق ، وأن وطننا فى خطر ، وأن على الجميع أن يتحرك للعمل والإنقاذ ، وأنه لا بد من تغيير حقيقى ، نسترد به الثقة بالنفس ، والأمل فى الغد ، ونستعيد لأمتنا إنسانها الغائب ، أو المغيب ، ونبنى من جديد شخصيته التى حطمتها الأيام السود .

أكتفى هنا بسطور قوية مما كتبه الأديب الكبير نجيب محفوظ فى (الأهرام) تحت عنوان (وجهة نظر) فقد كتب بتاريخ ٩ رمضان ١٤٠٧ هـ (٧ / ٥ / ١٩٨٧ م) تحت عنوان (الشعب والمعركة) يقول :

« نحن فى مأزق حضارى تتمثل مظاهره فى اقتصاد مريض وأخلاق متردية وصراع سياسى منذر بالخطر إلى ما يحدق بنا من نذر شر يتطاير شررها من الشرق والغرب . والحكومة تبذل ما تملك من جهد يتمثل حتى الآن فى خطتها الخمسية الأولى ويوشك أن يتمثل فى خطتها الثانية . ولكن أين الشعب ودوره فى هذه المعركة التى يتوقف على نتيجتها مصيره ؟ لا أكون مغاليًا ولا متشائمًا إذا قلت : إن التحدى القائم ما زال أشد من الجهد المبذول وإننا يجب أن نواجهه بإرادة بشرية مصممة وشاملة . مدرعة بالصبر والقوة والاستمرارية .

أمامنا عدو رجيم ولابد أن نلقاه بجيش كامل العدة والعدد . عالى الهمة بروحه المعنوية وحماسه الوطنى وعزيمته الصلبة . لا يكفى أن تناضل فى الميدان الحكومة والأحزاب . بل لابد من تعبئة عامة تجند كل مواطن وتدعوه إلى العمل معتمدة على دوافعه الذاتية واقتناعه الباطنى . والمسألة الحقيقية هى كيف نجند هذا الجيش وكيف ندعوه إلى العمل لكى تطمئن ضمائرنا إلى أننا فى الموقف المصيرى قد فعلنا ما ينبغى لنا فعله دون تكاسل أو تهاون أو تفريط .

ولكى يتحمل كل فرد مسؤوليته ويخرج من عزلته واغترابه فعلينا أن نخاطبه باللغة التى تستجيب لها نفسه ، كما استجابت فى مواقف مماثلة فى تاريخه العريق . لغة غير لغة التصريحات والدعاية ولكنها تتجسد فى القدوة المثالية والجدية الصادقة واحترام حقوق الإنسان والمشاركة الفعلية فى الفكر والقرار » .

وبعد أسبوع عاد إلى نفس الموضوع تحت عنوان (الطوفان والسفينة) يقول :

« قال الشباب : إنك تحثنى على تسجيل اسمى فى جدول الانتخابات باعتباره حقًّا وواجبًا على فى آن ، فما معنى الانتخابات وما معنى الحقوق وما معنى الواجبات ؟ كلام فى كلام فى كلام ، إنى يائس تمامًا ، متشائم حتى النهاية ، لا ثقة لى فى قول أو فعل أو رجل أو حاضر أو تاريخ ، تعلمت تعليمًا ناقصًا ، وألحقت بعمل لا خير فيه لنفسى ولا للناس أو هو بطالة مقنعة كما تقولون بصدق ، ولى مرتب لا يشبع ولا يغنى ، ولا يحقق لى الاستقلال عن أسرتى المطحونة ، وأنا محروم من مطالب الحياة الأساسية كالحب والزواج والمسكن ، وأعيش بلا أمل فى عالم كئيب محاصرًا بالقذارة والضجيج والانتهازيين واللصوص من جهة وبأصحاب الملايين العابثين من جهة أخرى ، فى مجتمع ظالم باغ ينادى بلسان كاذب بسيادة القانون والعدل ويمارس التفرقة بين أبنائه بالمحسوبية والامتيازات ، هذا هو حالنا نحن الشبان ولا يستثنى منه إلا من سانده الحظ بأب غنى أو أم غنية أو من وجد فى الخارج فرصة عمل تغير موازينه ، فلا تحدثنى عن الانتخابات والحقوق والواجبات والغد الموعود بالأمل والفلاح » .

والحق أنه لولا كثرة سماعى لهذه الآراء أو هذه الأنات المستعرة ما رضيت أن أسجلها وأنشرها ، ولكن إخفاءها ليس من الأمانة فى شىء ولا هو من الحكمة أيضًا . لعله صوت جيل لا صوت فرد ، ولعله تعليق تلقائى على فترة من الحضارة أنهكتها المآسى ، والحق أيضًا أنه – الشباب – لانغماسه فى أزمته قد فقد النظرة الشاملة وظلم كثيرًا من العمل البناء والاجتهاد الصادق وطمس بوارق تلوح فى الأفق ولكن من ذا الذى لا يعذر شابًا خسر أهم مقومات الحياة والسعادة ؟!

ولنتساءل مخلصين كيف تطمئن أمة ، وفي جوفها هذا القدر من اليأس والغضب والتجهم ؟ كيف تتقاعد ساعة واحدة عن إصلاح شأنها وتقويم سلوكها ، والتفانى فى العمل والإنتاج والإصلاح ؟ إنه سباق بين طوفان وبين سفينة لا تبنى إلا بسواعد الإيمان والعلم والعمل .

وأقرب من قرأت لهم فى هذا المجال الكاتب الصحفى المعروف الأستاذ لطفى الخولى ، المشرف على تحرير صفحة الحوار القوى فى جريدة (الأهرام) ، وأحد كبار الماركسيين فى الوطن العربى ، وذلك فى رده على فضيلة الدكتور / عبد المنعم النمر أثناء المعركة التى دارت رحاها حول الأفكار الغريبة التى أثارها د . محمد خلف الله فيما يتعلق بقومية الرسالة الإسلامية أو عالميتها .

والذى يهمنا تسجيله هنا هذه الفقرة التى ذكرها الأستاذ لطفى ، فى رده حين قال بصريح العبارة :

« لا نتصور أن هناك مستقبلاً ممكنًا للتغيير والتقدم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتكنولوجى ، فى مصر أو فى أى بلد عربى آخر ، خارج إطار الإيمان الدينى . ذلك أن الإيمان يعمر قلوب وعقول شعبنا إلى درجة الإجماع تقريبًا ، وبالتالى فهو يحكم السلوك الوطنى والقومى وحركته الجماعية . ومن هنا فإن هذا الإيمان – علميًا – هو المخزون العظيم الذى تتجمع وتنصهر فيه القوة البشرية – المادية ، المنوط بها إحداث التغيير التاريخى المطلوب سياسيًا واجتماعيًا . وهكذا فإنه حتى التغيير بالمنظور الاشتراكى أو بالمنظور القومى غير ممكن عمليًا وعلميًا خارج إطار هذا الإيمان الدينى للشعب ، وإلا كان علينا أن نستورد شعبًا من الخارج يقوم بعملية التغيير الثورى . هذا ليس عملاً مستحيلاً وحسب وإنما هو بالدقة عبث وجهالة وجنون » (الأهرام ٤ / ١١ / ١٩٨٧ م) .

ومهما يكن من تفسير جماعة اليسار لمعنى الإيمان الدينى ومضمونه فقولهم هذا يدل على أن التيارات كلها فى مصر – وكذلك العالم العربى والإسلامى – لا تستطيع بحال أن تنكر أو تتجاهل قوة التيار الإيمانى فى تحريك الطاقات وقدرته على التغيير والبناء ، وبخاصة بناء الإنسان .

* * *

مستقبل الصحوة

إن المزية الكبرى لهذه الصحوة أنها تجسد الاتجاه الوحيد المعبر بصدق عن ضمير هذه الأمة ، وعن هويتها الحضارية والعقائدية ، الممثل لشخصيتها التاريخية المصور لطموحاتها وآمالها ، النابعة من ذاتها وروحها ، وكينونتها الحقيقية .

فقد أثبت استقراء الواقع كما أثبتت قراءة التاريخ : أن روح هذه الأمة هو الإسلام وأنها لا تعيش إلا به ، ولا تنطلق إلا منه ، ولا تبذل النفس والنفيس إلا من أجله ، ولا تجتمع كلمتها إلا عليه .

ومن ثم لم تحقق نصراً يذكر فى تاريخها القريب والبعيد ، ولا فى حاضرها المشهود ، إلا تحت لوائه .

وكم جربت هذه الأمة من دعوات ، وسمعت من صيحات ، تريد أن تقودها بغير الإسلام ولغير الإسلام ، فلم تثمر إلا الشتات والضياع والخذلان .

إن الفلسفات والدعوات الوافدة من الغرب والشرق ، والحلول المستوردة من اليمين واليسار ، لم تحقق إلا الإخفاق والفشل فى كل الميادين ، عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية .

وعيب هذه الفلسفات والأفكار والأنظمة ، أنها دخيلة علينا ، غريبة عن روحنا وتكويننا العقدى والفكرى ، فهى عاجزة أن تخاطب (جوّانية) إنساننا المسلم وأن تقوده من مسلماته العقلية ، وأن تفجر طاقاته المكنونة ، التى يستطيع بها أن يغير مجرى الأحداث ، كما سجل التاريخ لأسلافه من قبل .

لن تتحرك هذه الأمة وتصنع العجائب إذا أنشدتها معلقة امرئ القيس ، أو قصيدة عمرو بن كلثوم .

ولن تتحرك وتصنع العجائب إذا قرأت عليها مؤلفات جان جاك روسو ، أو كارل ماركس أو جون ديوى ، أو ماوتس تونج ، أو جان بول سارتر .

إنما تتحرك حقًا وتصنع العجائب إذا حركتها بالقرآن ، وقدتها بالإيمان ،

ورفعت أمامها راية الإسلام ، وذكرتها بإمامها وزعيمها محمد عليه الصلاة والسلام .

وما لنا نذهب بعيداً ؟ وقد جربنا ورأينا ، وشاهدنا وشهدنا : أنهم يوم نادوا بشعارات القومية والاشتراكية والتقدمية وما شابهها ، لم يستطيعوا أن يغيّروا من واقع الأمة شيئًا ذا بال ، وما حققوه من مكاسب أو إنجازات - فى نظر البعض على الأقل - خسرت الأمة أضعافه فى جوانبها الأخرى ، مادية ومعنوية، وما زالت الأمة تعانى من ثماره المرة ، وخسائره غير المباشرة ، التى تظهر آثارها فى حياتنا العامة يومًا بعد اليوم .

* *

● **واجبنا نحو الصحوة :**

إن الصحوة الإسلامية هى أمل الغد لأمتنا وتستطيع أن تقود سفينة الإنقاذ بقوة وجدارة إذا ما ساعدناها نحن العرب والمسلمين . على أداء رسالتها ، وساعدت هى نفسها أيضًا . وذلك بما يلى :

أ - أن تكون صحوة لنا جميعًا ، لا أن يقف فريق منا معها ، وفريق يقاومها ، ونقضى العمر فى جذب وشد ، دون أن ننجز شيئًا كبيراً .

يجب أن نقف كلنا وراء الصحوة ،وأن يزول هذا التفريق بين (مسلمين) و (إسلاميين) ، مسلمين بوراثة العقيدة ، وإسلاميين بالتوجه والولاء . يجب أن نكون كلنا إسلاميين . حتى غير المسلمين ، يمكن أن يكونوا كذلك فيؤمنوا بحتمية الحل الإسلامى ، وإن لم يؤمنوا بحقيقة الاعتقاد الإسلامى .

وأحب أن أنبه هنا على تمييز مهم ، هو الفرق بين الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية .

فالحركة الإسلامية لها مدلول معين يعنى ارتباطًا وتنظيمًا وقيادة وجندية . أما الصحوة فهى تيار عام يشمل كل العاملين للإسلام ، جماعات وأفراداً ، ويضم معهم كل المهتمين والغيورين على الإسلام ، وعلى أمته ، وعلى أوطانه ، وإن لم يضمهم عنوان أو لافتة ، أو لم يدخلوا فى إطار هيئة أو جمعية .

الصحوة تيار تلقائى ، لا ينسب إلى جماعة بعينها ، ولا إلى مدرسة فكرية بعينها ، ولا إلى اتجاه سياسي بعينه ، بل يضم الجميع فى رحابه الفيحاء .

إنه التيار الذى لا يربط بين آحاده وفئاته إلا حب الإسلام ، والاعتزاز به ، والحرص على خير أمته وإعلاء كلمته ، والتمكين له فى الأرض ، عقيدة وفكرًا وسلوكًا وتشريعًا وحضارة ونظامًا للحياة .

(ب) أن نوفر لها مناخ الحرية والأمان ، لتعمل بلا خوف ، ولا تربص ، وبغير قيود وأغلال ، ودون حواجز وأسوار .

ففى مناخ الحرية تنطلق كلمة الإيمان الهادية ، لتخاطب العقول فتعى ، والقلوب فتهدى ، وتستحث العزائم فتنهض ، والقوى فتعمل وتنتج .

(جـ) يجب ألا نتعامل مع الصحوة من عقدة الخوف أن تنحرف كما انحرف رجال الدين فى الغرب المسيحى ، أو كما انحرف رجال الملك فى الشرق الإسلامى ، وكأننا نحملها أوزار انحراف التاريخ كله فى العالم كله ! .

علينا أن نعطيها الفرصة لقيادة الأمة فى معركة التحرير ، ومعركة البناء وسائر معاركها السبع ، كما أعطيت للاتجاهات والحلول المستوردة الأخرى يمينية ويسارية ، ليبرالية وثورية .

فالحل الوحيد الذى لم يأخذ فرصته بعد النهضة هو الحل الإسلامى الذى تنادى به الصحوة ، مع أنه الحل الذى يمثل القاعدة الجماهيرية فى شعوبنا باعتراف جميع المراقبين والدارسين .

* *

● واجب الصحوة نحو نفسها :

(د) أما الصحوة نفسها فنريد منها أن تنزل إلى الشعب ، إلى الشارع العربى المسلم وتتفاعل معه ، تعلم الجاهل ، وتقوى الضعيف ، وتعالج السقيم ، وتقوم المنحرف وتربى الجيل ، وتأخذ بيد الضال إلى الهداية ، والعاصى إلى التوبة ، ولا تتعالى على المجتمع وهى جزء منه ، وتنظر إليه على أنه هالك ، وهى وحدها الناجية ففى الحديث الصحيح « إذا سمعتم الرجل يقول : هلك

الناس ، فهو أهلكهــم » أى أقربهم إلى الهــلاك لغروره وعجبه ، واحتقاره لغيره .

(هـ) أن تصحح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام الخاصة والعامة ، سواء مفاهيم (الجمود) الموروثة من عهود التخلف ، أم مفاهيم (الجحود) التى أدخلها الاستعمار الثقافى ، وأن تقوم بدورها فى (التوعية) تمهيداً لدورها فى (التربية) وهما متكاملان .

(و) أن تجعل أكبر همها : أن تتسامح ولا تتعصب ، وأن تجمع ولا تفرق ، وتدرك أن العالم من حولها شرقًا وغربًا ، ينسى خلافاته ، ويتقارب على كل مستوى : على المستوى الدينى ، تتقارب المذاهب النصرانية بين بعضها وبعض ، وتتقارب اليهودية والنصرانية برغم العداوة التاريخية بينهما ، وقد رأينا وثيقة الفاتيكان فى (تبرئة اليهود من دم المسيح) . وعلى المستوى السياسى نرى سياسة الوفاق بين العملاقين ، رغم خلافهما الأيديولوجى .

فلا يجوز أن تشتغل فصائل الصحوة بالمعارك الجانبية ، والمسائل الهامشية التى يتعذر أن يتفق الناس فيها على رأى واحد ، ويهتموا بالقضايا المصيرية والمسائل الكبرى ، ويتبنوا قاعدة المنار الذهبية : (نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) .

ولا مانع من تعدد مدارس الصحوة وفصائلها ، على أن يكون تعدد تخصص وتنوع ، لا تعدد تناقض وتضاد .

(ز) أن تكون الصحوة بناء لا هدم ، وأن يكون همها إضاءة الشموع لا سب الظلام ، وإماطة الأذى عن الطريق لا لعن من وضعه فيه ، فالنبى (ﷺ) لم يبعث لعاناً ، ولكن بعث رحمة ، حتى أن النبى (ﷺ) قال لمن سب الشيطان : « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إن قلت ذلك انتفخ حتى يصير كالجبل ، ويقول : صرعته بقوتى ، ولكن قل : بسم الله ، فإنه يتصاغر حتى يصبح كالذباب » .

(ح) أن تفتح باب الحوار مع كل التيارات الوطنية المخالفة ، مؤكدة

لمواضع الاتفاق ، متفاهمة في نقاط الاختلاف ، داعية - كما أمر الله تعالى - بالحكمة لا بالسفاهة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالحملة العنيفة ، وبالجدال بالتي هي أحسن ، لا بالتي هي أخشن .

(ط) ألا تشتغل بالفروع عن الأصول ، ولا بالجزئيات عن الكليات ، ولا بالشكل عن الجوهر ، ولا بالنوافل عن الفرائض ، وأن تتعمق في (فقه مراتب الأعمال) حتى لا تختل النسب الشرعيـة بين التكاليف ، فتقدم ما حقه التأخر ، وتؤخر ما حقه التقديم ، وتعظم الهين من الأمور ، وتهون العظيم وقد قال الإمام الغزالي بحق : « فقد الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور » . كما قرر علماؤنا : أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، ولا يقبل الفروع ممن ضيع الأصول .

(ى) أن تراعى سنن الله في خلقه ، وهى سنن ثابتة لا تتبدل ، صارمة لا تجامل . فلا تلتمس حصاداً بغير زرع ، ولا تستعجل ثمرة قبل أوان نضجها ، وتعلم أن لكل شيء في الكون قانونه المطرد ، فمن صادم قوانين الكون صدمته ، ومن غالبها غلبته ، ومن عمل من خلالها مهتدياً بهدى الله كان نصيبه الفلاح في الأولى والآخرة .

* *

● معارك فكرية يجب أن تتوقف :

وعلينا إذا كنا جادين في البحث عن الخلاص ، أن ننهى الخلافات المعلقة دون حسم أو تحديد .

ولكي نختصر الطريق على الباحثين والمناقشين ، أود أن أعلن بكل وضوح : أن هناك قضايا فكرية طال عليها الأمد ، وعقدت لها المؤتمرات والحلقات والندوات ، وأعتقد أن الرؤيا فيها قد وضحت ، وينبغي أن ينتهى الاختلاف فيها ، ويتم الاتفاق على أصولها .

يجب أن نفض الاشتباك - بلغة العسكرية - بين أمور طالما حدث الاشتباك بينها نتيجة لغموض المصطلحات ، وعدم تحديد المفاهيم ، أو رغبة قوم في بقاء هذا الاشتباك أو النزاع مستمراً دون كلمة فاصلة .

* * *

من هذه الأمور :

١ – الاشتباك بين الدين والعلم :

فهذه معركة نشأت فى غير أرضنا ، ولم توجد عندنا يومًا ، وكما قلنا ونقول دائمًا : إن الدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين ، ولا يوجد داعية ولا فقيه ولا أحد ينتمى إلى الصحوة الإسلامية ، يقول بالاستغناء عن العلم ، أو إغلاق الباب فى وجه التكنولوجيا ، بل يرون ذلك فريضة دينية ، وضرورة حيوية ، فلا مبرر لافتعال خصومةٍ أو معركةٍ حول هذا الموضوع المنتهى .

* *

٢ – الاشتباك بين الأصالة والمعاصرة :

ولا داعيِ لأن أكرر ما قلته حول (السلفية والتجديد) فالمفهومان غير متعارضين أصلاً ، إلا إذا جعلنا (الأصالة) بمعنى (الانغلاق) على الماضى وحده غافلين عن متاعب الحاضر ، وآمال المستقبل ، رافضين كل تجديد أو اجتهاد ، أو اقتباس للحكمة من أى وعاء .

أو جعلنا (المعاصرة) بمعنى (الانفلات) من تراثنا كله : الملزم وغير الملزم ، الثابت والمتغير ، الإلهى والبشرى ، إن جاز لنا أن نسمى الجانب الإلهى (القرآن والسنة) تراثًا ! .

على أن هذا لا يعنى أن الأمر سهل ، فلا بد من بذل جهد كبير من أهل العلم والفكر المخلصين ، لتمييز الإلهى من البشرى فى التراث ، والملزم من غير الملزم ، والثابت من المتغير فيه ، وكذلك النافع من غير النافع من المعاصر ، والملائم لنا من غير الملائم ، ليس كل ما فى (العصر) خيراً ، فكم فيه (سلبيات) ضارة بل قاتلة .

* *

٣ – الاشتباك بين العروبة والإسلام :

فالعروبة فى الواقع عميقة الصلة بالإسلام ، فالعربية لسان قرآنه وسنته ، ولغة عبادته وثقافته ، والعروبة وعاؤه ، وأرض العرب معقله وحصنه ، بها مقدساته ومساجده التى لا تشد الرحال إلا إليها ، والعرب هم حملة رسالة

الإسلام إلى العالم والصحابة كلهم عرب ، ومن لم يكن عربى العرق منهم أصبح عربى اللسان والقلب (ومن تكلم العربية فهو عربى) وقد جاء فى الأثر: إذا عز العرب عز الإسلام وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

العروبة إذن عميقة الصلة بالإسلام ، كذلك الإسلام عميق الصلة بالعروبة، ولا تعارض بين العروبة والإسلام ، إلا إذا كانت العروبة (علمانية) وهى التى لا تقبل الإسلام حكما ، أو كان الإسلام (شعوبيًا) وهو الذى يعادى العرب . والواقع أن الإسلام يجعل للعرب مكانة خاصة ويعرِّب مشاعر المسلمين من غير العرب ، إن لم يعرب ألسنتهم وثقافتهم .

* * *

● مفاهيم يجب أن تتمايز :

يكمل ما ذكرناه أمر آخر لا بد منه ، وهو التفريق الحاسم بين مفاهيم لا يجوز أن تختلط أو تتشابه ، بل يجب أن تتمايز وتتباين ، فأحد طرفيها يجب أن يكون فى موضع القبول ، والآخر يجب أن يكون فى موضع الرفض .

* *

من ذلك :

١ - التفريق الحاسم بين العلمية والعلمانية :

فالعلمية فريضة شرعية ، وضرورة قومية ، وتأكيدها واجب الدعاة والمربين والمفكرين ، وأجهزة التوجيه كلها ، أما العلمانية فهى مرفوضة بكل معيار : معيار الدين ، أو معيار الديمقراطية ، أو معيار الدستور ، أو معيار الأصالة أو معيار المصلحة ، وتفصيل ذلك يطول [١] .

* *

٢ - التفريق الحاسم بين التفاعل الثقافى والغزو الثقافى :

فالتفاعل الثقافى مشروع ، بل مطلوب ، ولكن التفاعل إنما يكون من جانبين بين ندين ، يعطى كل منهما ويأخذ ، واعيًا مختاراً ، غير مكره ، ولا

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : (الإسلام والعلمانية) فصل تحديد المعايير ، وفصل : نعم للعلمية ، و(لا) للعلمانية .

واقع تحت تأثير خاص . فهو يأخذ ما يحتاج إليه ، وفق معايير مدروسة ، ويدع ما يدع تبعًا لمنطق معلوم ، محتفظًا بهويته وخصائصه ، غير مفرط في قيمه ومبادئه ومسلماته المشخصة لذاته .

أما الغزو فهو من طرف قوى لطرف ضعيف ، أى من غالب قاهر ، لمغلوب مقهور مبهور بقوة غالبه ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، ويأخذ ما لا يحتاج إليه بل يأخذ ما لا ينفعه ، وإن كان قد ينفع صاحبه ، بل كثيرًا ما يأخذ الضار ويدع النافع .

* *

٣ - التفريق الحاسم بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية :

فالدولة الإسلامية كما جاء بها الإسلام ، وكما عرفها تاريخ المسلمين - دولة مدنية ، تقوم السلطة بها على البيعة والاختيار والشورى ، والحاكم فيها وكيل عن الأمة أو أجير لها ، ومن حق الأمة - ممثلة في أهل الحل والعقد فيها - أن تحاسبه وتراقبه ، وتأمره وتنهاه ، وتقومه إن اعوج ، وإلا عزلته . ومن حق كل مسلم ، بل كل مواطن ، أن ينكر على رئيس الدولة نفسه إذا رآه اقترف منكرًا ، أو ضيع معروفًا . بل على الشعب أن يعلن الثورة عليه إذا رأى كفرًا بواحًا عنده فيه من الله برهان .

أما الدولة الدينية (الثيوقراطية) التي عرفها الغرب في العصور الوسطى والتي يحكمها رجال الدين ، الذين يتحكمون في رقاب الناس - وضمائرهم أيضًا ، باسم (الحق الإلهي) فما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء ، وما ربطوه في الأرض فهو مربوط في السماء ! فهي مرفوضة في الإسلام ، وليس في الإسلام رجال دين بالمعنى الكهنوتي ، إنما فيه علماء دين ، يستطيع كل واحد أن يكون منهم بالتعلم والدراسة ، وليس لهم سلطان على ضمائر الناس ، ودخائل قلوبهم ، وهم لا يزيدون عن غيرهم من الناس في الحقوق ، بل كثيرًا ما يهضمون ويظلمون ، ومن ثم نعلنها صريحة : نعم .. للدولة الإسلامية ، ولا ، ثم لا .. للدولة الدينية (الثيوقراطية) .

* *

● مخاوف :

إن الصحوة هى معقد الأمل ، ومناط الرجاء لهذه الأمة ، بعد فشل الحلول المستوردة ليبرالية وثورية ، ولكننى لا أكتمكم أنى أخاف عليها ، كما يخاف الوالد على ولده ، فى فترة المراهقة وأوائل الشباب .

أنا لا أخاف على الصحوة من القوى الأجنبيـــة المتربصة ، وهى لها بالمرصاد ، ولا القوى الداخلية المتسلطة ، وهى غالبًا ما تعمل لحساب تلك ، شعرت أم لم تشعر .

إنما أخاف على الصحوة من نفسها ، إذا لم تع دورها ، ولم تتنبه لما يحيط بها ، وما يخطط لها .

أجل ، أخاف عليها من عدة تيارات ، تتنازعها فى داخلها ، بأن يغلب أحد هذه التيارات ، وهو مستعبد أو يؤدى تنازعها فيما بينها إلى إضعافها جميعًا . هذه التيارات هى بإجمال شديد (أرجو أن أوفق إلى تفصيله فى كتاب آخر) :

١ - تيار الجمود والتزمت ، الذى يرفض الاجتهاد والتجديد ، والانفتاح على العالم ، ويبقى على كل قديم ، وإن لم يعد لزمننا صالحًا ، ويقاوم كل جديد ، وإن كانت الحاجة إليه ماسة .. تيار (الجمود الفكرى : المذهبى والحَرْفى) .

٢ - تيار الغلو والتنطع الذى يحجر ما وسع الله ، ويشدد فى غير موضع التشديد ، ويقوم على التعسير لا التيسير ، والتنفير لا التبشير .. تيار (التطرف السلوكى) .

٣ - تيار التهور والاستعجال والاصطدام بالسلطة قبل الأوان ، وبلا ضرورة تيار (العنف العسكرى) .

٤ - تيار الاستعلاء على المجتمع ، والعزلة عنه ، والانسحاب من ميدان الإصلاح والتغيير ، تيار (التكفير والهجرة) .

٥ - تيار التعصب الضيق ، الذى تنغلق به كل جماعة على نفسها ، مسيئة الظن بغيرها تيار (الانغلاق أو التشرذم الحزبى) .

٦ - تيار الاستغراق فى السياسة المحلية الآنية ، والاشتغال عن جوانب أخرى فى غاية الأهمية مثل :

● الجانب الدعوى (التوعية على أوسع نطاق) .
● الجانب التربوى (تكوين الجيل المسلم المنشود) .
● الجانب الاجتماعي الذى برع فيه دعاة التنصير .
وأعنى هنا تيار (الانهماك السياسى) .

* * *

● الصحوة تصحح نفسها :

ورغم هذه المخاوف أقول : إن الصحوة بفضل الله قادرة على أن تصحح خطأها وتنفى خبثها ، وثقتى كبيرة أن تيار الوسطية الذى يعمل فى دأب وصبر ، وفى توازن واعتدال ، وبوعى وتخطيط ، ستكون له الغلبة ، والهيمنة على كل التيارات الأخرى المخوفة .

وقد لمست بنفسى شيئًا من ذلك أوائل السبعينات ، مع شباب الجماعات الإسلامية فى الجامعات المصرية ، فقد كان الخط السائد هو خط التشديد والتشنج والحرفية ، ولكن بعد لقاء الشباب الدعاة المعروفين من أهل العلم والورع والاعتدال ، غلبت الوسطية على التطرف ، وغدا هذا التيار هو الغالب إلى اليوم .

والخلاصة أن تيار الصحوة الإسلامية هو تيار الغد المرجو ، والمستقبل المأمول ، وخصوصًا أن عموده الفقرى هم الشباب ، وهم ذخيرة الغد .

ورغم مخاوفنا على الصحوة فإن آمالنا فيها أقوى ، وتيار الوسطية فيها هو الغالب السائد ، وهو المرتجى المأمول ، وكل المراقبين مجمعون على قدرة هذا التيار على تغيير الإنسان من داخله ، وإنشائه خلقًا جديدًا ، يقوم على الطهارة والبذل والعطاء ، لا على النفعية ، أو العبث ، أو التهريج ، أو اتباع الشهوات ، والسير فى مواكب النفاق .

أكتفى هنا بشهادة (د . سعد الدين إبراهيم) رغم تشدده فى نقد التيار الإسلامى الأصولى — ممثلاً فى الإخوان المسلمين — وموقفه من المسألة الاجتماعية ، فهو لم يسعه إلا أن يعترف بقدرة هذا التيار — وحده — على تعبئة الأمة ، وتجنيد طاقاتها من أجل أهدافها الكبرى ، حيث يؤكد فى خواتيم دراسته فى ندوة (التراث وتحديات العصر) وفى مقام تذكير الماركسيين

بأهمية التراث ، وخطر تجاهل الدين ، وتأصل الإسلام فى أعماق الأغلبية العظمى ، وقوته التعبوية : « إن المشروع الأصولى قادر دائماً على استنفار المؤمنين للجهاد والاستشهاد ، بأقوى مما تستطيع أى رؤية وضعية ، وإن تلك الحقيقة هى التى تفسر إسقاط نظام الشاه ، واغتيال السادات وإخراج القوات الأمريكية من لبنان ، وهى أمور تمناها الماركسيون العرب وغيرهم من القوى الوطنية العربية ، ولكن الأصوليين هم الذين حققوها » (١) .

إن التيار الإسلامى الأصولى الوسطى - بحسن فهمه للإسلام ، وحسن فهمه للحياة وسنن الله فيها ، وحسن فهمه لهموم وطننا العربى والإسلامى الكبير ، وعمق نظرته إليها وحسن عمله بالإسلام وحسن دعوته إليه فى شموله وتوازنه وسعة آفاقه ، وجهاده الدؤوب الصبور ، لتمكين أحكام الإسلام وتعاليمه فى أرضه ، وتغيير الواقع المنحرف عن الإسلام ، أو المعادى له إلى واقع إسلامى صحيح - هذا التيار هو تيار المستقبل وسفينة النجاة لهذه الأمة .

وهو بتأييد الله تعالى ، وبفضل هذه الصحوة الفتية المباركة ، قادر أن يصل بوطننا وأمتنا الكبرى إلى بر الأمان . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

* * *

(١) ندوة (التراث وتحديات العصر) ص ٥٣١ .

(٢) سورة الروم : الآيتان ٤ ، ٥

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

* * *

قائمة بمؤلفات د . يوسف القرضاوى

(١) فقه الزكاة .
(٢) الحلال والحرام فى الإسلام .
(٣) الإيمان والحياة .
(٤) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
(٥) العبادة فى الإسلام .
(٦) شريعة الإسلام .
(٧) فتاوى معاصرة .
(٨) غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
(٩) الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا
(١٠) الحل الإسلامى فريضة وضرورة .
(١١) الخصائص العامة للإسلام .
(١٢) الصبر فى القرآن .
(١٣) ثقافة الداعية .
(١٤) الناس والحق .
(١٥) درس النكبة الثانية .
(١٦) عالم وطاغية .
(١٧) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
(١٨) وجود الله .
(١٩) حقيقة التوحيد .
(٢٠) نساء مؤمنات .
(٢١) الدين فى عصر العلم .
(٢٢) ظاهرة الغلو فى التكفير .
(٢٣) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
(٢٤) الرسول والعلم .
(٢٥) الوقت فى حياة المسلم .
(٢٦) بيع المرابحة للآمر بالشراء كما تجريه المصارف الإسلامية .
(٢٧) رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .
(٢٨) جيل النصر المنشود .
(٢٩) عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
(٣٠) أين الخلل ؟
(٣١) الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .
(٣٢) الفقه الإسلامى بين الاصالة والتجديد .
(٣٣) قضايا معاصرة على بساط البحث .

(٣٤) نفحات ولفحات (ديوان شعر) .
(٣٥) الإسلام والعلمانية وجها لوجه .
(٣٦) بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين
(٣٧) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
(٣٨) الفتوى بين الانضباط والتسيب .
(٣٩) من أجل صحوة راشدة : تجدد الدين وتنهض بالدنيا .
(٤٠) الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
(٤١) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى .

* * *

رقم الإيداع ١٩٩٦/١١٧٣٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-225-100-0

كتب للمؤلف

*** سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :**

(١) شمول الإسلام .
(٢) المرجعية العليا في الإسلام .. للقرآن والسنة .
(٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ، ومن التمائم والكهانة والرقى .

*** سلسلة حتمية الحل الإسلامي:**

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
(٢) الحل الإسلامي فريضة وضرورة
(٣) بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين
(٤) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة .

*** سلسلة فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة « في الطريق إلى الله »**

(١) الحياة الربانية والعلم .
(٢) النية والإخلاص .
(٣) التوكل .

*** سلسلة عقائد الإسلام :**

(١) وجود الله .
(٢) حقيقة التوحيد .

*** سلسلة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم :**

(١) الصبر .. في القرآن
(٢) العقل والعلم .. في القرآن الكريم

*** سلسلة رسائل ترشيد الصحوة :**

(١) الدين في عصر العلم .
(٢) الاسلام .. والفن .
(٣) مركز المرأة في الحياة السياسية الإسلامية
(٤) النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه .
(٥) فتاوى للمرأة المسلمة .
(٦) جريمة الردة .. وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة
(٧) الأقليات الدينية ... والحل الإسلامي
(٨) المبشرات بانتصار الإسلام

*** إسلاميات عامة :**

- الحلال والحرام في الإسلام .
- الإيمان والحياة .
- الخصائص العامة للإسلام .
- العبادة في الإسلام .
- ثقافة الداعية .
- فقه الزكاة « جزآن » .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
- بيع المرابحة للآمر بالشراء ، كما تجريه المصارف الإسلامية
- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
- رسالة الأزهر بين .. الأمس واليوم والغد .
- جيل النصر المنشود .
- نساء مؤمنات .
- ظاهرة الغلو في التكفير .
- الناس والحق .
- درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف ننتصر ؟ .
- عالم وطاغية « مسرحية »
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .
- الوقت في حياة المسلم .
- أين الخلل ؟
- الرسول والعلم .
- نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
- الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه
- فتاوى معاصرة « جزآن »
- شريعة الإسلام .
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية
- المنتقى من الترغيب والترهيب «جزآن» .
- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي .
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- من أجل صحوة راشدة .
- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
- الدين في عصر العلم .
- فوائد البنوك هي الربا الحرام .
- كيف نتعامل مع السنة .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
- تيسير الفقه .. « فقه الصيام» .
- لقاءات ومحاورات حول قضايا الاسلام والعصر .
- المدخل لدراسة السنة النبوية .
- يوسف الصديق «مسرحية شعرية» .
- قطوف دانية من الكتاب والسنة .
- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
- المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
- محاضرات الدكتور القرضاوي .
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .
- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي .
- السنة مصدر للمعرفة والحضارة .
- خطب الشيخ القرضاوي (جـ١) .
- دروس في التفسير « تفسير سورة الرعد» .
- في فقه الأولويات « دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة »
- الإسلام .. حضارة الغد
- الأمة الإسلامية .. حقيقة لا وهم.